

روايات جائزة نوبل

16

أناتول فرانس

7.8.2017

الآلهة عطشى

ترجمة وتقديم

مصطفى كامل خليفة

الدار المصرية اللبنانية

الآلهة عطشى

أناتول فرانس

نوبـــل / 1939

ترجمة وتقديم

مصطفى كامل خليفة

روايات جائزة نوبل

16

روايـــات جائــزة نـوبـــل

سلسلة تصدرها

الـدار المصرية اللبنـانية

المـديـر العـــام : **محمد رشـــاد**

رئيس التحـريـــر : **فتحى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحـى**

---

16 شـارع عبـد الخالق ثروت. تليفـون : 3910250 ـ فاكس : 3909618

ص.ب 2022 ـ برقيا دار شادو ـ القاهرة

E - mail:info @ almasriah. com

WWW . almasriah . com

رقم الإيداع : **2001 / 18753**

الـترقيم الدولـى : **6 - 646 - 270 - 977**

جمع وطبع : **عربيـة للطباعـة والنشـر**

العنوان : **7 - 10** شارع الـسلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفــــون : **3256098 - 3251043**

الطبعة الأولى : **1422هـ ـ 2001** م

الطبعة الثانية : محرم **1427هـ** ـ فبراير **2006** م


1

« الآلهة عَطْشَى »

1

إيفاريست جاميلان، رســام، تلميذ دافيد، عضو فى دائرة بونت – نوف(1)، إقليم هنرى الرابــع ســابقًا، تــوجــه فى الصباح الباكر إلى كنيسة البارنابيت (2) القديمة .

كــان يشغل مقعدًا فى الجمعيــة العامــة للإقليم منذ ثلاث سنوات، من تاريخ واحد وعشرين من مايو ١٧٩٠، وكانت هذه الكنيسة تقع فى ميدان ضيق ومظلم، بالقرب من سياج القصر .

تتكون واجهة الكنيسة من طرازين معماريين كــلاسيكيين، ومزخرفة بإفــريزين معكوسين، ومسارج من الخزف، وقــد أبلاها الدهر، وأهانها البشر، وبالمطارق، دُقَّــت شعــاراتها الدينيــة، وسُجِّلَ عليهــا الشعـــار الجمهورى بالحروف السوداء : «الحرية والمساواة، الإخاء أو الموت».

دلف «إيفــاريست جاميلان» إلى داخــل جناح الكنيسة.. عقــود القباب التى كــانت تستمع إلى كهنة جمعية «ســان بول» عندمــا كانوا يترنمــون

---

(1) لوبونت — نوف : دوائر اختصاص انتخابية .

(2) لوبارنابيت : قديس ميلانو أصلاً (عام ١٥١٧) .

بالقــداس الإلٰهى وهـم يرتدون قمصــانهم الخاصـــة، الآن ترى المواطنين بغطاءِ رأسٍ أحمرَ اللَّوْن، وقــد تجمعوا لينتخبــوا أعضــاء المجلس البلدى ويتداولوا بصدد شئون الدائرة .

سُحِبَت تماثيل القـــديسين من مــواضعهــا، وحلـت محلهــا التماثيل النصفية لبروطس، وجان جــاك، ولوبيلتييه (١)، ولوحة حقـوق الإنسان تنتصب على المذبح العادى .

فى هذا الجناح من الكنيســة، تنعقـد الجمعيـات العموميـة، مـرتين فى الأسبوع ، مــن الساعة الخامســة وحتى الساعــة الحادية عشرة. المنبر فى الكنيسة يُزَيِّنه عَلَمُ الأُمَّة بألوانها، ويُستخـدم كمنصة لإلقاء المواعظ. وفى الجانب الأيمن من المذبح توجـد منصة من السِّقـالات الضخمة مـرتفعة، مخصصة لاستقبال النساء والأطفال الذين كانوا يتوافدون بأعداد كبيرة إلى حدٍّ مّا لحضور هذه الاجتماعات.

وفى هذا الصبــاح – أمــام أحـد المكاتب عند سفح المنبر – يقف نَجَّــارُ ميــدان ثيـــونفيل الوطنــى ديبـون اينيـــه مـــرتـديًا غطاءَ رأسٍ أحمرَ وكرمنيولا(٢)، وهو أحد الأعضاء الاثنا عشر للجنة المراقبة .

كان يوجـد على المكتب قاروة وأقــداح، ومحبرة وأدوات كتابة، ودفتر يحتوى على نص العريضة التى دعـت الجمعية إلى أن تستبعد من هيكلها

---

(١) لوبيليتييه دى سان فارجو : مستشار فى برلمان باريس قبل الثورة . أُغتيل فى اليوم السابق لتنفيذ حكم الإعدام فى لويس السادس عشر، أى فى العشرين من يناير سنة ١٧٩٣ .

(٢) أى : سترة قصيرة .

الأعضاء غير الجديرين بالعضوية، وعددهم اثنان وعشرون.. إيفاريست جاميلان تناول القلم ووَقَّع .

قال القاضى المهنى : « كنتُ على يقينٍ أنكَ سوف تعطى صوتك أيها الوطنى «جاميلان». إنكَ متحمس، ولكن الدائرة ليست متحمسة، تنقصها الفضيلة. وقد اقترحتُ على لجنة المراقبة ألاَّ تعطى شهادة المواطنين لأى فرد لا يوقِّع على العريضة».قال جاميلان : إننى على استعداد أن أوقع بدمائى على حظر دخول الخونة الفيدراليين. لقد أرادوا قَتْلَ مارات (١)، فَلْيَهْلِكُوا .

أجاب ديبون إينيه : هذا ما يُحيرنا، عدم الاكتراث واللامبالاة فى دائرة تحتوى لى تسعمائة مواطن لهم الحق فى التصويت، لم يحضر منهم إلى الجمعية غير خمسين. بالأمس كان عددنا ثمانيةً وعشرين .

جاميلان : حسنًا يجب إجبار المواطنين على الحضور وإلاَّ تُفْرَض عليهم غرامات .

النجار عابسًا : ما هذا ؟ إنهم إذا حضروا جميعهم فسوف يكون المواطنون أقلية... أيها الوطنى جاميلان، هل لك فى قدح من النبيذ فى صحة السان كولوت (٢) ؟.....

---

(١) مارات جان بول : ثائر شعبى فرنسى مشهور.. ولد سنة ١٧٤٣ وكان طبيبًا، وأنشأ صحيفة «لامى دى بيبل» سنة ١٧٨٩ . وله مسئولية كبيرة فى وقوع مذبحة سبتمبر الشهيرة، واغتالته شارلوت كورداى فى الثالث عشر من شهر يوليو سنة ١٧٩٣ .

(٢) اسم أطلقه الأرستقراطيون على الثوريين سنة ١٧٨٩ .

وعلى حائط الكنيسة، من ناحيــة الإنجيل، تقرأ هذه الكلمات مصحوبة بيد ســوداء تشير بالسبــابة إلى الممــر الذى يؤدى إلى رواق الدير : لجنة مدنية، لجنة المراقبة، لجنة خيرية.

وبعـد بضـــع خطوات إلى الأمــام نصل إلى باب مخزن الأمتعـــة الذى تعلوه عبارة : «لجنة عسكرية». ودفع «جاميــلان» البابَ، فوجد سكرتير اللجنة يكتب على منضدة كبيرة مـزدحمة بالكتب والأوراق، وسبائك من الصلب ، وخراطيش، وعينات من الطين ، ولفائف البارود .

– تحياتى إليك أيها الوطنى «تُروبير».. كيف حالك ؟

– أنا ؟.... فى أروع حال !

سكرتير اللجنة العسكرية «فورتونيه تروبير» يردُّ دائمًا بهذه الإجابة بدون تغيير على كل من يريد أن يطمئن على صحته، وكان يفعل ذلك ليس ليُطمئنهم على صحته فحسب، بل لكى يختصر أى محادثة فى هذا الصدد . كــان مصابًا بجفــاف الجلد منذ أن كــان فى الثامنة والعشرين من عمــره، وسقــوط شعــره إلاَّ النادر منه. وكــان أحمر الوجنتين، مقـوس الظهــر، متخصصًا فى البصريات بحى الصــاغة. وكــان يمتلك منزلاً عتيقًا، والذى تنازل عنه فى عام ألف وسبعمائــة وواحد وتسعين لأحـد الأمناء، ليتفرغ لأعماله بالمجلس .

كــــانت والدته جميلة، وقــــد توفيــت وهى فى العشرين من عمــــرها. ويحتفظ بعض سكان الحى من المتقـــدمين فى السن بذكــرياتها الطيبــة،

وكان يرث عنهـا عينيها الجميلتين والمؤثرتين، كما وَرِثَ عنهـا شحوبها، وحَيَاءَها .

وأَمَّا والده فكان مهندسَ بصرياتٍ ، وكـان متعهد المَلِكِ، وقـد أُصيب بنفس المرض قبل أن يبلغ الثلاثين من عمـره، وكان يتمتع بفكر سـديد ومُرَكَّز .

ويقول دون أن يتوقف عن الكتابة :

– وأنت أيها المواطن ، كيف حالك ؟

– حَسنٌ . هل من جديد ؟

– لا شيء ، لا شيء كما ترى . كل الأمور هادئة هنا .

– والموقف ؟

– الموقف كما هو دائمًا .

كـان الموقف مخيفًـا . وأفضل جيـوش الجمهـورية حـوصر فى «مايانس»(١)، كذلك حـوصرت «فالنسيان»(٢)، واستولى «الفانديون»(٣) على «فـونتناى(٤)، وثارت «ليـون»، وتمرد «السيفينيـون(٥) ، والجبهـة

---

(١) مايانس : من المُدُن الالمانية .

(٢) فالنسيان : من المدن الفرنسية .

(٣) الفـانديون : نسبة إلى «فـاندة» وهى مـديرية فرنسـية كانت تـؤيد النظام الملكى وكانت شـديدة المقاومة للثورة الفرنسية .

(٤) فونتناى : مدينة تابعة لمديرية « فاندة » .

(٥) السيفينيون : نسبة إلى «سفين» من جبال فرنسا الوسطى .

مفتوحة أمـام الإسبان. وثُلُثَا عدد المقاطعات إمَّـا تم غَزْوُهُ، وإِمَّا ثائرون. وباريس تحت وطأة المدافع النمساوية بدون مال وبدون خبز .

كـان «فـورتونيه تروبير» يكتب فى هـدوء حين كانت الدوائـر مكلفـة بقـرار رسمى من مجلس العمـوم بتجنيـد اثنى عشر ألف رجل من أجل «فاندة»، فكتب تعليمات بالنسبة إلى تجنيد وتسليح الفيلق الذى يجب على «بونت – نوف» أو ، «هنرى الرابع» سابقًا أن تُعِدَّه .

لابد من تسليم البنادق والذخائر إلى الذين يتم استـدعاؤهم . وسوف يُسَلَّح الحرس الوطنى بالبنادق والأسلحة البيضاء فى كل دائرة .

قال جاميلان : سأُحضر إليكَ كشفًا بالأجراس التى يجب أن تُرْسلَ إلى لوكسمبورج لِتُحَوَّلَ إلى مدافع .

ومع أن «إيفـاريست جـاميـلان» لا يملك مليمًا واحـدًا، إلا أنه كـان مُسَجَّلًا بين أعضـاء الدائرة المتحمسين. إنَّ القـانون لا يمنح هذا الامتياز إلَّا للمواطنين القـادرين على دَفْع نسبةً تَعْـدِلُ قيمةَ ثلاثة أيام عمـل، وقد كـان القـانون يشترط دفع ضريبـة تعـدل عمل عشرة أيام حتى يصبح الناخب مـؤهلًا للانتخـاب . ولكن دائـرة «بونت – نوف » كانت مأخوذة بمبدأ المسـاواة، وغيورة على استقـلالها ، فقد كانـت تتمسك بالنسبة إلى الناخب وإلى أهليـة الانتخاب بكل مـواطن دَفَعَ من مـاله الخاص ثمنَ زىِّ الحرس الوطنى الخاص به. تلك كانت حالة «جاميلان» الذى كان مواطنًا نشيطًا فى دائرته، وعضوًا فى اللجنة العسكرية .

ويضع فورتونيه تروبير القلم ويقول :

– أيها المواطن «إيفـــاريست»، اذهبْ إلى الجمعيـــة واطلب منهم أن يرسلوا إلينا تعليمات بتقليب أرض الكهـوف، وغسيل الأرض والأحجار للحصول على ملح البارود. فليست المسألة فقط هى الحصول على مدافع، بل أيضًا لابد من البارود .

يدخل أحدب قصيرٌ مخزن الأمتعـة واضعًا القلمَ خلف أُذنه، والأوراق بين يديه.. كان ذلك هو المواطن «بوفيزاج»، من لجنة المراقبة :

– أيها المواطنون – قـال ذلك واستطرد : لقـد تلقينا أنباءً سيئة ، فقـد «كوستين»[1] عن «لاَنْدُو»[2] .

جاميلان صارخًا : كوستين خائن !

– قال بوفيزاج : سوف يُعدم بالمقصلة .

تروبير بنفسه اللاهث قليلاً ، يتحدث بصوته الهادىء كالمعتاد :

– إن الجمعيـة لم تُشكل لجنة الخلاص الشعبى عبثًـا ، وفيها سـوف يُدرس سلوك كـوستين ، فيُرى أهو خـائن أم لا ؟ وسـوف يُسْتَبْـدَلُ به جنرالًا موطَّد العزم على الانتصار، وذلك حتمًا سيكون !

ثم تصفح بعض الأوراق ، وألقى عليها نظرة شاملة بعينيه المرهقتين ، واستطرد :

---

(١) كونت دى كوستين : قائد فـرنسى ، ولد سنة ١٧٤٠، وقَاتَلَ فى أمريكا فى حرب الاستقلال . وعُيِّن قائدًا عامًا لجيوش الشمال – وحُكم عليه بالإعدام بالمقصلة فى الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٣ للاشتباه فيه .

(٢) لاندو : من مُدُن « بفاريه » .

– وحتى يقوم جنودنا بواجبهم على الوجه الأكمل بدون أدنى تقصير، يجب أن يعرفوا أن ذويهم الذين سيخلفونهم فى موطنهم سوف يكونون فى أمان . وإذا كنت على هذا الرأى أيها المواطن «جاميلان» فسوف تطالب معى فى المجلس القادم، بأن تُجْمِعَ اللجنة الخيرية واللجنة العسكرية أمرهما على مساعدة الأُسَرِ المُعْسِرَةِ التى لها عائل فى الحرب .. ثم ابتسم وقال مُدَنْدِنًا :

– ستكون الأحوال مرضية !.

إن أمين هذه اللجنة يعمل يوميًّا اثنتى عشرة ساعة ، أو أربع عشرة ساعة أمام منضدته المصنوعة من الخشب الأبيض، لينقذ الوطن من الخطر . هذا السكرتير المتواضع لإحدى لجان الدائرة، لا يرى مطلقًا أى تباين بين ضخامة المهمة وتدنى الوسائل، فهو يشعر بأنه مشترك فى مجهود عام لجميع المواطنين ، وأنه يتكاتف مع الأمة ، كما يشعر بأن حياته تمتزج مع حياة شعب عظيم .

إنه من هؤلاء الذين يَتَذَرَّعُون بالحماس والصبر عند كل هزيمة ، ويعدون العُدَّةَ للانتصار المستحيل والأكيد، ولابد لهم من الانتصار. هؤلاء الرجال المُسْتَحْقَرُونَ الذين هدموا المَلَكِيَّة ، وقلبوا العالم القديم، وهذا «التروبير» مهندس البصريات القصير، وهذا «الإيفاريست جاميلان» الرسام المغمور، لا ينتظرون مطلقًا الخلاص من أعدائهم، ولم يكن لهم خيار سوى الموت أو النصر، ومن هنا كانت حميَّتهم وصفاء نفوسهم .

* * *

فى لحظة خروج البرنابى، توجه «إيفاريست جاميلان» إلى ميدان «دُوفين»، والذى أصبح ميدان «تيونفيل»[1] تشريفًا لهذه المدينة الحصينة .

هذا الميدان الذى يقع فى أكثر الأحياء ارتيادًا فى باريس فَقَدَ نظامه ومظهره الجميلين منذ حوالى قرن : فالفنادق التى كانت مشيدة على الواجهات الثلاثة فى عهد «هنرى الربع» على نمط واحد من القرميد الأحمر، مع سلاسل من الحجر الأبيض، وذلك من أجل قضاة عظام ، تغيرت الآن سقوفها العالية من الإردواز إلى طابق أو طابقين بائسين من الجص ، أو أنها هخدمت وسُوِّيت بالأرض ، وأقيمت بدلا منها منازل محرومة من الجمال، وطُليت بالجبس بطريقة سيئة، ولا تعرض سوى واجهات مشوهة حقيرة قذرة ، تخترقها نوافذ غير متساوية، ضيقة، لا حصر لها، تزينها أُصُصٌ من الزهور، وأقفاص الطيور، وغسيل منشور.

هناك ، يقيم خليط من الحرفيين : الجواهرجية، والنقاشين، والساعاتية ، ومتخصصى البصريات، والطبَّاعين، وتاجرات البَزِّ والقبعات، والغسَّالات أو الكوَّاءات، وبعض رجال القانون كبار السن الذين لم ينجرفوا قط فى اضطرابات مع الحكم المَلَكِىِّ .

كان ذلك فى صباح يومٍ من أيام الربيع ، مع أول خيوط من أشعة الشمس التى تُثْمِلُ كما يُثْمِل النبيذ المُسْكِر.. تبتسم على الأسوار،

---

(١) تيونفيل : من مدن فرنسا المنيعة .

وتنساب فى بهجة على الأَسْقُف . وكانت أسقف نوافذ المقصلة مرفوعة، وتظهر من تحتها الرءوس الشَّعِثَة للخادمات .

كاتب محكمة الثورة خارجٌ من منزله، مُتَوَجِّهٌ إلى عمله، يداعب خدود الأطفال الذين كانوا يلعبون، وهو مارٌّ فى طريقه تحت الأشجار . وسُمِعَ صوتٌ يصيح على « لوبونت – نوف »، قائلاً : خيانة الدَّنِىء «ديموربيه»(١).

وكان «إيفاريست جاميلان» يُقيم فى جانب ساحة «الهورلوج»، فى منزل قديم يرجع تاريخه إلى هنرى الرابع، وكان المنزل أيضًا يظهر بمظهر لائقٍ لولا وجود مخزن صغير مُغطًّى بالقرميد، وَالذى تم تعليته فى عهد الطاغية الأسبق، لتخصيص إحدى شقق أحد قُدامَى البرلمانيين لغرض معين لتتلاءم مع العائلات البورجوازية والحرفية، الذين كانوا يقيمون فيها، فقد ضوعف عدد القواطيع، وعدد حجرات السُلَّم.. وهكذا كان البوَّاب الخيَّاط الوطنى «رِيمَاكل» يسكن فى طابق أرْضِىٍّ ضيِّقٍ فى المساحة والارتفاع والعرض بحيث كان يُرَى من خلال الباب الزجاجىّ متربعًا على منضدة العمل، ورقبته على القاطع، يحيك زىَّ الحرس الوطنى.

هذا ولم يكن لموقد زوجته المواطنة ريماكل الذى تطهو فيه سوى

---

(١) ديموربيه : نقيب فى الرابعة والعشرين من عمره، وصل إلى قيادة جيش الشمال، وأحرز انتصارات، وغزا بلجيكا وهولندا .. هزمه النمساويون.. دَبَّرَ خيانة وانضم للأعداء فى الخامس من أبريل سنة ١٧٩٣ .

السُّلَّم كمدخنة تُسمِّم بها أنوف المستأجرين بدخان محمراتها ومقلياتها. وعلى عتبة الباب تجلس طفلتهم الجَميلة «جوزفين» ملطخه بميلاس قصب السكر ، وهى تبدو جميلة كضوء النهار، تلعب مع الكلب مُوتُون، كلب النَّجَّار .

كانت المواطنة «ريماكل» طيبة القلب، ممتلئة الصدر والحقو، وكانت دائمًا تمر لتعرض خدماتها على جارها المواطن «ديبون لينيه»، أحد أعضاء لجنة الرقابة الاثنى عشر. وكان زوجها شديد الارتياب، وكان الزوجان «ريماكل» يملأن المنزل بالصياح المتبادل بسبب مشاجراتهما ومصالحاتهما . وكان يشغل الطوابق العليا للمنزل كل من المواطن «شابيرون»، وهو صائغ، ومحله يقع فى ساحة «الهورلوج»، وضابط صحة، وأحد رجال القانون، وطَرَّاقٌ للذَّهب، وكثير من موظفى القصر .

صعد «إيفاريست جاميلان» الدَّرَج القديم حتى الطابق الرابع والأخير، حيث توجد ورشته، مع غرفة لوالدته. وهنا ينتهى الدرج الخشبى المُزَيَّن بالتربيعات التى أعقبت السلم الحجرى الكبير من الطوابق الأولى. ويوجد سلم معلَّق على الحائط، يؤدي إلى مخزن حيث كان ينزل آنئذٍ رجل ضخم، كبير فى السن، له وجه جميل وردى ومضىء، ويحمل بصعوبة بالةً ضخمة، ومع ذلك كان يُرَدِّدُ : فقدت خادمى .. ثم توقف عمَّا كان يردده وأومأ إلى «جاميلان» بطريقه كورتوازية فحيَّاه «جاميلان» بطريقة أخوية، وساعده فى إنزال الطَّرْد الذى يحمله، والذى شكره كثيرًا على مساعدته فى حَمْله.

قال له وهو يمسك بحمله : أتعرف ما هذا ؟ هذه لعب، ودُمًى متحركة، وذاهب لأسلمها إلى أحد تجار اللعب فى شارع «لالوا» حيث يوجد كثير من الزبائن.. إنها من مبتكراتى وصُنْعى، وقد أنهكنى صُنعها وَصَبًا وألمًا ، ولكنى لم أُبَالِ بذلك ما دُمْتُ رَبًّا صالحًا .

وهذا هو المواطن «موريس بروتو» الذى كان جابيًا للضرائب، وكان فيما مضى من النبلاء . أمَّا والده فقد اغتنى فى الزمن الغابر من انضمامه إلى الأحزاب. كان «موريس بروتو»، يُسَمَّى السيد «ديزيليت»، ويُقَدِّم فى فندقه (أوتيل دى لارى دو لاشيز) طعامَ عَشَاءٍ لذيذًا وشهيًّا، وأن السيدة الجميلة «دى روشيمور»، الزوجة الحسناء لأحد النواب، مضيئة بعينيها وهى سيدة متكاملة، لم يُنْكَرْ وفاؤها وأمانتها الشريفة ما دامت الثورة قد تركت إلى «موريس بروتو ديزيليتو مَكَاتِبَهُ وإيراداته، وفندقه، وأراضيه، واسمه .

لقد انتزعت الثورة منه كل شىء، وصار يكسب عيشه عن طريق رسم لوحات تحت أبواب العربات. ويصنع فطائرَ مُحَلَّاةً وأخرى محشوة باللحم أو بالخضار أو الفاكهة فى شارع «ميجيسيرى». ويؤلف خُطَبًا لممثلى الشعب، ومن إعطاء دروس فى الرقص للشابَّات الوطنيات .. إنه حاليًّا فى بيته الذى يشبه المخزن ، حيث يدلف إليه عن طريق سلم ، ولا يمكن أن نظل واقفين فيه. إن «موريس بروتو» غنى بأدواته : إناء به مادة لاصقة، ولفة من الخيط، وعُلْبة ألوان ماء.. يصنع الدُّمَى المتحركة، والتى يبيعها إلى كبار تجار اللعب، وهم بدورهم يبيعونها إلى التجَّار

الجائلين الذين يطوفون بها فى شارع «الشانزيليزيه»، مُعلقة على طرف عصًا طويلة، وأشياء لامعة تجذب أنظار ورغبات الأطفال .

وفى خِضَّم الاضطرابات الشعبية، وفى وقت النكبة الكبرى التى تأثَّر بها هو شخصيًّا، فى هذا الوقت العصيب يحتفظ بنفسٍ صافية.. ويقرأ «لوكريس» لِيَتَسَلَّى، ويحمل كتابه دائمًا فى جيب «الريدينجوت» الأكلف اللون (١)، والمفتوح دائمًا .

ويدفع «إيفاريست جاميلان» باب مسكنه الذى فُتِحَ فى الحال . إن فقره يوفِّر عليه استعمال المزاليج(٢)، وعندما تسحب والدته المزلاج كعادتها لتغلق الباب ، يقول لها : « ما الفائدة؟ إن نسيج العنكبوت لا يُسْرَقُ.... ونسيجنا لا يقل قيمة عنه ».

وفى روشته تتكدس – تحت طبقة سميكة من التراب، أو على الحائط – لوحاته التى فى بدايتها . وكان يختار مناظر غزلية، يُلاطف بريشته الناعمة الخجولة جعباتٍ فارغةً، وطيورًا محلقة، ولعبًا خطيرة، وأحلامًا بالسعادة، وتجمُّعًا لحارسات الإوز، وَيُزَيِّنُ بالورود صدْرَ الراعيات .

ولكن هذه الطريقة لا توافق ميوله مطلقًا. هذه اللوحات التى تم اختيارها بدون أى حماس تشهد على طهارة نفس الكاتب، والتى لا يمكن تعويضها. ولم ينخدع الهواة فيه . وجاميلان لن يتحول إلى فنان غَزَلِىٍّ مطلقًا . واليوم – مع أنه لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد – فإن موضوعاته

---

(١) الأكلف اللون : أى الذى بين اللونين ، الأحمر الأسود .

(٢) المزاليج : جمع مزلاج ، وهو المغلاق « القفل » .

تبـدو له كأنها من زمن سـحيق . ويعـرف فيهـا الفسـاد الملكى، والتأثير المُخجِل لانحـلال البـلاد . ويعترف بأنه أخطأ فى الانخـراط فى هذا النوع الحقير، ودلَّ على عبقـرية محقرة بالعبـودية. والآن هو مـواطن فى شَعْب حـر، يرسم بالفحم بخطوطٍ قويـة حريات حقـوق الانسان، والدسـاتير الفـرنسية ، وفضـائلَ جُمهـورية ، وهراقلةً شَعْبِيِّين، يصرعون أفعـوان الطغيـان، ويصب فى جميع هذه الموضـوعـات كل حماس الوطنيـة. وللأسف ! لم يكسب منها عيشه .

كان الوقت عصيبًـا بالنسبة إلى الفنانين، ولا رَيْبَ أن ذلك لم يكن خطأ الجمعية التى تُطلق فى جميع الأنحـاء جيوشًـا ضد الملوك، والتى - وهى متغطرسـة - لا تتأثر بشىء، فهى صامـدة أمـام أوروبا المتآمـرة، وهى غادرة بطبعهـا، وقاسية مع نفسهـا.. كانت تمزق نفسها بيـديها، وكانت تدرج الإرهاب فى جـدول الأعمال، وأنشأت محكمـة لا ترحم لمعـاقبـة المتـآمـرين، وإليها سـوف يُقـدم - فيما بعد - أعضاؤها لكى تفترسهم، وهى فى نفس الوقت هادئـة، متفكرة، صـديقـة للعِلْم وللجمال.. أعـادت ترتيب التقـويم، وأنشأت مـدارس خـاصـة، وأصـدرت قـرارًا بإجـراء مسابقات فى الرسم والنحت، ورصـدت جوائزَ لتشجيع الفنانين، ونظَّمت صالونات سنـوية، وفتحت المتحف، واقتداء بأثينا وروما أضفت طابعًا رفيعًا فى الاحتفال بالأعياد، وبالحداد الشعبى .

ولكن الفن الفرنسى المنتشر قـديمًا فى إنجلترا وألمانيا وروسيا وبولندا لم يكن له أسـواق فى الخارج .. هواة الـرسم، والمعجبـون بالفن، وكبـار السـادة، والماليـون، حَلَّ بهم الخراب ، وقد هاجـروا واختفـوا . والناس

الذين أَثْرَتْهُم الثـورة فـلاحون يمتلكون أراضىَ وطنيـة، ومضـاربون بالأسـهم الماليـة، ومُمولون للجيـوش، ومديرو صـالات الميسر فى القصر الملكى، لم يجرءوا بعـد على إظهار ثرائهـم ، وعلاوة على ذلك لا يهتمُّـون بالرسم .

كان الفنان لابد أن تكون له شـهـرة «رينيو»[1]، ومهارة «جيرارد»[2] الصغير من أجل أن يبيع لوحة .

واستبـد بكل من «جـروز»[3]، و «هوين»، و «فـراجـونار»[4]، فقـر مدقع، وكـان «برودون»[5] ينفق بصعـوبة على زوجته وأطفـاله، فكان يرسم مناظرَ، وكان «كوبيا» ينقشها بالتنقيط .

وَكَابَدَ الرسَّامُون الوطنيون : « هينيكان »[6]، و « فيكار » ، و « توبينو لوبران »[7]، الجُوعَ كثيرًا . وكان «جـاميلان» لا يجد تكاليف لوحـاتـه ، ولا يستطيع دفع أجر «الموديل»، ولا يستطيـع شراء ألوان، وكان يحتفظ بلوحة كبيرة تكاد تكون خطوطها الأولى مـرسومة، تمثل الطاغية تطارده

---

(١) رينيو : هوجـان بابتيست رينيو، مصـوِّر فرنسى (١٧٥٤ — ١٨٢٩) من أشـهر لـوحاته الإلهات الثلاث، ورمزية كونية والحرية أو الموت. وقد أقام معرضًا فى سنة ١٧٩٥ فى الصالون .

(٢) جيرارد : هو فرانسوا جيرارد، مصـور فرنس (١٧٧٠—١٨٣٧). وهو تلميذ دافيـد. وقد أصبح محلفًا فى محكمة الثورة.

(٣) جروز : مصور فرنسى (١٧٢٥ — ١٨٠٥) .

(٤) فراجونار : رسام ونحَّات فرنسى (١٧٣٢ — ١٨٠٦).

(٥) برودون : هو بيير بول برودون (١٧٥٨ — ١٨٢٣) رسـام فرنسى من مـدرسـة دافيد، أشـهـر لوحاته « العدالة وانتقام الإله » رمزية .

(٦) هينيكان : رسام ونحات فرنسى (١٧٧٣ — ١٨٦٣) .

(٧) هو : فرانسـوا توبينو لوبران، رسام ، ومن تلاميذ دافيـد، صار محلفًا فى محكمة الثـورة، وأُعدم بالمقصلة سنة ١٨٠١ لاتهامه بالتآمر ضد بونابرت .

الجنيَّات في جهنم.. كانت تغطي نصف المرسم بوجوه غير مكتملة ومخيفة، أكبر من الحجم الطبيعي، وخليط من الأفاعي الخضراء، لكل أفعى منهن لسانان حادَّان معقوقان تقذف بهما. ومن أول وهلة، نُميز على اليسارِ في اللوحة (كارونًا) نوتيًّا نحيفًا وشرسًا في قاربه.. قطعة مؤثرة برسم جميل، ولكنها جديرة بالمدرسة .

وكانت توجد لوحة بأقل المساحات ولم تكتمل بعد، ولكنها بحق تتسم بالعبقرية والطبيعية، وكانت مُعلَّقة في أكثر الأماكن إضاءة في المرسم . كانت تمثل أوريست، وأخته إليكترا ممددة على فراشها، فراش الألم، وترى الفتاة في حركة مؤثرة، تبعد شعرها المتشابك، والذي كان يحجب عيون أخيها . وكانت رأس أوريست حزينة وجميلة ، وبينها وبين وجه الرسام شبه كبير.

كان «جاميلان» ينظر دائمًا إلى هذه الصورة بنظرة حزبية، أحيانًا ذراعاه ترتعدان رغبة في التصوير، تمتدَّان إلى وجه إليكترا المرسوم بغير دقة، ثم تهبطان إلى جواره واهنتين . كان الفنان ممتلئًا بالحماس، وتتطلع نفسه إلى أشياء كبيرة. ولكن كان لزامًا عليه أن يبذل قصارى جهده في أعمال مطلوبة نَفَّذَهَا بدرجة دون المتوسط، لأنه مضطر أن يُرضي ذَوْقَ العامَّة ، ولأنه لا يعرف أيضًا أن يطبع تلك الأعمال البسيطة بطابع العبقرية .

كان يرسم مناظر رمزية صغيرة، والتي كان يخطُّها صديقه «ديماهيس» بمهارة كافية باللون الأسود والألوان المختلفة، والتي يأخذها بثمن بخس أحد تجار الرَّشْم بشارع هونوريه المواطن «بلين» .

« إنَّ تجارة الرَّشْم، تسير من سيىء إلى أســوأ ».. هكذا قال «بليـن»، الذى لم يكن يريد أن يشترى شيئًا منذ زمن .

وهذه المرة بالذات ، دفعت الضرورة «جاميـلان» إلى أن يكون ماهرًا ، فقد أدرك اكتشـافًا هائلًا وجـديدًا يحقق ثروة لتاجـر الرسم ، وللحفَّار ، وله هو شخصيًّا : « لعبة ورق وطنية ».

وفى هذه اللعبة ، استبدل الملوك بـالجن ، والسيدات بالحُرِّيات، وخدم الحُكْم القـديم بالمسـاواة . وكان قـد صمم جميع صـوره، وأنجز منهـا الكثير، وكان متعجلًا ليسلم إلى «ديماهيس» تلك التى كانت توجد فى حالة حفر جاهزة .

والصورة التى تبـدو له موفقة هى التـى تمثل أحد المتطوعين يرتدى على رأسه قُبعـة ثلاثية القـرون، ويرتدى ملابسَ زرقـاء اللون بزركشة حمراء ، وسروالًا أصفرَ ، وَلُفافـات سَاقَيْن سوداء ، يجلس على صندوق ، وقدماه على كومة من الرصاص ، وبندقية بين ساقيه .. ذلك كان «المواطن المُفضَّل »، الذى يحل محل الخادم المفضل . ومنذ أكثر من ستة أشهر كان «جـاميـلان» يرسم متطوعين، ودائمًا يـرسمهم بمـودَّة، وباع بعض لوحاتهم فى أيـام الفرح – والكثير منها مُعَلَّق على حـائط المرسَم – وهناك خمسـة رسـوم – أو سـتـة – بألوان الماء ، وألوان الجواش ، وبـأقـلام رصاص، مبعثرة على المنضدة، وعلى المقاعد .

وفى شهر يوليو ٩٢ ، عندمـا نُصِبت فى جميع ميادين باريس منصَّات من أجل المتطوعين، عندمـا كـانت جميع المقـاهى الفنيـة مـزدانة بأوراق وفروع الشجر ، ترن فيها الصيحات قـائلة : «تحيا الأمة ، نعيش أحرارًا أو نموت !».

لم يستطع «جاميلان» المرور فوق «لوبونت – نوف » أو أمام دار البلدية بدون أن يخفق قلبه فرحًا ، نحو الخيمة المزدانة بالأعلام ، حيث يوجد القضاة ينتحون جانبًا يسجلون أسماء المتطوعين، ولكنَّ التحاقَهُ بالجيش يترك والدتَه بدون خبز .

وتدخل المواطنة «أرملة جاميلان» فى المرسم مسبوقة بصوت أنفاسها اللاهثة ، يسيل عرقها ، ومكفهرة الوجه ، والشارة الوطنية مُعَلَّقة بإهمال فى غطاء رأسها ، وعلى وشك السقوط .

وضعتْ سلتها جانبًا على أحد المقاعد ، وظلت واقفة لتتنفس بطريقة أفضل ، وتَئن من غلاء المعيشة، بائعة سكاكين فى شارع «جرينيل سان جيرمان» بعلامة مميزة على المحل «لافيل دى شاتيلْرو»(١)، طالما عاش زوجها، والآن مدبرة منزل، المواطنة «جاميلان» تعيش منزوية عند ابنها الرسام . وهو أكبر من ابنها الآخر (أى : البكرى)، وبالنسبة إلى ابنتها «جولى»، فمنذ عهد قريب كانت فتاة فى محل بيع ملابس بشارع «هونورية»، ومن الأفضل عدم معرفة ما آلت إليه، لأنه لا يطيب القول بأنها رحلت مع أحد الأرستقراطيين .

– يا إلٰهى !.. قالتها المواطنة وهى تتنهد ، وهى تُرِى ابنَها رغيفَ خبز، سَمِيكَ العجينة، وأسمر اللون، الخبز باهظ الثمن، وهيهات أن يُصنع من الحِنْطَة الخالصة. وليس فى السوق لا بيض ، ولا خضروات، ولا جبن، ومن الإفراط فى أكل القَسْطَل، سوف تتحول إلى قسطل (٢).

---

(١) شاتيلرو : مدينة فرنسية .

(٢) القسطل : شجر من الفصيلة البلُّوطية له ثَمَرٌ كثير النَّشا ، يؤكل مشويًا ، ويُعرف فى مصر «بأبى فَرْوَة » .

وبعد فترة صمت طويلة استطردت تقول :

– رأيت فى الطريق سيدات لا يجدن ما يسد رَمَق أطفالهن . البؤس عظيم بالنسبة إلى الناس المساكين. وستظل الحال على ما هى عليه إذا لم تنتظم الأمور .

قال «جاميلان» وهو يُقَطِّبُ حَاجِبيه: أُمِّى، إِنَّ المجاعة التى نعانى منها، ترجع أسبابها إلى تحكم المتحكرين والمضاربين بالأسهم المالية فى أقوات الشعب لِيُجِيعُوهُ، بالاتفاق مع الأعداء من الخارج، حتى يشوهوا صورة الجمهورية ويجعلوها مخيفة بالنسبة إلى المواطنين، ويدمروا الحرية .

هذا ما انتهت إليه مؤامرات البريسوتان(1) وخيانات بيتيون(2) وعائلة رولاند(3) ونكون موفقين إذا لم يحضر الفيدراليون مُدججينَ بالسلاح إلى باريس ليذبحوا المواطنين الذين لم تقض عليهم المجاعة سريعًا ! يجب أَلَّا نضيع الوقت : يجب تحديد سعر الدقيق ، والإعدام بالمقصلة لكل من يحاول أن يُزايد بأقوات الشعب ، ويُثير الفتن ، أو يتواطأ مع الأجانب .

قامت الجمعية بإنشاء محكمة فوق العادة لمحاكمة المتآمرين، تتكون من المواطنين، ولكن هل أعضاؤها لديهم القوة الكافية للدفاع عن الوطن ضد هؤلاء الأعداء جميعهم ؟

---

(1) بريسو : نائب فى المجلس التشريعى وفى الجمعية.. عدو روبيسبير .. تم اتهامه وإعدامه بالمقصلة فى الثلاثين من أكتوبر ١٧٩٣ م .

(2) جيروم بيتيون : خطيب بليغ ، صديق روبيسبير ، وعمدة باريس سنة ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، تم اتهامه بالفيدرالية ، وانتحر فى يونيو ١٧٩٤م .

(3) مانون رولاند : زوجة رولاند الشهيرة، تم إعدامها بتهمة الفيدرالية فى الثامن من نوفمبر ١٧٩٣ . وهى صاحبة العبارة الشهيرة : « أيتها الحرية ، كم مِنْ جرائم تُرْتَكَبُ باسمك » ! .

فلنعتمد على «روبيسير»، فهو رجل فاضل.. ولنعتمد خاصة على «مارات»، فهذا الرجل يحب الشعب ، ويدرك مصالحه الحقيقية ويقوم بها ، وكانَ دائمًا أَوَّلَ من يُميط اللثام عن الخَونة، ويحبط المؤامرات، وهو رجل نزيه، لا يرتشى ، ولا يخاف أحَدًا، وهو الوحيد الذى يستطيع أن ينقذ الجمهورية المعرضة للخطر .هزتّ المواطنة «جاميلان» رأسها ، وأسقطت شارة الوطنية المهملة، وقالت :

– دعك من هذا يَا «إيفاريست»! «مارات» هذا الذى تُعْجَب به رجل مثل بقية الرجال ، وليس أفضل من الآخرين. إنك مازلت صغيرًا، وما عندك إلَّا أوهام . إن ما تقوله اليوم عن «مارات»، سبق أن قلته عن «ميرابو»(١)، وعن «لافاييت»، وعن «بيتيون»، وعن «بريسو».

صاح «جاميلان» قائلًا : بصراحة ، نسى إلى الأبد !

وعندما سحب طرف المنضدة المصنوعة من الخشب الأبيض، المكدس عليها الأوراق، والكتب، وفرش الرسم، وأقلام الرصاص، قامت المواطنة بِوَضْعِ إناءٍ مصنوع من الخزف وبه حساء، وحفنتين من القصدير، وشوكتين من الحديد ، ورغيف الخبز الأسمر، وإناءٍ به عصير عنب مخلوط بالماء .

الابن والأم يتناولان الحساء فى صمت ، وانتهيا من عَشَائهما بقطعة من وَدَك الخنزير، وضعت الأم طعامها غير المتقن على خبزها لتضعه فى

---

(١) ميرابو : أعظم خطباء الثورة الفرنسية ، ولد سنة ١٧٤٩ وتوفى سنة ١٧٩١، ويذكر أن جثمانه اختفى مِنْ مدافن العظماء بعد اكتشاف مراسلاته مع لويس السادس عشر .

وقـار، على طرف مـديتهـا ،ثم إلى فمهـا الأَدْرَدْ[1] وتمضـغهـا برصـانة، احترامًـا لهذا الطعـام الذى يسـاوى الكثير، وكـانت قـد تركت لابنهـا فى صحنها أفضل مِمَّا أكلت، وهو لا يظل حالمًا ومشتتًا .

قـالت له على فترات متساوية : كُلْ يا «إيفـاريست» كُلْ . واتخذت هذه العبـارة على شفتيهـا وقار حكمـة دينيـة . وعـاودت شكواها من غـلاء المعيشة . ومرة أخرى طالب «جاميـلان» بالضريبة ، كأنها العلاج الوحيد لآلامه .

ولكنها قالت :

– لا توجـد نقـود ، والمهـاجـرون حملوا معهم كل شـىء ، وانعـدمت الثقة.. إنَّ ذلك يدعو إلى اليأس !

صَاحَ «جاميلان» فى والدته صارخًا : أُسْكُتِى ، يا أمى ، اسكتى ! مهما تكن حالـة الحرمان التى نعيشـها . والآمنا فهـى لحظة قصيرة ! والثورة ستعمل من أجل إسعاد النوع البشرى قرونًا طويلة .

وغَمَسَت السيدة الطيبة خبـزها فى النبيذ ، وصفت نفسها ، وفكرت – وهى تبتسم – فى أيـام شبـابها، عنـدمـا كـانت تـرقص على النجيلة فى الاحتفـال بعيد المَلِك، وتتـذكر أيضًـا يوم أن تقدم «جـوزيف جاميـلان» لخطبتهـا للزواج ، وسردت ما حـدث بالتفصيل الدقيق . وقـد قـالت لها والدتها : «هيا ارتـدى ملابسك، سوف نذهب إلى «لابـلاس دى جريف»،

(١) الأدرد : الأثرم ، الخالى من الأسنان .

إلى محل م. بياناسِّى الجواهرجى، ولنرى تنفيذ العقوبة فى «دميان»[1].

وقد وَاجَهتهما صعوبة بالغة ليسلكا طريقًا وسط الجمع الغفير من الفضوليين.. وفى محل بياناسِّى وجدت الفتاة «جوزيف جاميلان» يرتدى ملابسه الأنيقة الوردية، وهى قد أدركت فى الحال ماذا كان يحدث. وطوال الوقت كانت تلازم النافذة لترى قَاتِلَ الملك وهو يُعَذَّب، ويُرَّش بالرصاص المنصهر، وتسحبه أربعة جياد ليُلقوا به فى النار.. كان السيد «جوزيف جاميلان» واقفًا خلف الفتاة لا ينقطع عن مجاملتها وإطرائها، فكان يمدح بشرتها، وتسريحتها، وقوامها .

أفرغت المواطنة «جاميلان» كوبها عن آخره، واستمرت فى إحياء ذكريات حياتها :

– ثم أَخرجْتُكَ إلى الدنيا يا «إيفاريست» مبكرًا عن الموعد الذى كنت أنتظره، بعد ما تعرضتُ للفزع وأنا حامل، عندما صدمتنى وأوقعتنى مجموعة من الفضوليين المهرولين ليشاهدوا إعدام السيد «لاللى»[2]، كان ذلك على «لوبونت – نوف » .

وعندما وُلِدْتَ ، كنت صغيرًا جدًّا، حتى أن الجراح كان يعتقد أنك لن تعيش، ولكنى كنت على يقين بأن الله سوف يُنعم علىّ ويحفظك لى . وتوليتُ تربيتك بكل كيانى، لا أدخر وسعًا فى العناية بك، ولا فى الإنفاق

---

(١) دميان : مرتكب محاولة قتل لويس الخامس عشر فى الخامس من يناير ١٧٥٧ . تم إعدامه فى الثامن والعشرين من مارس ١٧٥٧ بعد التعذيب .

(٢) لاللى : تولياندای : «أيرلندى مخيف» استمر فى الصراع ضد الإنجليز. اضطر إلى الاستسلام إبَّان حرب السنين السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣)، وتم اعتقاله وإدانته ، وأعدم فى التاسع من مايو ١٧٦٦ .

عليك : أصدقك القول يا صغيرى «إيفاريست»، أنك تبرهن لى على عرفانك بالجميل، ومنذ الطفولة وأنت تحاول دائمًا مكافأتى بطريقتك، كانت طبيعتك ودودة وحلوة. وأختك لم تكن قاسية القلب، ولكنها كانت أنانية وعنيفة، وأنت تشفق على البؤساء أكثر منها . عندما كان الأولاد السوقية ينزعون أعشاش الطيور من الأشجار، كنت تحاول أن تنتزعها من أيديهم لتأخذ أفراخ الطيور لتعيدها إلى أمهاتها، وما كنت تكفُّ عن ذلك إلا بعد أن يوجهون إليك إهانات ويضربونك بوحشية .

وفى سن السابعة، بدلًا من أن تتشاجر مع الأولاد المشردين فى الطريق، كنت تذهب فى هدوء إلى الشارع ، وتنشد الترانيم الدينية، وجميع المساكين الذين تقابلهم، كنت تصطحبهم إلى المنزل لتساعدهم، وكم كنتُ مضطرة لضربك حتى تقلع عن هذه العادة .

وكنتَ إذا رأيت أى أحد يتألم، لا يسعك إلا أن تشاركه فى آلامه، وتذرف الدمع من أجله. وعندما اكتمل نموُّك، أصبحتَ وسيمًا جميلًا . وما كان يدهشنى كثيرًا أنه كان يبدو عليك أنك لا تعرف ذلك، وتختلف اختلافًا كبيرًا فى هذا الصدد عن هؤلاء الصبيان الذين يشعرون بجمالهم ويتدللون بوجوههم التافهة .

الأم العجوز كانت تقول الحقيقة، فعندما كان «إيفاريست» فى العشرين من عمره، كان له وجه وقور وجميل، جَمَالُه جمالٌ خشن، وأنثوى فى آنٍ واحد.. قسماته كقسمات الإلٰهة «مينرفا»(١)، أما الآن، فنظراته القاتمة ووجهه الشاحب يدلان على حزن عميق وقاسٍ. ولكنه

(١) مينرفا : إلٰهة الذكاء والحكمة والفنون كما جاء فى الأساطير .

عندما يوجه نظراته نحو أمه تظل لمدة وجيزة تعبر عن عذوبة الشباب .

واستطردت حديثها قائلة :

- كان فى استطاعتكَ أن تستغل مزاياك فى معاكسة الفتيات، ولكنك كنت تفضل أن تبقى بالقرب منى، فى «البوتيك»، وفى بعض الأحيان كنت أقول لك : هَيَّا، لا تلتصق بى هكذا، اذهب لتتنشط قليلًا مع أصدقائك .

وسأظل يا «إيفاريست» - حتى وأنا على فراش الموت - أشهد لك بذلك، بأنك ابنٌ بارٌّ ، وبعد أن تُوفى والدك تحملت عبئى وكفلتنى ، بالرغم من أن حالتك لم تكن تسمح بذلك ، وجعلتنى أشعر أننى لا ينقصنى أى شىء ، وإذا كنا اليوم - نحن الاثنين - مَحْرُومَيْن وبائِسَيْن فلا ألومك أنت على ذلك ، ولكن الخطأ يرجع إلى الثورة .

وبدرت منه حركة عتاب ، ولكنها هزت كتفيها واستطردت :

- أنا لستُ أرستقراطية، ولكننى عرفتُ العظماء فى أوج سُلطتهم، وأستطيع أن أقول إنهم أساءوا استخدام امتيازاتهم . لقد رأيتُ والدَك وهو يُضْرَبُ بالعصا بأيدى خَدَم «الدوق دى كانالاى» لأنه لم يفسح الطريق بسرعة عندما مَرَّ سيدهم . إنى أمقتُ النمساوية(١)، كانت متعجرفة، وتنفق ببذخ ، أما بالنسبة إلى الملك فاعتقدت أنه طيب ، وكان لابد من اتهامه وإدانته لأُغَيِّر فكرتى. وأخيرًا، أنا غيرُ آسِفَة على النظام القديم، نظرًا إلى أنى قضيتُ فيه بعض الأوقات المناسبة، ولكن لا تَقُلْ لى

(١) تعنى ملكة فرنسا « مارى أنطوانيت » .

إن الثـورة ستحقق المســاواة، لأن الناس لن يكونوا متســاويين أبدًا، لأن ذلك مستحيل، ولكن البلد ستنقلب رأسًــا على عقب : ستجد دائما الكبــارَ والصغار ، والعِجَاف والسِّمَان .

وكــانت وهى تتحــدث تُرتب أدوات الطعــام. الرســام لم يكن يُصغى إليها ، كــان يبحث عن إحدى اللُّعب، «اللامتسرول»(١) بغطاء رأس أحمر، وترتدى «الكــرمنيــولا» والتى يجب أن تكــون فى لعب الورق، تحل محــل الأعرج «البيستونى» المذموم .

طُرِقَ البــاب، وظهرت فتــاة ريفيــة بدينة أكثــر منها طويلة، صهبــاء، عرجــاء، وتختفى عينها اليسرى خلف عدســة مكبرة، ولون عينها اليُمنى أزرق باهت، حتى يبــدو كالأبيض، وشفتاها ضخمتــان، وأسنانها بارزة على شفتيها .

سألت «جاميــلان» عما إذا كان هو الرسام، وعما إذا كــان بوسعه أن يرسم لها صورة خطيبها فِيرَّان (جول)، متطوع فى جيش الأَرْدِين(٢).

فأجابها «جاميلان» أنه ســوف يرسم هذه الصورة تطوعًا منه عندما يعود هذا المحارب الشجاع .

تحدثت الفتاة فى هدوء تستــوجب التعجيل بالصورة فى الحال. ابتسم الرســـام رغمًا عنــه ، واعترض بأنه لا يستطيع أن يفعــل أى شــىء بدون «الموديل».. المخلوقــة المسكينة لم تنبت بِبَنْــتِ شَفَــة، لم تكن تتــوقع هذا

---

(١) اللامتسرول : فى عهــد الجمعيــة الوطنيــة، كــان اسم يطلق على الثــوريين الذين ينتمــون إلى أغلب الطبقات الشعبية .

(٢) الأردين : من ولايات فرنسا .

العائق. انْثَنَى رأسها على كتفها الأيسر، وعقدت يديها على بطنها، وظلت صامتة بلا حركة، وبدت كأنها مُفعمة بالحزن. تأثر الرسام بهذه البساطة، ولكى يلهى العاشقة المسكينة قدَّم لها صورة أحد المتطوعين من الذين رسمهم بألوان الماء، وسألها إنْ كان يشبه خطيبها المتطوع فى الأَرْدين .

نظرت إلى الصورة بعينها الكئيبة، التى امتلأت حيوية شيئًا فشيئًا ، ثم لمعت وأشرقت، وازدهر وجهها العريض ، وانفرج ثغرها عن ابتسامة مشعة .

وأخيرًا قالت : إنه يشبهه تمامًا ، هذا هو فِيرَّان (جول) على الطبيعة.. إنه شديد الشبه به .

وقبل أن يفكر الرسام فى استرداد الصورة منها، طوتها بعناية بأصابعها الحمراء الضخمة على هيئة مربع صغير ومررته على قلبها ، بين الصلَّابة والقميص ، ودفعت للرسام حوالة بمبلغ خمسة جنيهات ، وتمنت له أمسية سعيدة والصحبة الطيبة ، وانصرفت بخفة وهى تعرج .

* * *

وفى عصر نفس اليوم، توجه «إيفاريست» إلى المواطن «جان بلين» تاجر «الصُّوَر»، والذى يبيع أيضًا العُلَب وأشغال الكارتون وجميع أنواع اللُّعَب، بشارع هونوريه، بالقرب من مكاتب السفريات، «الميساجيرى»، فى مواجهة الكنيسة الصغيرة « الأوراتور » ، ومتجر « لاموربانتر » : (مصور الغرام).

المتجر مفتوح فى بدروم أحد المنازل القديمة الذى أُقيم منذ ستين عامًا،

بعقد بارن، وعَلَى قبته عند المدخل قناع ساخر مُقَرَّن . وتشغل مساحة هذا العقد صورة زيتية تمثل «الصقلى»، أو «لاموربانتر»، كانت من تنفيذ «بوشيه»، وكان والد «جان بلين» قد وضعها سنة ١٧٧٠، وقد أثرت فيها الشمس والأمطار منذ ذلك الوقت مما أدَّى إلى محوها .

وعلى جانبى الباب توجد فتحة مشابهة، برأس حورية عند مدخل القبة، مزينة بألواح زجاج كبيرة تقدم إلى المشاهد صُوَرًا حسب الموضة، وآخر تجديدات للحفر بالألوان .

فى هذا اليوم ، كان يشاهد فيها لوحات غزلية اختارها «بوللى»[1] برعاية فاترة قليلًا ، و «دروس فى الحب الزوجى»، و «مقاومات حلوة»، تكدَّر منها اليعقوبيون، والتى وَشَى بها المتزمتون إلى «مجتمع الفنون»، «النزهة الشعبية» لدى بوكور[2] مع شاب معجب بذاته بسروال تافه منشور على ثلاثة مقاعد، وجياد كارل فيرنى[3] الصغير .

من بين المواطنين الذى كان يتدفق سيلهم أمام المحل، كان أكثرهم ثيابهم رَثَّة، وكانوا يتوقفون أمام «الفيترينتين الجميلتين» متعجلين للتسلية، متلهفين إلى الصور، ومتحمسين لأن يأخذوا نصيبهم ـ حتى وَلَوْ بعيونهم ـ من ثروات هذا العالم .. كانوا ينظرون بإعجاب فاغرى

---

(١) مصور فرنسى .

(٢) دى بوكور ، فيليبر : رسام أكاديمى ، تلميذ « فيو » .

(٣) كارل فيرنى : رسام عادات باريس ، والمناظر الطبيعية الرومانية ، وموانىء فرنسا، والوو «هوراس » .

أفواههم، والأرستقراطيون يلقون نظرة ثم يقطبون حواجبهم، وينصرفون .

وإلى مسافة بعيدة يستطيع أن يُرَى «إيفاريست» يرفع عينيه نحو إحدى النوافذ التى تطل على المحل، تلك التى على اليسار حيث يوجد أَصِيصٌ من زهر القرنفل(١) الأحمر، خلف شرفة ذات الحديد المزخرف ، هذه النافذة تضىء غرفة «إيلودى» ابنة «جان بليز»، تاجر الصور يقطن هو وابنته الوحيدة فى الطابق الأول من المنزل وكان «إيفاريست» قد توقف أمام محل «لامور بانتر»، وكأنه يلتقط أنفاسه، وأدار مقبض الباب. وجد المواطنة «إيلودى» وقد باعت قطعتين محفورتين «لفراجونار» الابن(٢)، ونيجون(٣)، اختارتهما بعناية من بين قطع كثيرة أخرى . قبل أن تضع الحوالات التى تسلمتها فى الخزينة تفحصتهم الواحدة تلو الأخرى بعينيها الجميلتين فى ضوء النهار، لتتأكد من دمغة الأسلاك المعدنية والعلامة المائية وآثار السلك النحاس، حيث إنه فى ذلك الوقت كانت تسرى موجة ترويج أوراق نقد مزيفة تُماثِل الأوراق الحقيقية، وذلك كان يدعو إلى القلق، ويضر بالتجارة، كما كان فيما مضى هؤلاء الذين يقلدون توقيع الملك مزيفو النقد الوطنى، كانت عقوبتهم الموت. وكانت توجد لوحات الحوالات النقدية فى جميع الكهوف، كان السويسريون يُدخلون حوالات مزيفة بالملايين، وكانت تُلقَى فى الفنادق

---

(١) رمز القوة والحب الأنثوى .

(٢) فراجونار الابن : رسام نيو كلاسيكى ، واسمه الأول : إيفاريست .

(٣) نيجون : أديب فرنسى .

بالرزم، وكــان الإنجليـــز يشحنون منهــا إلى شــواطئنا يـــوميًّا «بالات» صغيرة، ليجعلوا الجمهورية تفقــد سمعتها وتنعدم فيها الثقــة، ويدفعوا بالمواطنين إلى البؤس .

فكانت «إيلودى» تخشى أن تسلم أو تسلم أوراقًا نقدية مــزيفة، كما كانت تخشى كــذلك أن تُعامَل كأنها متــواطئة مع «بيت وبليام»(1)، ومع ذلك ، كانت فى كــل مرة تعتمد على حظهــا، وعلى ثقة أنها ستنجــو بنفسها من هذا العمل فى كل مواجهة .

شـــاهدها «إيفـــاريست» بهذا المظهــر الكئيب الذى كـــان أفضل فيــه الابتسامــات التى تعبر عن الحب. ونظرت إليه بامتعاضة ممتــزجة بقليل من السخـــرية، ورفعت عيونها الســـوداء، وهذا التعبير صدر عنهــا لأنها تعرف أنها محبوبة، وذلك لا يُغضبها، وأن هذا الوجه يضايق أَىَّ عاشق، ويحضــه على الشكوى، ويحثه على أن يصرح بذلــك إذا لم يكن قد حـــدث بعد ، تلك هى حالة «إيفاريست» .

وبعـــد أن وضعت الأوراق النقـــدية فى الخزينة، أخـــرجــت من سلة حـــاجاتها إيشـــاربًا أبيضَ كـــانت قـــد بدأت فى تطريزه، وشرعت فى الشغل فيه. كانت مــدَلَّلَةً ومتكلفة بالفطرة، وتستعمل الإبرة لتنال الإعجاب، وفى نفس الوقت لتصنع لنفســها حليــة، كـــانت تطرز بطريقــة مختلفة، تبعًــا

---

(1) بيت ويليـــام : رئيس الوزراء الإنجليـــزى من ١٧٨٤ إلى ١٨٠١ . بعد احتـــلال بلجيكا أصبح عـــدوًّا لفرنســـا ، وحارب الجمعية الوطنية وأطلقت عليـــه «عدو النوع الإنسانى»، رمز للحـــزب المفضوح الذى سانده «الذهب الإنجليزى» فى حقيقة الأمر .

لهؤلاء الذين كانوا ينظرون إليها : كانت تطرز بلا مبالاة من أجل هؤلاء الذين تريد أن تُبين لهم كآبةً حالمة، وكانت تطرز لتُبَيِّنَ لهؤلاء بأنها يائسة تتسلى قليلًا . وشرعت تطرز بعناية من أجل « إيفاريست » الذى كانت تتعشم أن تجد فيه عاطفة حقيقية .

لم تكن «إيلودى» تتمتع بقدر كبير من الجمال، وكذلك لم تكن صغيرة فى السن، وقد تُلاحظ من أول وهلة أنها دميمة، فهى سمراء، زيتونية البشرة، وتحت المنديل الأبيض الكبير المعقود فى إهمال حول رأسها تنفلتُ بعض خصلات شعرها اللازوردى اللون، وقد سودت جفون عينيها الناريتين .

وفى وجهها المستدير ذى الوجنتين البارزتين، الباسم، المفلطح، الريفى المظهر، والشهوانى، وجد فيه الرسام رأس إله الريف عند الرومان «بورغين»، الذى يُعجبه ـ على أحد القوالب ـ فَرَاهتُه المقدسة. ويُبرز ملامح شفتيها الملتهبتين سَبَلاتٌ من الشعر الخفيف النابت فوقها. وصدرُها الذى يبدو كأنه منتفخ من التدليل يرفعُ الخمارَ المعقود حسب موضة العام. لينة القامة، خفيفة حركة الساقين. تتحرك بكامل جسدها القوى فى سهولة بدائية ورقيقة .

نظرتها، ونَفَسها، ورعشات جسدها، كل ما فيها ينادى القلب، ويعد بالحب . وخلف مكتب صرافة التاجر، تعطى فكرة عن إحدى حوريات الرقص، أو كاهنة باكوس(١) للأوبرا، متجردة من جلد القطة المتوحشة،

---

(١) باكوس : إله الخمر .

ومن صولجان باكوس، ومن أكاليله من اللبلاب، ومن كبتها، ومستترة بسهولة فى غلاف متواضع لمديرة منزل للرسام «شادران».

قالت للرسام : أبى ليس هنا، انتظره لحظة، لن يتأخر طويلًا.

كانت يداها الصغيرتان السمراوان تحركان الإبرة خلال القماش الذى تطرزه .

ـ هل يعجبك هذا الرسم يا سيد «جاميلان» ؟

«جاميلان» لم تكن لديه القدرة على التظاهر ، ولما كان الحب قد ألهب شجاعته فبالتالى حَمَّسَ صراحته .

قال : أيتها المواطنة، إنكِ تطرزين بمهارة، ولكن إذا أردْتِ أن أجيبك على ذلك، فإن الرسم الذى رَسَمْتِهِ ليس سهلًا، ولا مُجردًا، ويعطى إحساسًا بالذوق المتأثر الذى استمر زمنًا طويلًا فى فرنسا فى فن زخرفة الأقمشة، والأثاث والتلبيسات، وهذه العقد، وهذه الشرائط المزخرفة تذكرنا بالأسلوب التافه المسكين الذى كان مفضلًا فى عهد الطاغية . الذوق يُبْعث . يا للأسف ! لقد رجعنا إلى بعيد ، إلى عهد الدنىء لويس الخامس عشر، كانت الزخرفة بها شىء غريب غير مفهوم (شينوا) (١).

كانت خزانات الملابس تُصنع بجوفٍ كبير، ومقابض ملتوية مظهرها يثير الضحك، لم تكن تصلح إلَّا لتُحْرَق ويستدفئ بها المواطنون. فلا يوجد أجمل من البساطة. يجب أن نعود إلى القديم . فها هو ذا «دافيد»

---

(١) أى : ينطوى على شىء من الزخرفة الصينية .

يرسم أَسِرَّةً ومقاعدَ بمسندين، بعد أن كان يرسم المزهريات الإترورية، وصور مدينة هيرقلانوم (١).

– قالت إيلودى : لقد رأيتُ هذه المقاعد، إنها جميلة ! وقريبًا لن تكون هناك حاجة إليها ، فأنا مثلك ، مولعة بالقدم .

– أجاب «إيفاريست» : حسنًا أيتها المواطنة ! إذا زَخْرَفْتِ هذا «الإيشارب» بإحدى اليونانيات، أو أوراق اللبلاب، أو بالثعابين، أو بالأسهم المتقاطعة، لكانت جديرة بإحدى الإسبرطيات... وبكِ أنتِ. عندئذ سيكون فى وسعك أن تحتفظى بهذا «النموذج» بعد تبسيطه وتوجيهه إلى الطريق المستقيم .

سألته عَمَّا يجب أن تحذفه .

فانحنى على الإيشارب ، عندئذ لامست خدوده خصلات شعر «إيلودى»، وتلاقت أيديهما على القماش، واختلطت أنفاسهما، وفى هذه اللحظة، أحس «جاميلان» ببهجة لا حدود لها، ولكن ، عندما شعر بأن شفتيه اقتربتا من شفتى «إيلودى» خَشِىَ أن يسىء إلى الفتاة، فارتدَّ عنها فى الحال .

كانت المواطنة «بلين» تحب «إيفاريست جاميلان»، فهى تأثرت بطلعته البهية، وبعينيه الواسعتين البراقتين، وبوجهه البيضاوى الجميل الشاحب، وشعره الأسود الغزير المنسدل على جبهته، والذى يتدلى

(١) إترويه وهيرقلانوم : مدينتان قديمتان بإيطاليا .

متموجًا على كتفيه، وبمظهــره الوقور الفاتر، ومع أنه أنيس وبسيطٌ فهو جاد الحديث، لا يُداهن أبدًا .

ولما كـانت تُكِنُّ لــه حُبًّـا كبيرًا فهى ترى فيــه عبقــرية فنان، ســوف تتمخض يومًــا عن عمل فنى، يجعل اسمــه ذائعَ الصيت، وســوف يزداد حبهــا له. إن المواطنة زبلين» ليست لديها أى فكرة عن حيــاء الرجل. ولم ينجــرح كبرياؤها إذا ما اتبع رجل أهواءه وميــوله ورغباته. كـانت تحب «إيفاريست» لحيـاته، فهى لا تحبه لأنه كان خجــولًا، ولكن لأنها وجدت فيه الميزة التى لا تَعِى غيرة ولا شكوكًا، ولا تخشى مطلقًا أية متنافسات .

ومع ذلك فهى فى هذه اللحظة حكمت عليــه بأنه شديد التحفظ إلى حَــدٍّ مــا . وإذا كـانت «آريسى»، (إحــدى بطلات الكاتب راسين)، كـانت تحب «هيبــوليت»، مُعجبــة بالفضيلة للبطل الشــاب، ذلك كـان بأمل أن تتغلب عليه، وأنها سرعان ما تألمت من قسوة التقاليد، والتى لم يتهاون فيها من أجلها. وبمجرد أن سنحت لها الفرصـــة، اعترفت اعترافًا شبه كامل، حتى تدفعه هو نفسه إلى الاعتراف.

اقتداء «بآريســى» الرقيقة لم تكن المواطنة «بلين» بعيدة عن اعتقاد بأن المرأة مُلْزَمَــة بأن تتخــذ بعض المبادرات فى حــالة الحب، فكانت تقــول فى نفسها : «إن أكثــر المحبين هم الأكثر حيــاءً، يحتاجون دائمًا إلى المســاعدة والتشجيع. تلك هى ـ باختصار ـ طهارتهم، وأن المرأة تستطيع أن تقطع نصف الطريق – دون أن يرونها ، وأن تُدبر لهم مظاهــرَ هجومٍ بمهــارة، وتُهَيِّىءَ لهم مجد الغزو». وما كان يُسَكِّن روعها فى نهاية الأمر أنها كانت

على يقين (وأيضًا لم يكن هناك أى شك فى هذا الموضوع) أن «إيفاريست» ـ قبل أن تجعل الثورة منه بطلا ـ كان يُحب امرأً بكل إخلاص، مخلوقة متواضعة، أَحَبَّ بوابة الأكاديمية «إيلودى»، التى لم تكن ساذجة قط، فقد أدركت أنواعًا مختلفة من الحب. أما «إيفاريست»، فقد ألهمها بشعور عميق جدًّا ، حتى أنها فكرت فى أن تهبه حياتها. نعم، كانت على أتم استعداد لأن تتزوجه، ولكنها كانت تتوقع أن والدها لا يوافق على زواج ابنته الوحيدة من فنان مغمور وفقير .

إن «جاميلان» كان على فيض الكريم، لا يمتلك شيئًا، وتاجر الصور المطبوعة كان يحقق أرباحًا هائلة. وكان متجره «لامور بانتر» يُدِرُّ عليه الكثير، وكذلك فوارق سعر العملة، وكان مشتركًا مع أحد المولين الذى كان يسلم إلى سلاح الفرسان فى الجمهورية أحزمة من «الأَسْل»، وكذلك يسلم «الشوفان»(١) المطحون .

وأخيرًا ، ابن سكاكينى شارع سان دومنيك ـ أى جاميلان ـ كان شخصًا رقيق الحال، بالنسبة إلى ناشر الصُّوَر المعروف فى جميع أنحاء أوروبا، ويمت بصلة إلى كل من عائلة «بليزُو»، وعائلة «بازان»، وعائلة «دِيدو»، وكان يتردد على المواطنين «سان ـ بيير» وفلوريان (٢).

لم تكن «إيلودى» إلَّا ابنة مطيعة، تريد أن تحصل على موافقة والدها كضرورة لاستقرارها . تَرَمَّلَ الأب فى وقت مبكر، وكان ذا مزاج طموح

---

(١) الأسل والشوفان : نوعان من النبات .
(٢) فلوريان : قصَّاص فرنسى .

وطائش، وزيرَ نساءٍ، وصاحبَ أعمالٍ كثيرة، لم يهتم بها يومًا ما، كبرت وترعرعت دون أى عناية أو رقابة منه، بدون نصائحه، أو صداقته، لم يكن مهتمًّا برعايتها، بل كان يجهل سلوكها، سلوك فتاة كان يُقدِّره بوصفه خبيرًا أو عارفًا بالمزاج الحاد ووسائل الإغراء التى تعتبر بوجه آخر أقوى من أى وجه جميل. فلديها الشجاعة بحيث تصون نفسها، ومن الذكاء بحيث لا تضل، عاقلة فى تصرفاتها مهما كانت، فنزعة الحب لم تُنْسِهَا قط تقاليد المجتمع، وكان والدها مُمْتَنًّا لها غاية الامتنان لما تتمتع به من حَذَر، ولما كانت ترث عنه حاسة التجارة والميل إلى العمليات التجارية فهو لم يساوره أى قلق بصدد الأسباب التى تُثنى فتاة صالحة للزواج، واحتفظ بها فى المنزل، حيث إنها تُعادل أربعة موظفين تجاريين، وحاكمة.

كانت فى السابعة والعشرين من عمرها، فهى تشعر بأنها فى سن الخبرة، لتهتم بتنظيم حياتها بنفسها، ولا تحتاج إلى أية نصائح أو إرشادات، أو لتخضع لإرادة أب لا يزال محتفظًا بشبابه، فهو متهاون وطائش. ولكن لكى تتزوج من «جاميلان» كان ينبغى على السيد «بلين» أن يعلن عن هذا الصهر الفقير، وأن يعمل على توفير وتأمين السكن والعمل له بطريقة أو بأخرى، وأن يوجد له مصادر، كما فعل مع العديد من الفنانين، وهى ترى أن ذلك مستحيل، فلابد أن يعرضه أحد ليقبله الآخر، طالما أنه يوجد بين الرجلين نوع من المودَّة.

هذه العراقيل تضايق «إيلودى» العاقلة الرقيقة. لقد واتتها فكرة

الاقتران بصديقها فى السِّرِّ وبدون أى خوف، وتُشْهِدُ الخالقَ على ثقتهم المتبادلة. إن فلسفتها لا تجد فى مثل هذا الزواج ما يدينها، حيث إن حالة الاستقلال التى تعيشها جعلت ذلك فى وسعها، بالإضافة إلى أن «إيفاريست» يتمتع بطابع الفضيلة والشرف، مما أضفى على هذه الفكرة قوة مُطَمْئِنة، ولكن «جاميلان» يجد معاناة كبيرة فى بقاء مساندته لأُمِّه العجوز لكى تعيش ولا يبدو أن هناك وجود مكانٍ - ولو فى حدود ضيقة - لحب يرجع إلى بساطة الطبيعة. وبالإضافة إلى ذلك فإن «إيفاريست» - يعلن بعد عن عواطفه، ولم يُقَدِّرْ أهدافه بعد. والمواطنة «بلين» كانت تتعشم أن تدفعه إلى ذلك .

توقفت فجأة عن تأملاتها، وعن إِبْرَتها وقالت مخاطبة «إيفاريست»:

– أيها المواطن « إيفاريست »، هذا الإيشارب لا يعجبنى طالما أنه لا يعجبك أنت. أرجوك، ارسم لى «نموذجًا» وسوف أفعل مثلما فَعَلَتْ «بينيلوب»(١)، سأفك الشغل الذى تم أثناء فترة غيابك .

أجاب بحماس مبهم :

– أيتها المواطنة ، أتعهد بذلك، سوف أرسم لك سيفَ «هارموديوس» سيف فى إكليل من الزهور. ثم أخرج قلمه الرصاص ورسم سيوفًا وزهورًا بهذا الأسلوب الفريد والعادى الذى يحبه، وفى نفس الوقت يَعْرِض مَذهبه ويقول :

(١) بينيلوب : فى الميثولوجيا الإغريقية، زوجة «أوليس» البطل الأسطورى، وأُم «تيليماك» رمز الوفاء الزوجى .

– ينبغى على الفرنسيين المتجددين أن يلفظوا كل ميراث العبودية : كل ما هو ردىء ذوقًا ، وشكلًا ، ورسمًا .. إنَّ « فاتو » ، و « بوشيه » ، و«فراجونار»، كانوا يعملون من أجل طغاة وعبيد. ولا نجد فى أعمالهم الفنية أى إحساس بالأسلوب الجيد، ولا بالخطوط السليمة، ولا حَظَّ عندهم للطبيعة أو الحقيقة. بل نجد أقنعة، ودُمًى، وأشياءَ صغيرةً، ومحاكاة خرقاء. الأجيال القادمة سوف تزدرى أعمالهم العابثة. وفى غضون مائة عام جميع لوحات «فاتو» سوف تُحَطَّم وتُحْتَقَر فى كل مكان، وفى سنة ١٨٩٣ سوف يقوم الطلبة الذين يدرسون التصوير بتغطية لوحات «بوشيه» برسوماتهم .

وقد فتح «دافيد»(١) الباب وَتقرَّب إلى القديم، ولكن لم يكن بعد أكثر سهولة أو عظمة، أو أكثر تجريدًا. ولا تزال هناك أسرار على فنانينا أن يتعلموها عن إفريزات مدينة هيرقيلانوم(٢) والنحوتات الرومانية البارزة، والأوانى الأترورية.

ثم تحدث طويلًا عن جمال الزمن القديم، ثم عاد إلى «فراجونارد» ثانية، وتحدَّثَ عنه بحقدٍ لا تنطفىء جذوته قائلًا :

ـ هل تعرفينه أيتها المواطنة ؟

---

(١) دافيد ، جاك لويس : رسام متألق، حصل على جائزة روما – أكاديمية الفنون الجميلة باعتباره من المخلصين لروبيسبير، قضى مدة فى السجن، بعد الثيرميدور التاسع. وفيما بعد رسام «بونابرت» والإمبراطورية .

(٢) مدينة هيرقيلانوم : مدينة قديمة فى إيطاليا، دُفنت تحت رماد بركان فيزوف عام ٧٩. وفى عام ١٧٠٩ تم اكتشاف الموقع، وفى عام ١٩٢٧ بدأت دراستها علميًّا .

أشارت « إيلودى » بالإيجاب ..

- هل تعرفين كذلك الرجل الطيب «جروز»، الذى يرتدى ملابس أرجوانية اللون ويتمنطق بسيف؟ بكل تأكيد شكله يثير الضحك، ولكنْ له مظهر أحد حكماء اليونان، بالقرب من «فراجونارد». لقد قابلته منذ زمن قصير، هذا العجوز البائس كان يجرى كأنه يتدحرج فى أروقة لوياليه - إيجاليتيه (قصر المساواة)، مُعَفَّرًا ، رقيقَ الحاشية، مختلجًا، شديدَ المرحِ، قبيحًا، ولهذا المنظر تمنيت لو لم تكن «أبولُّو»(١) موجودة، وأن يقوم أحد أصدقاء الفنون - ويكون قاسيًا - بشنقه على شجرة، وأن يسلخه مثل «مارسياس»، ليكون عبرةً أزلية للرسامين السيئين .

ثَبَّتَتْ « إيلودى » عليه نظراتها المبتهجة ، الشهوانية قائلة :

- هل تعرف الكراهية يا سيد «جاميلان» ؟ وهل المفروض أن أُصدق أنك تعرف أيضًا ... فقاطعها صوتٌ :

- أهذا أنت يا «جاميلان» ؟.. هكذا صاح المواطن «بليز» بصوتٍ رنَّان ودخل فى خَانِه يدق الأرض بحذائه، وبرنين الحلية التى يعلقها على صدره بسلسلة، وتتطاير أذيال سترته، مرتديًا على رأسه قُبعة ضخمة، سوداء اللون، تتدلى قرونها على كتفيه.

وتحمل « إيلودى » سلتها وتصعد إلى غرفتها .

ويسأل المواطنُ «بليزُ » :

---

(١) من آلهة اليونان .

– حسنًا « جاميلان »! هل أحضرت لى أى شىء جديد ؟

ـ ربما (قالها الرسام) .

وعرض فكرته قائلاً :

– إن أوراق اللعب الخاصة بنا تمثل تناقضًا مُكَدِّرًا مع التقاليد، أسماء الخادم والملك فيها إهانة لأُذُن المواطن، لذلك أدركتُ ونفذتُ لعبة ورق ثورية جديدة، ووفقًا لهذه اللعبة نستبدل الملوك والدامات (السيدات)، والخدم، بالحريات، والمساواة، والإخاء، والآسات(١)، محاطة برُزَم، تسمى القوانين ... فتعلنوا حرية السِّبَاتى، ومساواة البِسْتونى، وأخاء الكاريهات، شروط اللون .... وأعتقد أن هذا الورق رُسِم بكل فخر ، وعزمت على أن أطلب من « ديماهيس » أن يحفره بمقاس مناسب، وأن يحصل على إجازة. وأخرج من حقيْبته بعض الصور المرسومة بألوان الماء، وعرضها الفنان على تاجر «الرشم»(٢) .

رفضها المواطن «بليز» وأشاح بوجهه ، وقال لإيفاريست :

– يا صغيرى ، اذهبْ بورقك هذا إلى الجمعية الوطنية، وهى سوف تمنحك شرف الجلسة، ولكن لا تتعشم فى أن تحصل على مليم واحد عن اختراعك هذا الذى لم يكن جديدًا . لقد استيقظت متأخرًا جدًّا ، فأنت ثالثُ مَنْ أحضر لى هذه اللعبة . صديقك «ديجور» فى الأسبوع الماضى قَدَّمَ لى

---

(١) الآسات : من ورق اللعب .
(٢) الرشم : الصور المطبوعة .

لعبة ورق «بيكية» بأربعة مـن الجن، وأربعة حُرِّيات، وأربعة مُسَاويات.
وعُرضت عَلَيَّ لعبة أخرى، حيث كان يوجد حكماء وشجعان، مثل كاتون،
وروسو، وهانيبال، وغيرهم أيضًا !....

وهذه الأوراق يا صـديقى لها الأفضليـة على أوراقك، لأنها رُسمت
بوضوح، وحُفرت على خشب بالمحفار. كَمَا أن معرفتك بالناس محدودة،
إذْ تعتقـد أن لاعبى الورق سيستعملون ورقًـا مـرسـومًـا وفقًـا لذوق
«دافيد»، ومحفورًا وفقـا لطريقة «بارتولوتزى»(١)، ومن الوهم الغريب
أيضًا تصـديقُ أنه يجب توفيق الكثير من الطرق لتطابق الألعاب القـديمة
بالأفكار الحاليـة. نجـد قـدامـى الجنود الطيبين يُصـحـحـون اللاوطنيـة
بإشـارتهم إلى «الطاغيـة!» أو ببسـاطة : إلى «الخـنـزير الضخم »، وهم
يستخـدمون ورقهم القـديم ولم يشتروا قط بدلاً منه. إن أكبر استهـلاك
للعب كـان يحدث فى دار قمار قصر - المسـاواة (باليـه - إيجاليتيـه)،
أنصحك بأن تذهب إليه، وأن تقدم حُـرِّيَّاتك هذه ومساواتك، إلى مديرى
القمار والمقـامـرين ، و....، مـاذا قلـت؟ و.... وشروطك... للألوان.... ثم
تعود إلىّ وتخبرنى كيف استقبلوك !

كان المواطن «بليـز» جالسًا على مكتبـه ينفض عن سرواله ذرات التبغ
بنقرات من أصابعه ، وينظر إلى «جاميلان» بشفقة ويقول :

- واسمحْ لى أن أنصحـك أيها المواطن الرسـام : إذا كنت تـريد أن
تكسب عيشك اتـركْ هنا ورقك الوطنى، اترك هنـا رمـزياتك الثـورية،

---

(١) نحات إيطالى .

والهرقليات، والهيدرات، وجِنّياتك الباحثة عن الجريمة، وجِنّياتك، جنيات الحرية، والأفضل أن ترسم لى صورَ فتياتٍ جميلات . حَميّة المواطنين فى أن يتجددوا بالدفء مع الزمن، وسيظل الرجال يحبون النساء. ارسم لى نساءً حِسانًا فى عمر الورد، أقدامهن وأيديهن دقيقة، وَضَعْ دائمًا نُصب عينيك أنه لن يوجد أى فرد سيولى الثورة أى اهتمام، ولن يتطرق أحد فى الحديث عنها .

وفجأة ، استشاط « إيفاريست جاميلان » غضبًا وقال :

– مـــاذا ؟! لن يتكلم أحد عن الثورة، ولكن تأسيس الحرية، وانتصارات جيوشنا، ومعاقبة الطغاة.. كل ذلك أحداث سوف تُبهر الأجيال القادمة ! كيف لا يمكن أن يشيد بها أحد ؟!....

ماذا ! طائفة الثورى اللامتسرول «عيسى» دامت ثمانية عشر قرنًا تقريبًا، وإجلال الحرية سوف يُلْغَى بعد أربعة سنوات بالكاد من الوجود!

ولكن جان بليز يبدو بمظهر المتسامى :

– أنت تعيش فى الخيال ، أمَّا أنا فأعيش فى الواقع. صدقنى يا صديقى، إنَّ الثورة هَمٌّ ، فهى تستمر أكثر من اللازم، خمس سنوات من الحماس ، وخمس سنوات من الأحضان ، ومذابح ، وخُطَب ، وسلام وطنى، ونواقيس الخطر ، وأرستقراطيون على حبل المشنقة، ورءوس محمولة على الأَسِنَّةِ، ونساء راكبات على مدافع، وأشجار الحرية تضع غطاء رأس أحمر، وفتيات وعجائز تجرهن عربات الزهور بأثوابهن البيضاء،

وسجون، ومِقْصَلة، وإعلانات، وشارات وطنية، وقبعات مزينة بالريش، وسيوف، وسُترات قصيرة، كل ذلك لا آخر له ! ثم تكون البداية لعدم فهم أى شىء فى ذلك . نحن قريبون جدًّا منهم، مِنْ هؤلاء المواطنين الكبار الذين لا يُساقون إلى «الكابيتول» إلا ليُرحّلوا إلى «لاروش تاربيين» (مكان فى أقصى جنوب غرب الكابيتول حيث يُرَحَّل إليه جميعُ المحكوم عليهم بالإعدام)، مثل نيكير(1)، وميرابو، ولافاييت، وبايى(2)، وبيتيون، ومانويل(3)، وآخرين كثيرين. ومَنْ يعلم أنك لا تخصص نفس المصير لأبطالك الجدد؟..... لا ندرى .

– قال جاميلان : أُذْكُرْ لى أسماءهم، أيها الوطنى «بلين»، أُذْكُرْ هؤلاء الأبطال الذين تستعد للتضحية بهم ! قال ذلك بلهجة جعلت تاجر الرشم يتذكر أن يكون حذرًا .

أجاب «بلين» واضعًا يده على قلبه :

أنا جمهورى مثلك، ووطنى مثلك أيها المواطن «إيفاريست جاميلان»، وأنا لا أشك فى وطنيتك، ولا أتهمك مطلقًا بالتقلُّب. ولكن أعلم أن وطنيتى

---

(1) نيكير، جاك : من رجال البنوك من جنييف . فى ١٧٧٧ استدعاه لويس السادس عشر إلى الإدارة المالية. وفى ١٧٨٨ يقنع الملك بدعوة المجالس العامة لإعادة الثقة. ومن هنا كان عزله فى الحادى عشر من يوليو ١٧٨٩، والذى كان سببًا مباشرًا فى ثورة الرابع عشر . تم استدعاؤه ثانيًا، ولم يستطع أن يقمع الأحداث، فاستقال فى سبتمبر ١٧٩٠. أصبحت ابنته مدام دى ستيل .

(2) بايى، جان : فَلَكى شهير، عميد الطبقة الشعبية فى المجالس العامة، وأول رئيس للجمعية التأسيسية، وأول عمدة لباريس فى ١٧٨٩ . أعلن الأحكام العرفية التى تبيح إطلاق النار فى السابع عشر من يوليو ١٧٩١ . تم إعدامه فى نوفمبر ١٧٩٣ .

(3) مانويل، لويس بيير : نائب البلدية، لعب دورًا مهمًّا فى العاشر من أغسطس ١٧٩٢ . وكان يعادى حُكم الإعدام، ولم يُصَوِّتْ على حكم إعدام الملك. اتهموه بالخيانة، تم إعدامه بالمقصلة فى نوفمبر ١٧٩٣ .

وإخــلاصى للقضيــة العــامــة، تشـهـد عليهما أعمالٌ عـديدة. ها هى ذى مبــادئى : أمنحُ ثقتى لكل فــرد قــادر على أن يخدم الأُمَّــة. وَأَنْحَنِى أمــام الرجــال الــذين يشير صــوتهم إلى الشرف المحفـوف بالمخـــاطر للسلطة التشريعية، مثل «مارات»، ومثـل «روبيسبير»، وأنا على استعداد أن أقدم لهم العــون فى حــدود إمكانيـــاتى المتــواضعــة، وأن أحمل إليهم المؤازرة المتواضعــة من مواطن صــالح.. وفى وسع اللجان أن تشـهد على حماسى وعلى إخــلاصى. ومن الناحيــة الاجتماعيــة كنتُ عضــوًا مع مــواطنين حقيقيين، زودتُ فــرساننا البــواسل بالشعير والعَلَف، وجهـزتُ جنودنا بالأحـــذية، وحتى فى هــذا اليـــوم أَوْصَيْتُ بإرســـال ستين عجــلًا من «فيرنون»(١) إلى جيش الجنوب، من خــلال بلد أغــارت عليــه اللصــوص، وهزمه رسل «بيت» و «كونديه»(٢) أنا لا أتكلم، بل أفعل .

وفى هدوء أعاد «جاميلان» لوحاته المائيــة إلى كارتونته وعقد ربطتها، وحملها تحت إبطه، وقال وهو يصرُّ على أسنانه :

– يا لها من مفارقــات ! أن نساعـد جنودنا على أن يحملوا – فى أنحاء العالم – هذه الحرية التى يخونونها فى أوطانها، بأن يبذروا بذور القلاقل والقلق فى نفوس المدافعين عنها... سلامًا أيها الوطنى « بليز ».

وقبل أن يـدلف إلى الحارة التى تحاذى «الأورتوار» (أى: الكنيســـة

---

(١) فيرنون : مدينة فرنسية .

(٢) كونديه : مهاجر من ١٧٨٩ ، نظم جيشًا من الفرنسيين استخـدمه المتحالفون استخدامًا سيئًا . لم ينتشر إلَّا فى عام ١٨٠١ بمعاهدة السلام فى أميانس .

الصغيرة) كان «جاميلان» قلبه مفعمًا بالحب وبالغضب، التفت ليلقى نظرة على زهرات القرنفل الحمراء المزدهرة على حافة إحدى النوافذ .

«جاميلان» لا ييأس مطلقًا من سلامة الوطن . وفى مقابل الكلمات غير الوطنية التى تفوَّه بها «جان بلين» قاوم عقيدته الثورية. وكان لابد له أيضًا أن يعترف بأن هذا التاجر لم يكن يزعم – بدون مظهر من مظاهر العقل – أنه من الآن فصاعدًا لن يهتم شعب باريس بالأحداث.. وأأسفاه! كان من المؤكد جدًّا أنه بعد الحماس الذى كان يسود الساعات الأولى جاءت اللامبالاة العامة، ولن نرى الجموع الغفيرة المجتمعة على أمْرٍ واحدٍ فى سنة ١٧٨٩، وأننا لن نرى كذلك ملايين الأنفس المنسجمة التى كانت تتسابق فى سنة ١٧٩ حول كنيسة الفيدراليين .

آه ! المواطنون الصالحون يخضاعفون حماس ومهارة الشعب، ويوقظونه من سباته، ويخيرونه بين الحرية أو الموت. هكذا كان «جاميلان» يفكر، وكان فكر «إيلودى» يساند شجاعته . وعندما وصل «جاميلان» إلى الطريق العمومى رأى الشمس تغرب فى الأفق تحت سُحب ثقيلة، تشبه جبالاً من الحِمَم المتوهجة، وكانت أسقف المدينة تسبح فى ضوء ذهبى، وزجاج النوافذ يقذف سهامًا مضيئة .

وكان «جاميلان» يتخيل أَنَّ جبابرةً يقيمون مع الأطلال المتقدة للأزمنة الغابرة مدينة «ديسية» النحاسية. ولما لم يكن عنده كسرة خبز من أجل أمه ولا من أجله هو نفسه ، كان يحلم بأن يجلس إلى مائدة لا نهاية لها، والتى كان سَيُدْعَى إليها الكونُ بأسره، وحيث الإنسانية التى

بُعثت ستجد لها مكانًا بالانتظار. كان يُقنع نفسه بأن الوطن بمثابة أُمٍّ صالحة ستغذى طفلها الأمين .

«جاميلان» كان يبدو متماسكًا فى مواجهة استخفافات تاجر «الرشم»، لكنه احتدم على اعتبار أن فكرته عن أوراق اللعب الثورية كانت جديدة وجيدة، وأنه برسوماته بالألوان المائية الناجحة بحق سوف يضع يده على ثروة .

« ديماهيس سوف يحفرها ، كان يعتقد ذلك . سوف ننشر نحن بأنفسنا اللعبة الوطنية الجديدة ، ونحن على يقين أننا سوف نبيع منها عشرة آلاف ، كل لعبة بعشرين سول ، فى شهر واحد » .

وفى غمرة يأسه من تحقيق هذا المشروع حَثَّ خُطاه وتوجه إلى ساحة لافيراى، حيث يقيم «ديماهيس»، فوق أحد بائعى الزجاج، وعندما دخل «البوتيك» أخبرته البائعة أن المواطن «ديماهيس» ليس موجودًا. لم يندهش الرسام، لأنه يعرف أن صديقه مُشَتَّتٌ وتائه المزاج، والذى كان يندهش من أننا نستطيع أن نحفر مثله أو أفضل ما يفعله هو مع قليل من المهارة والمثابرة .

قرر «جاميلان» أن ينتظره، فقدمت له زوجة بائع الزجاج مقعدًا . كانت نكدة المزاج ، وتشكو من سوء الحال ، وإن قيل : إن الثورة بتحطيمها للنوافذ قد أَثْرَتْ بائعى الزجاج .

أسدل الليل ستائره، ويَعْدِلُ «جاميلان» عن مواصلة انتظار صديقه، فاستأذنَ من زوجته فى الانصراف . وحينما كان يعبر « البونت – نوف »

رأَى أفــرادًا من الحـرس الوطنى يظهــرون من شـــارع مــورفــوندى على صهـوات جيادهم يدفعـون المارة، وكــانوا يحملون المشاعل، مع صــوت صلصلــة السيــوف ، يحرســون عــربة تَسْحَبُ ببطء إلى المقصلــة رجلًا لا يَعرف اسمه أحدٌ من قبل، وهو أول مَنْ حكمت عليهم محكمة الثورة[1] الجديدة . كــان يظهــر من خلف قبعـــات الحرس جــالسًّـــا، وكــانت يداه مقيدتين خلف ظهــره، ورأسه عــاريًا، مُتَرجِّحَ الهامة، مُحَوَّلًا إلى مــؤخرة العربة . والجلاد يقف إلى جانبه متكئًا على حافة العربة .

المارَّة متــوقفـــون، يتبــادلون الحديث فيما بينهــم عن هذا الشخص، ويقولون إنه ربما يكون أحد مُجَوِّعِى الشعب ، وينظرون بلا مبالاة .

وعندما اقترب «جاميــلان» تعرف على «ديماهيس» من بين المتفرجين، يجتهــد فى اختراق الجَمْع الغفير والوصـــول للمــوكب، فناده، ووضـع يده على كتفه.. التفت إليه «ديماهيس». كان شابًّا جميلًا وقويًّا. كان يُقَال عنه دائمًا فى الأكــاديميــة : إن له رأسًـــا كرأس «باكــوس»، وجســدًا كجســد «هرقل»، وأصــدقــاؤه يسمــونه «باربارو»[2] بسبب التشــابه بينه وبين ممثل هذا الشعب .

---

(١) محكمة الثورة : أسستها الجمعية الوطنية فى العاشر من مارس سنة ١٧٩٣. مقرها محكمة العدل ، وتضم أربع قضاة، واثنى عشر محلفًا، يتقاضون ١٨ فرنكًا يوميًّا. تصدر أحكامًا بدون استئناف، وتنفيذية مباشرة. صدر أول حكم بالإعدام فى السادس من أبريل ١٧٩٣ ، علاوة على خمسة آلاف حُكم، نصفهم كان أحكامًا بالإعدام . تم إلغاء نشاطها فى الحادى والثلاثين من مايو ١٧٩٥ .

(٢) باربارو محامٍ من مرسيليــا ، كان يقود كتيبــة من مواطنيــه فى العاشر من أغسطس سنة ١٧٩٢ . مخلص للسيدة رولان . هرب إلى نورمانديا وتعرف على شارلوت كورادى . أُسِر فى بوردو. حاول الانتحار . أُعْدِم بالمقصلة فى الخامس والعشرين من يونيو ١٧٩٤ .

ـ قال له « جاميلان »: هَلُمَّ ، أريد أن أتحدث معك فى أمر مهم .

ـ أجاب « ديماهيس » بحدَّة : دَعْنى !

وتلفظ بعدَّة كلمات غير مفهومة، منتظرًا اللحظة التى ينطلق فيها :

– كنت أتعقَّب سيدة جميلة بقبعة من القش، صانعة قبعات، وشعرها الأشقر يتدلى على ظهرها.. هذه العربة الملعونة قد حالت بينى وبينها ... لقد مرت فى المقدمة، وهى الآن فى نهاية الكوبرى !

حاول « جاميلان » أن يمسك به من ملابسه ، ويقسم له أن الأمر فى غاية الأهمية ، ولكن «ديماهيس» كان قد تسرب بين الخيول والحرس والسيوف والمشاعل، وظل يطارد الفتاة صانعة القبعات .


2

2

كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكانت شمس شهر أبريل تُنْعِش بضوئها أوراقَ الأشجار الرقيقة. وكان النسيم عليلًا بعد أن خَفَّتْ عاصفة المساء. وعلى فترات متقطعة كان يمر أحد الفرسان، على «لاليه دى فوف» (ممر الأرامل)، يكسر هدوء وصمت الوحدة. وعلى حافة الممر الوارف الظلال عند كوخ «لابيل ليلوان»، وعلى مقعد من الخشب، كان «إيفاريست» ينتظر «إيلودى»..

ومنذ أن التقت أصابعهما على قماش الإيشارب حيث اختلطت أنفاسهما، لم يأتِ إلى متجر «لامور بانتر» (مصوِّر الغرام) طوال مدة أسبوع، كبرياؤه ورباطة جأشه، وحياؤه الذى يجعله دائمًا أكثر رصانة، قد أبعدوه عن «إيلودى». وكان قد كتب إليها رسالة هامة ومبهمة وحادة، يعرض فيها شكواه وهمومه التى حَمَّلَها له المواطن «بلين»، وأخرس حبه، وأخفى آلامه، وأعلن قراره بعدم العودة إلى المحل، وأوضح بأنه سيتبع هذا القرار بإصرار شديد، لا تستطيع محبوبتُه أن تؤيده فى ذلك.

وبفطرة عكسية كانت «إيلودى» مجبولة على أن تدافع عن مالها فى أى

مناسبة، فكرت فى الحال أن تستعيد صديقها. بداية ذى بدء، فكرت فى أن تذهب إليه فى مرسم ميدان «ثيونفيل»، ولكنها عرفت أن مزاجه متكدر، وحكمت عليه من خلال رسالته بأنه متفجر نفسيًّا، وخوفًا من أن يضع الابنة والأب فى غلاف واحد من الضغينة، وألا يجتهد فى رؤيتها ثانية فكرت فى شىء أفضل ، وهو أن تُحدد له موعدَ لقاءٍ عاطفيًّا ورومانسيًّا ، لا يسعه أن يرفضه أو يتملص منه، حيث سيكون لديها الوقت الكافى لكى تُقْنِعَ وتنالَ الإعجاب، وحيث الوحدة ستتواطأ معها لتفتنه وتتغلب عليه.

كان يوجد فى ذلك الوقت فى جميع الحدائق الإنجليزية، وفى جميع المتنزهات العصرية أكواخٌ بناها معماريون علماء، والتى تجتذب الميول الريفية للحضريين .

وكان كوخ «لابيل ليلواز» (ليلواز الجميلة) يشغله أحد بائعى صير الليمون يسند فقره المصطنع على أطلال مقلدة بفن لأحد البروج القديمة، حتى يجمع بين سحر القُرَى وكآبة الأطلال .. ولما لم يكتف بالتأثير على ذوى النفوس الحساسة بكوخ وبرج مهدم، أقام بائع الليمونادة مقبرةً تحت شجرة صفصاف، وعمودًا فى أعلاه جَرَّة جنائزية (مرمدة) وعليها هذا النقش : «من قليونيس إلى المخلص آزور».. أكواخ، وأطلال، ومقابر وفى اليوم السابق لهلاكها أقامت الأرستقراطية فى الحدائق الموروثة، هذه الرموز التى تعبر عن الفقر، والإلغاء، والموت .

والآن يميل الحضريون الوطنيون إلى الشرب، والرقص، فى أكواخ صناعية، وفى ظلال أطلال أروقة مزيفة، وبين مقابر مزيفة، لأن بعضهم

كان مثل البعض الآخر، عاشقًا للطبيعة، وكتلاميذ جان جاك. وكذلك كانت لهم قلوب حساسة ومملوءة بالفلسفة.

وصل «إيفاريست» إلى مكان اللقاء قبل الساعة المحددة، وجلس ينتظر، وكان مثل بندول الساعة، يحسب الوقت بخفقات قلبه.

ومرت دورية تقود بعض المساجين، وبعد عشر دقائق، وصلت امرأة كل ما ترتديه يتميز باللون الوردى، وتحمل فى يدها صحبة من الزهور، يصحبها فارس يرتدى قبعة مثلثة القرون، وزيًّا أحمر اللون، وسترةً وسِرْوالًا مخططًا. دلفوا إلى الكوخ، والاثنان كانا فى أناقة أهل الحكم القديم، حيث يجب أن تصدق مع اعتقاد المواطن « بلين»، بأن للناس طباعًا لا تغيرها الثورات مطلقًا.

وبعد بضع دقائق جاءت من «روبل» أو من «سان كلود»[1] امرأة عجوز، تحمل علبة أسطوانية، ألوانها صارخة، جلست على المقعد الذى يجلس عليه «جاميلان» ينتظر. وضعت علبتها أمامها، وغطاؤها به إبرة (مؤشر) للعبة الحظ. هذه المرأة المسكينة تقدم الحظ للأطفال فى الحدائق. كانت بائعة حلوى تسمى (اللذيذة) تبيع حلوى باسم جديد، لأنه مهما كانت التسمية عريقة فى القِدَم للحلوى التى كانت تسمى المُقَمَّعة (حلوى على شكل قُمَع)، أوحت بالفكرة الملحقة عن الضحية والضريبة، والتى سببت التضجر من التقلبات، فتبدل اسمها من «المُقَمَّعة» إلى «اللذيذة».

---

(١) « رويل » و « سان كلود » : ضاحيتان من ضواحى باريس.

بعد أن جلست البائعة العجـوز على المقعد جففت عرقها بطرف المريلة التى ترتديها، وبثت إلى السماء تذمرهـا، وقد شكت إلى الله بأنه من الظلم أن تعيش مخلوقـاته فى هذه الحيـاة القـاسية . كـان زوجهـا يجلس على شـاطىء النهر فى «سـان كلود» ممسكًا بصنَّارته، وهى تذهب يوميًّـا إلى «الشـانزيليـزيـه»، تنادى على الحلوى : « ها هى ذى حلـوى اللذيذة ، سيداتى!»، ومن كل هذا العمل لا تجنى شيئًا يُساند شيخوختهم .

ولَّما أدركت أن جليسهـا الشـاب مستعـدٌّ لسماع شكواها عـرضت بإسهـاب سبب آلامهـا : إنها «الجمهـورية» التى سلبت أمـوالَ الأغنيـاء، وانتـزعت لقمة الخبـز من فم الفقـراء، وليس هناك بادرة أمل فى تحسين الأحـوال. فهى تعلم – وفقًـا لدلائـل كثيرة – أن الأمـور تتفـاقم وتزداد سوءًا، ففى «نانتر» وضعت امـرأة طفلًا برأس أفعى، وفى «رويل» سقطت صاعقة على برج الكنيسة، فشقت صليب برج الأجراس، وفى غابة «شافى» ظهـر غول ذئبـى، وهناك رجال مقنعـون يسَمِّمـون المنابع، ويذرون فى الهواء مساحيق تسبب الأمراض...

ويَرَى «إيفاريست» «إيلودى» تقفز من العـربة، فيجرى نحوها. كانت عيون الشابة تتألق فى ظل قبعتها الشفافـة، وشفتاها الحمراوان كانتا فى لون القـرنفل الذى تحمله معهـا، كـانا يبتسمان. كـانت تضع إيشـاربًا حريريًّـا أسودَ اللون على صدرهـا وتعقده على ظَهرها. وثـوبها الأصفر كان يكشف عن حـركة ركبتيها السريعتين، وكانت تغطى قـدميها بحذاء مسطح بدون كعب، وكانت الثورة حـررت القامة بالنسبة إلى المواطنات،

لذلك كـانت التنورة (الجيب) منتفخـة عند الخاصرة، تخفى الأشكال مع المبالغة فيها، وتحجب الحقيقة تحت صورتها المكبرة .

وحين أراد أن يتكلم هربت منـه الكلمات، ووجَّـه اللَّوْمَ بهذا الحرج إلى أن «إيلودى» تفضل استقبـالا أحلى من هذا. وهى لاحظت أيضًـا أنه يعبر عن ذلك برباط عنق، يعقد ربطته بطريقة فنية غير عادية .

مدت يدها إليه ، وقالت :

– كنـت أريـد رؤيتـك لأتجاذب مـع أطـراف الحديـث . لم أردَّ على رسالتك، لأنها لم تعجبنى ، لم أعثـر عليكَ بين سطورها . كان من الممكن أن تكون أكثـر توددًا لو أنها كـانت أكثـر واقعيـة ، وليس من شِيمَتك أو طَبعك أن تعتقد أنك لن تعـود إلى المتجر (لامـور بانتر) لمجرد أنك خُضت مُشادَّة حادَّة قليلًا فى السياسة مع رجل يكبرك سنًّا . كُنْ على يقين أنك لن تَلْقَى من والدى إلّا الترحيب بك عندما تعـود إلينا ، فأنت لا تعرفه ، وهـو لا يتـذكـر مـاذا قـال لك، ولا بماذا أنت أجبتـه . أنا لا أؤكـد أنه يوجـد استلطاف كبير بينكما، ولكنكما بدون ضـغـائن . أقول لك ذلك بصراحـة، فهـو لا يهتم كثيرًا ، لا بك ، ولا بى أنـا أيضًـا ، ولا يفكر إلَّا فى أعماله وفى ملذَّاته .

اتجهت نحـو أَيْكَة الكوخ، واتبعهـا وعلى مَضَضٍ، لأنه كان يعـرف أن هذا اللقـاء، هـو لقـاء الحب المأجـور ، وعبـارات الهَوَى العـابر . ووقع اختيارها على إحدى الطاولات البعيدة عن الأنظار .

– كم من أشياء أريد أن أقولها لك يا «إيفاريست»! إنَّ للصداقة حقوقًا

علينا. هل تسمح لى بأن استخدم هذه الحقوق ؟ سأحدثك عن نفسك كثيرًا .... وقليلًا عنى، إذا وافقتَ على ذلك .

جاء بائع عصير الليمون يحمل دروقًا وأكوابًا، أفرغت بنفسها لتشرب، كربَّة بيت جيدة، ثم قصت عليه عن طفولتها، حدثته عن أمها وجمالها، والتى كانت تفخر به، وبالبِرِّ البَنَوِىِّ، ذلك أنه أصل جمالها، كانت تمدح جدها وجدتها لقوتهما، وكانت تفخر بدمائها البورجوازية .

وقصت عليه كيف أنها فقدت هذه الأُمَّ الحنون وهى فى السادسة عشرة من عمرها، وأمضت حياتها بعد وفاتها بدون حنانٍ أو سَنَد، ووصفت نفسها كما هى : نشيطة، حساسة، شجاعة ، وأضافت :

– أى «إيفاريست»، لقد أمضيتُ شبابًا كئيبًا، وفى وحشة، من أجل ألَّا أعرف قيمة قلب مثل قلبك، ولَمْ أنكر نفسى – وبدون جهد – صارحتك، بطريقة ودية والتى أستطيع أن أعتمد عليها ، وهى عزيزة لَدَىَّ .

كان « إيفاريست » ينظر إليها بحنان ، وقال :

– هل يمكن يا «إيلودى» ألَّا أُبالى بِكِ ؟ أيمكننى أن أَصْدُقَ ؟.... توقف عن الكلام خوفًا من أن يتحدث كثيرًا، ويفسد بذلك صداقة حميمة .

مدتْ إليه يدًا صغيرة وشريفة، تخرج حتى منتصفها من أكمامٍ طويلة وضيقة مزينه بالدانتيل، ويرتفع صدرها فى تنهيدات طويلة .

– امنحنى يا «إيفاريست»، جميع الإحساسات التى تريد أن أحسها نحوك، ولن تنخدع أبدًا فيما يشعر به قلبى نحوك.

– إيلودى ، إيلودى، كل ما قُلْتِهِ الآن سوف تكررينه أيضًا عندما تعرفين... ثم تَرَدَّدَ .

وتخفض هى عينيها مُطْرِقَةً .

أما هو فقال بصوت خافت :

– « ... إنى أحبك ! » .

وعندما سمعت هذه الكلمات الأخيرة احمرَّ وجهها سرورًا.. وبينما كانت عيناها تعبران عن شعور بلذة رقيقة رغما عنها، ارتسمت ابتسامة هزلية على جانب شفتيها ، وقالت فى نفسها : « ويعتقد أنه هو الذى صَرَّحَ أولا ! وربما يخشى أن يكون قد ضايقنى !....».

وقالت له برفق :

ـ ألم تفهم إذَنْ أننى كنتُ أحبك يا صديقى ؟

لم يكونا يشعران بأحد ممن حولهما وكانا يظنان أنهما بمفردهما فى العالم . «إيفاريست» فى أوج نشوته يرفع عينيه نحو السماء المتلألئة بالزرقة اللازوردية ويقول :

– انظرى ! السماء تشاهدنا ! إنها فاتنة وعطوفة مثلك ، مثلك أنتِ يا حبيبتى الغالية، إن لها إشراقتك، ورقَّتك، وابتسامتك .

كان يشعر بأنه هو والطبيعة شخص واحد، وأشركها فى بهجته، وفى مجده. ويرى بعينيه – للاحتفال بهذه الخطوبة – زهورَ أشجار القسطل تضىء كأنها شمعدانات ، وشعلات الصفصاف الضخمة تشتعل .

كان متمتعًا بقوته وبعظمته . وهى أكثر حنانًا، وأكثر رقة، وأكثر مرونة، وليِّنة العريكة. كانت تتظاهر بالضعف، وفى الحال بعد أن انتصرت عليه، خضعت له، والآن، وقد وضعته تحت هيمنتها، فعرفت فيه السيد، والبطل، والرَّبّ ، تُغدِق فى الطاعة، والإعجاب ، وعَرْض نفسها.

وفى ظلال الخميلة قَبَّلَهَا قبلة ملتهبة طويلة ، أدارت برأسها، وفى أحضان «إيفاريست» شعرت بأن جسدها يذوب كالشمع.. تناولا حديثًا طويلاً عن نَفْسَيْهِما، ونَسِيَا الكون من حولهما. «إيفاريست» عبَّر عن أفكار صافية وفضفاضة ألقت بإيلودى فى أعماق النشوة . و«إيلودى» تحدثت عن أشياء حلوة نافعة، وخصوصية. وبعد ذلك عندما لاحظت أنها لا تستطيع أن تتأخر أكثر من ذلك، نهضت وقد قررت الانصراف، وأعطت إلى صاحبها القرنفلات الثلاث الحمراء المتفتحة على نافذتها، وقفزت بخفة ورشاقة فى العربة التى كانت قد اصطحبتها. كانت عبارة عن عربة بمقعد واحد، صفراء اللون، عالية العجلتين، ولا يوجد بها شىء غير عادى سوى الحوذى . ولكن «جاميلان» لم يستقل عربة، ولم يفكر مطلقًا فى أن يقترب منها. وعندما يراها بعجلتيها المرتفعتين والسريعتين يشعر بانقباض قلبه، ويشعر بأن إحساسًا أليمًا سوف يصيبه. نوع من الوهم الذهنى، كان يبدو له أن جوادَ الكرَّاء يحمل «إيلودى» إلى ما وراء الأحداث الحالية والزمن الحاضر، إلى مدينة ثرية ومبتهجة، إلى مقرات الرفاهية والملذات حيث لن يطأها أبدًا .

اختفت العربة، وتبددت مخاوف «إيفاريست»، ولكنْ بقى له قلق

غامض، وكان يشعـر بأن أوقات الحنان والنسيان التى عـاشها لِتَوِّه لن يعيشها ثانية أبدًا .

وفى عودته ، مرَّ على «الشانزيليزيه»، حيث كانت توجد نساء بملابس فاتحة اللون، جالسات على مقاعد من الخشب، يُحِكْنَ أو يُطرزن، فى حين يلعب أطفالهن تحت الأشجار. وبائعة حلوى «اللذيذة» تحمل صندوقها على شكل طبلة، ذَكَّرَتْهُ ببائعة الحلوى نفسها عند «لاليه دى فوف»، وبدا له كَأَنَّ عمرًا قد انصرم من حياته بين هذين اللقاءين. عبَر ميدان «لاريفوليسيون»، وفى حديقة «التويليرى» سمع من بعيد ضوضاءَ هائلةً لأيام الأعياد، هذه الأصوات المجمعة التى يزعم أعداء الثورة أنها صمتت للأبد. حثَّ «إيفاريست» خُطاه نحو الجلبة التى تتزايد، وصل إلى شارع «هونورية»، وجده مُغَطًّى بجمع غفيرٍ من الناس، من الرجال والنساء، يهتفون : « تحيا الجمهورية ! تحيا الحرية !».

كانت أسوار الحدائق والنوافذ والشرفات والأسطح مملوءة جميعها بالمتفرجين، يلوحون بالقبعات والمناديل، وكان المركب مسبوقًا بأحد النقَّابين، والذى كان يفسح الطريق للموكب، ومحاطًا بضباط المجلس البلدى ، والحرس الوطنى، والمدفعيِّين، وشُرطة الدَّرَك، وحَمَلَة الأعلام . وكان يتقدم ببطء – على رأس المواطنين – رَجُلٌ شاحب البشرة، يُتَوِّج جبهته تاجٌ من البلّوط، وجسده ملفوف فى ثوب لاويَّة قديم أخضر اللون، وياقته من فَرْوِ حيوان «القاقم». كانت النساء تقذفه بالزهور، وكان يجول بنظره فى كل ما حوله ، بنظرات ثاقبة من عينيه الصفراوين، كما لو

كان يبحث فى هذا الجمع الغفير عن المزيد من أعداء الشعب ليُبلغ عنهم، أو عن خونة ليُعاقبهم .

وفى طريقه كان «جاميلان» عَارِىَ الرأس، واختلطَ صوته مع ألف صوت هاتفًا :

ـ يعيش « مارات » !

دخل المنتصر إلى قاعة الجمعية الوطنية كالقدر ، فى حين الجَمْعُ الغفير يزحف ببطء . جَلَسَ «جاميلان» على حافة الطريق (طريق هونورية) واضعًا يده على قلبه ليحسب دقاته . إنَّ ما رآه الآن قد أثلج صدره وملأه بشعور عظيم، وحماس مُتَّقِد .

«إيفاريست» يحترم «مارات»، ويُكِنُّ له شعورًا بالمَعَزَّة، و «مارات» مريض، النار تسرى فى وَتِينِه، والتقرحات تنهشه، استنفذ مِمَّا تبقَّى من قواه فى خدمة الجمهورية، وفى منزله الفقير - المفتوح للجميع - يستقبل من يقصده وهو مفتوح الذراعين مُرَحِّبًا به، وأحيانًا يسأله عن مخططات الفاسقين الأشرار .

إنه معجب بأن أعداء الحق - وهم يتآمرون على هلاكه - قد أعدوا انتصاره، وكان يبارك محكمة الثورة التى برَّأَتْ صديق الشعب، وقدمت إلى الجمعية الوطنية أكثر المشرعين حماسًا ونقاءً .

كانت عيناه تشاهدان هذا الرأس الذى تُلهبه الْحُمَّى مُكَلَّلًا بتاج الوطنية، وهذا الوجه الذى تعلوه سماتُ الكبرياءِ وحُبٌّ لا يرحم، وهذا

الوجه المشـــوه الذى يفتك به المرض كان يراه قـويًّا .. وهذا الفم المتقلص، وهذا الصدر العـريض ، وهذا المحتضر العيد الذى يلوح من فـوق العربة بانتصاره، كأنــه يقول إلى مواطنيــه : «كونوا مثلى ، واحــذوا حذوى أيها الوطنيون حتى الموت » .

أصبح الطريق موحشًا ، وغشيه الليل بظلامه ، وجاء مُشْعِلُ الشموع بفانوسه و « جاميلان » يتمتم :

– حتى الموت ! .....

* * *

فى الساعــة التاسـعة صبــاحًا وجــد «إيفاريست» «إيلودى» فى انتظاره على أحد المقــاعد فى حــديقة لوكسمبــورج. مضـى على تبــادلهما اعترافات حبهما شَـهْـرٌ، كانا يتقــابلان يوميًّا فى متجــر «لامور بانتر» أو فى مــرسم ميدان «تيونفيل» بكل وُدٍّ، وبتحفظ تُضفيــه على علاقتهما الوثيقة أخلاقُ حبيبٍ جاد وفــاضل، مُوَحِّد بالله، ومواطن صـــالح، وهو على أتم استعداد أن يتــزوج عشيقتــه أمــام القــانــون أو أمام الله وحده، حسب الظروف، ولا يريد أن يفعل ذلك إلَّا فى وضح النهار ، وأمام الجميع .

وتعترف «إيلودى» بأن ذلك هو الحل الأشرف، ولكن يأسًــا من زواج يجعل كل شىء مستحيــلًا، وترفض مخالفة التقــاليد الاجتماعيــة، فهى تواجــه بداخلهــا، فى نفسهـــا، ارتبــاطًا يجعله الكتمان آثمًا، إلى أن تجعله الاستمــرارية محترمًا . كــانت تعتقــد أنها فى يوم من الأيام ستتغلب على

وساوس عاشق مجبول على الاحترام، ولم تكن تريد أن تؤجل توضيح بعض الأمور الهامة، لذلك طلبت منه ساعة لتتحدث معه فى الحديقة الخالية من الزوار ، بالقرب من دير «الشارترو».

نظرت إليه بحنان وإخلاص، وأخذت يده بين يديها، ثم أجلسته إلى جانبها ، وحدثته بخشوع :

– «إيفاريست»، لا أريد أن أخفى عنك شيئًا، لأنى أُقدِّرك تقديرًا عظيمًا، وأعتقد أننى جديرة بك، ولن أكون كذلك إنْ لم أقل لك كل شىء. اسمعْنى واحكُمْ علىَّ، فأنا لا أوجه اللوم إلى نفس لعملٍ حقيرٍ أو دنىء، أو حتى مهم فقط ... لا تصرف النظر يا صديقى عن الظروف الصعبة التى نشأت فيها، أنت تعرف ذلك، لا أُمَّ لى، وأبى لا يزال صغيرًا ولا يفكر إلَّا فى مسرَّاتِه، ولا يهتم بى. كنت حساسة، وهبتنى الطبيعة قلبًا حنونًا ونفسًا كريمة، ومع أنها لم ترفض لى حكمًا حاسمًا وصحيحًا، فإن العاطفة غلَّبته عندى على العقل .

واأسفاه ! فلسوف تُغلِّبه اليوم أيضًا ، إذا لم يتفق الاثنان ، يا«إيفاريست» على أن يُزَوِّجانى لك ، وللأبد !

هكذا عبَّرتْ بما يجيش فى نفسها بحزم وفطنة . كانت كلماتها مرَتَّبة ومُعَدَّةً، ومنذ وقت طويل قررت أن تعترف، لأنها كانت صريحة، ولأنها كانت تحب أن تقلد «جان جاك»، ولأنها كانت تقول فى نفسها بتعقل :

«إيفاريست سيعرف يومًا ما أسرارًا، لست أنا الوحيدة المؤتمنة عليها،

فمن الأفضل أن أُقَدِّمَ اعترافًا تكون صراحته مديحًا لى، وإخباره بما لو عَرَفه ذات يوم يكون عرفانه لى خزيًا ».

كانت حنونة ووديعة بالطبيعة، لذا لم تكن تشعر بأنها ارتكبت ذنبًا كبيرًا، وأن اعترافها كان أقل مشقة، بالإضافة إلى أنها اهتمت بألَّا تقول إلا الضرورى.

– آه!.. (قالتها وهى تتنهد) : لِمَ لَمْ تأتِ إلىَّ يا «إيفاريست» العزيز وأنا وحيدة ومُهْمَلَةً ؟..

«جاميلان» اعتبر طلبها بأن يكون قاضيًا لها طلبًا صريحًا، ولَمَّا كان تكوينه الطبيعى وتعليمه الأدبى فى ممارسته للعدالة الاجتماعية يُهيئانه لذلك فقد استعد لسماع اعترافات «إيلودى». ولَمَّا رآها مترددة ، أومأ إليها أن تتكلم .

فقالت بلا تَصَنُّع :

– كان هناك شاب ، كانت له من بين صفاته السيئة صفات حميدة، ولم يكن يبدى إلَّاها. لاَحَظَ عندى بعض الجاذبية، وأبدى نحوى اهتمامًا ملحوظًا يثير الدهشة بالنسبة إليه .. كان فى ريعان شبابه، وتبدو عليه مظاهر النعمة، وعلى علاقة بسيدات ساحرات، لا يُنكرن أبدًا أنهن يعبدنه.

ولم يكن اهتمامى به لجماله أو لروحه ... لقد استطاع أن يُؤَثِّرَ فِىَّ عندما أبدى لى حبه، وصدقتُ أنه كان يحبنى فعلًا .. كان حنونًا، مُلاطفًا. لم أطلب منه أى ارتباطات إلَّا بقلبه، وكان قلبه متقلبًا ... ولا ألوم إلَّا

نفسى.. هذا هو اعترافى وليس اعترافه، أنا لا أشكو منه ما دام قد أصبح غريبًا عنى. آه! أقسم لك يا «إيفاريست» إنه الآن بالنسبة لى كأنه لم يكن!

وصمتتْ.. أمَّا «جاميلان» فإنه لم يُحر جوابًا، وعقد ذراعيه، وكانت نظراته ثابتة وغامضة. وكان يفكر فى آنٍ واحد فى معشوقته وفى شقيقته «جولى».. و«جولى» هى أيضًا كانت قد صدقت عاشقًا، ولكنه يعتقد أن شقيقته كانت تختلف عن البائسة «إيلودى»، كانت قد انتبذت بنفسها، ليس لخطإٍ فى قلب حساسٍ، ولكن لكى تجد - بعيدًا عن ذويها - الرفاهية والمتعة.

ومن قسوته أدان شقيقته، وينزع إلى إدانة معشوقته. واسْتَطردت «إيلودى» بصوت كله حلاوة:

- «كنت متشربة بالفلسفة، وكنت أعتقد أن الرجال أشراف بالطبيعة، وكان من سوء حظى أن أقابل حبيبًا لم يكن قد تلقى تكوينه فى مدرسة الطبيعة والأخلاق، وأن المعتقدات الاجتماعية والطموح والكبرياء ونخوة مزيفة صنعتْ أنانيًّا ونذلاً».

وقد أسفرت هذه الكلمات المحسوبة عن النتيجة المطلوبة.

هدأت نظرات «جاميلان» وسأل:

- من كان خادعك هذا؟ هل أعرفه؟

- أنت لا تعرفه.

- اذكرى لى اسمه.

كانت «إيلودى» تتوقع هذا السؤال ، وكـانت قد عقدت العزم على عدم الاستجابة لرغبته ، فقالت :

- اعفنى أرجوك، فإننى بالنسبة إليك وبالنسبة لى قد قلت عنه الكثير.

ولما كان « إيفاريست » يصر على طلبه قالت :

- من أجل صـالح حبنا المقـدس لن أخبركَ بشىء يطبع فى خـاطرك هذا... الغـريب، لا أريد أن أُلقى بشبحٍ إلى غَيْرَتِكَ، ولا أريد أن ألقى بظلال مزعجة بينى وبينك، لقد نسيتُ هذا الرجل ولا أريد أن أُعرِّفك عليه .

ضغط عليها «جاميلان» بأن تذكر له اسم هذا المخادع، وكان يستعمل هذا المصطلح بـإصرار ، لأنه لا يشك فى أن «إيلودى» أُغْـويَتْ وخُـدِعَتْ وغُرِّرَ بها ، .. لم يكن يدرك أن يكون الأمر بوجه آخر، وأنها قد تكون لبَّت الرغبة، الرغبـة التى لا تُقاوَم، واستمعت إلى النصـائح الحميمة الجميلة، قد قَدَّمت نفسها، كان مقتنعًا أن إنسـانة فى ذكائها وعبقريتها تُؤخذ عُنوة أو بالحيلة ، أى تُغتصب، وتهوى فى شراكٍ منصـوبة تحت قدميهـا .. وقد وجـه إليهـا أسئلة بحساب فى العـلاقـات، ولكنهـا موجـزة ومقتضبـة، ومُكدِّرة .. سألها كيف تكونت هذه العلاقـة، وعَمَّا إذا كانت مدتها طويلة أو قصيرة، هادئة أو مضطربة، وبأى طريقة انفصمت.. وكان يعود دائمًا إلى الوسائل التى استخدمها هذا الرجل ليُغرِّر بها، وعما إذا كان استخدم منها ما هو غريب أو خارق للعادة.. كل هذه الأسئلة جعلها هباءً .

وبإصرار رقيق التزمت الصَّمْتَ، وأطبقتْ فمَهـا، وعيناها مغرورقتان

بالدموع.. ومع ذلك، فعندمـــا سَـأَلـها «إيفاريست» : أين الآن هذا الرجل ؟ أجابت :

ـ لقد غادر المملكة .

واستطردت بحماس :

ـ ... فرنسا .

صـاح « جاميلان » :

ـ مهاجر !

فتنظر إليه صـامتةً وآسفة فى آن واحد، كانت مطمئنة وحزينة لأن تراه هو نفسه يختلق حقيقــة مطابقة لعواطفه السيــاسية، ويضفى على غَيْرَته لونًا يعقوبيًّا بدون داعٍ .

فى الواقع كان عاشق «إيلودى» كاتبًا صغيرًا للنائب العام، وكان غلامًا وسيمًا جدًّا، وكـانت «إيلودى» تعبده ، حتى أن ذكـراه بعد ثلاث سنوات قد ألهبت الحرارة فى صدرها، كان يبحث عن السيدات الثريَّات والمُسِنَّات، فترك «إيلودى» من أجل امـرأة متمـرسة تكافئه حســب قدراته، بعـد أن أُلغيـت الإدارات، ودخــل بـلديـــة بــاريس، والآن أصبــح جنـدىًّ خيالٍ لا متسرول، وعاشقًا لامرأة من صـواحب الألقاب فى العهد السابق.

ويقول « جاميلان » مُكَرِّرًا :

– أحد النبلاء! وقد هَجَرِكِ بكلِّ نذالة !... فلتحترس جيدًا، إنها لا تتمنى أبدًا أن يعرف كل الحقيقة .

وتحنى رأسَها .. ويَضُمُّها إلى صدره ويقول :

– عزيزتى ضحيـة الفساد الملكى ، إنَّ حبى سينتقم لك من هذا الوقِح، والسماء قادرة على أن تُلاقينى به ! وسوف أتمكن من معرفته !

أدارت رأسها مغتمة ومبتسمة ومخدوعـة، كل ذلك معًا . كانت تريده أكثر ذكاءً فى أمور الحب، وأكثر طبيعة، وأكثر قسوة .

شعرت أنه لم يسامح سريعًا إلا لأن خيـاله فاتر، وأن الثقة التى أولته إياها الآن لم توقظ فيـه أى صـورة من هذه الصـور التى تُعَـذِّبُ محبى اللَّذَّات، وأنه أخيرًا لم يجد فى هذا التغرير إِلَّا حَدَثًا أخلاقيًّا واجتماعيًّا.

نهضا من جلستهما وسَارَا فى الممـرات الخضراء فى الحديقة. وقال لها إنه يُقَـدِّر تـألم المرء. و«إيلودى» لم تسأله أكثـر، ولكـن أحبتـه كما هو، وأُعجبت بعبقـريتـه الفنيـة التى رأتها تتـألق فيـه. وعند خـروجهما من «لوكسمبورج» قابَلَا جمهرة صـاخبة فى شارع «الإيجاليتية» (المساواة) وحـول مسرح الأمــة، ولم يكن ذلك ليُثير دهشتهما، فمنذ بضعـة أيام سادت موجة من الهياج فى أكثر القطاعات وطنية، تندد بحزب «أورليانز» وشركاء «بريســو»، الذين – كما يقال عنهم – يُدبِّرون لتخـريب باريس، وذبح الجمهـوريين. وكان «جاميـلان» قد صَـدَّقَ من قبل على عـريضة مجلس العموم التى كانت تطالب باستبعاد الواحد والعشرين .

وبالقـرب من المرور تحت البواكى التى تربط المسرح بالمنزل المجـاور كـان عليهما أن يَمُرَّا بمجمـوعـة من المواطنين يرتدون «الكارمنيـولات»،

وكان أحد الجنود يخطب ويعظ فيهم من أعلى الممر، جندى جميل وسيم، مثل «حبّ براكسيتيل»(1) بخوذته المصنوعة من جلد الفهد.

هذا الجندى الوسيم يتهم صديق الشعب باللامبالاة، وكان يقول:

– أنت نائم يا «مارات» والفيدراليون يُكبلوننا بالحديد! ولم تكد «إيلودى» تتجه بنظرها إليه حتى قالت بِجِدَّةٍ:

– هلُمَّ إلىّ يا «إيفاريست»!

إنَّ الجَمْعَ الغفير هذا يخيفها، وتخشى أن تسقط فاقدة الوعى وسط الزحام. وافترقا فى ميدان «لاناسيون»، وقد تعهدا بحب أزلى.

وفى ساعة مبكرة من هذا الصباح، قدَّم المواطن «بروتو» إلى المواطنة «جاميلان» هدية جميلة، عبارة عن طائر مُسَمَّن، ولم يكن من ناحيته حذرًا، بأن صرح لها كيف حصل عليه، لأنه أخذها من سيدة من سيدات السوق الكبير، أحيانًا كان يعمل سكرتيرًا لها، والمعروف أن سيدات السوق الكبير كُنَّ ذوات مشاعر ملكية، ويُراسلن المهاجرين. وتأخذ المواطنة «جاميلان» الطائر المُسمَّن بقلب راضٍ. ومن الصعب الحصول على مثله فى ذلك الوقت، فقد كان غلاء المواد الغذائية فى زيادة مستمرة، وكان الشعب يخشى المجاعة، ويُقال إن الأراستقراطيين كانوا يتمنونها، والمُحتكرون يُجهّزون لها.

كان المواطن «بروتو» مدعوًّا على تناول نصيبه من الطائر المُسمَّن على

---

(1) براكسيتيل: نحّات يونانى مشهور. ولد حوالى سنة ٣٦٠ ق. م.

وجبة الظهر، وتوجَّه مُلبيًا هذه الدعوة، وهنأ مضيفته على رائحة الطعام المنبعثة شهية من مطبخها. وفى الحقيقة شَمَّ الرسام رائحة الحساء الشهية. فأجَابته السيدة الطيبة قائلة :

– إنكَ كريم بالفعل يا سيدى، وقد أردتُ إعداد معدتنا لاستقبال لحم طائرك الذى أهديته لنا، فقد صنعتُ حساءً بالأعشاب، مع شريحة دهن الخنزير، مع عظمة عجلٍ ضخمة. فما من شيء له طعم ونكهة جميلة للحساء مثل قطعة عظم بالنخاع .

أجاب « بروتو » :

– هذه الحكمة تستحق المديح أيتها المواطنة ، ويكون من الأفضل أن تضيفى غدًا – وبعد غد ، وبقية الأسبوع كله – قطعة العظم الثمينة هذه فى إناء الطهى، فهى لن تتوقف أبدًا عن إضافة الرائحة الجميلة للطعام . وقديمًا كانت عرَّافة «بانزوست» لها طريقة هكذا : كانت تعد حساء الكرنب الأخضر مع شريحة من شحم الخنزير الأصفر، وعظمه نخاعية تسمى «سافورا دوس » وكانت لذيذة الطعم، طيبة المذاق والرائحة، وذات عُصارة كثيرة .

قالت المواطنة «جاميلان» :

– هذه السيدة التى تتحدث عنها يا سيدى ألم تكن حريصة أو شحيحة قليلًا حتى تستخدم لفترة طويلة نفس العظمة ؟

أجاب بروتو :

– كانت تحيا حياة صعبة ، وكانت فقيرة، مع أنها رسولية .

فى هذه اللحظة، عـاد «إيفاريست جـاميلان» متأثرًا بالاعترافـات التى سمعهـا لتـوِّه، وقطع على نفسه عهـدًا بأن يعـرف الذى غَـرَّرَ بإيلودى، لينتقم فى نفس الوقت للجمهورية ولحبه .. وبعد المقدمات اللطيفة العادية، بدأ المواطن «بروتو» الحديث :

– من النادر أن هؤلاء الذين يحترفـون الكهانة بأنهم سـوف يغتنون مستقبـلا ، فسرعـان مـا يظهـر غشهم، وهذا الغـش يجعل الجميع يُبغضـونهم. ولكن لابد من مقتهم أكثر إذا تَنَبَّئُوا حقيقـة بالمستقبل، لأن حياة المرء سوف تصبح غير محتملة إذا كـان يعرف ما سوف يحدث له، سوف يكتشف آلامًا مستقبلية يتألم منها مقدمًا، ولن يتمتع – علاوة على ذلك – بالمنافع القـائمـة ، والتى قـد يرى نهايتهـا . والجهل هو الشرط الأساسى لسعـادة الناس، ويجب الاعتراف بأنهم يضطلعون به فى معظم الأحيان، فنحن نجهل كل شىء تقريبًا عن أنفسنا ، وعن الغير ، كل شىء. الجهل يصنع هدوءنا ، والكذب لنا به هناء وسعادة .

وضعت المواطنة «جـاميـلان» الحساءَ على المائـدة وهى تتلو صـلاة المائدة، وأجلست ابنها وضيفها ، وبدأت تـأكل وهى واقفة، رافضة المقعد الذى قـدمه لها « بروتو » بالقـرب منه ، لأنها تعرف – كما تقـول – ماذا تتطلَّبُ منها اللياقة والإكرام .

* * *

الساعة العاشرة صباحًا ، الجو ثقيل ولا توجد به نسمة هواء . كان شهر يوليو من أشد الشهور التى عرفناها حرارة، وفى شارع أورشليم الضيق، حوالى مائة مواطن من القطاع يقفون طابورًا أمام المخبز، ويُراقبهم أربعة من الحرس الوطنى الذين يدخنون «الغليون»، راكزين سلاحهم فى الأرض .

وكانت الجمعية الوطنية أصدرت مرسومًا بالحد الأقصى للأسعار، وفى الحال اختفت الحبوب واختفى الدقيق . فصار الفرنسيون ينهضون مبكرين قبل بزوغ النهار إذا أرادوا الحصول على طعام، وكما كان بنو إسرائيل يصنعون فى التيه. وكان كل هؤلاء الناس، يتزاحمون ويدفع بعضهم البعض الآخر من رجال ونساء وأطفال فى جو شديد الحرارة مثل الرصاص المنصهر، يجفف بعض الجداول، ويُثير روائح العرق والقذارة. الناس يتدافعون بشدة ويتنادون، وينظر بعضهم إلى بعض بجميع الإحساسات التى يستطيع بنو الإنسان أن يُعبروا بها عن أنفسهم للآخرين، مثل النفور والاشمئزاز، والرغبة، وعدم الاكتراث واللامبالاة . وكان معروفًا أنه لا يوجد خبز لكل الناس، وذلك بالخبرة المؤلمة، حتى الذين يصلون متأخرين يحاولون أن يتسربوا فى المقدمة، وهؤلاء الذين يفقدون أماكنهم فى الصف يتشاكون ويغتاظون، ويطالبون بحقهم الذى لا يحترمه الآخرون ، ولكن بدون جدوى. والنساء يحاولن بكل وسيلة، بمرافقهن وظهورهن ليُحافظن على أماكنهن، أو ليحصلن على مكان أفضل. وإذا زاد التزاحم إلى درجة الاختناق تتصاعد الصيحات : «لاتتدافعوا ! » وكل شخص يُعْتَرَضُ يَحْتَجُّ بأنه دُفِعَ .

ومن أجل تجنيب هذه الفوضى اليومية رَأَى المفتشون الذين أوفدهم القطاع، أن يربطوا حبلًا على باب المخبز، ليقف كل شخص فى مكانه فى الصف بأن يمسك به، ولكن الأيادى القريبة جدًّا من بعضها تتلاقى على الحبل وتدخل فى صراع، ومن يترك الحبل لا يستطيع أن يمسكه مرة أخرى ، والرافضون والساخرون كانوا يقطعونه ، فكان لابد أن يَعْدِلوا عن هذه الفكرة .

فى هذا «الطابور» يعتقد المرء أنه سيختنق وسيموت، وتُطلق النكات، وتُطلق كلمات فاحشة، وشتائم قذائف من السباب موجهة للأرستقراطيين وإلى الفيدراليين الذين صنعوا كل هذا الشر . وإذا مر كلب، يطلق عليه بعض الساخرين اسم «بيت»، وأحيانًا تسمع فرقعة صفعة قوية من يد مواطنة على وجه أحد الأنذال، فى حين تتنهَّد خادمة شابة يدفعها جارها، وعيناها شبه مقفولتين، وثغرها شبه منفرج، وتتنفس بليونة واسترخاء. كانت كل كلمة وكل حركة لكل موقف خاص كفيلة بإيقاظ المزاج الفاجر عند المحبين الفرنسيين. وبدأت مجموعة من الشباب الفاسق ينشدون: «لا ضَيْرَ، ستتحسن الأحوال»، بالرغم من اعتراضات أحد اليعقوبيين المُسِنِّين، كان ناقمًا على مايشين من مراوغات قذرة .. كان هذا النشيد عبارة تتردد تُعبِّر عن العقيدة الجمهورية فى مستقبلٍ يتسم بالعدل والسعادة .

وجاء أحد عمال لصق الإعلانات يحمل سُلَّمه تحت إبطه ليلصق إعلانًا على الحائط فى مواجهة المخبز، من مجلس العموم يُقَنِّن لحوم

الجزارة. توقف بعض المارة لقراءة الإعلان الذى لا يزال مبللًا بالصمغ. إحدى بائعات الكرنب تحمل سلتها على ظهرها، وأخذت تقول بصوتها الخشن المرتعش :

– لقد ذهبت العجول السمينة ! فعلينا بالمصارين. وفجأة تصاعدت رائحة كريهة من إحدى مواسير المجارى، حيث تأثر الكثيرون من الرائحة التى تسد الأنوف. إحدى السيدات ساءت حالتها وأُغمى عليها، وحملها اثنان من الحرس الوطنى بضع خطوات بعيدًا تحت إحدى المضخات .

كان الجميع يسدون أنوفهم، وانطلقت الإشاعات، وتبادلَ الجميع الأحاديث التى يملؤها القلق والخوف .. كانوا يتساءلون فيما بينهم عمَّا إذا كان حيوان مدفون هناك، أو وُضِعَ سُمٌّ فيها بسوء نية، أو أن أحد قَتْلَى سبتمبر – نبيلًا كان أو كاهنًا – قد نُسِىَ فى كهف أو سرداب مجاور .

– إذَنْ وُضِعَ شىء من ذلك هناك ؟

● لقد وضعوا شيئًا من ذلك فى كل مكان !

– لابد أن يكون أحد هؤلاء من شاتيليه(١) . وقد رأيتُ فى الثانى من سبتمبر ثلاثمائة منهم مُكَدَّسين على « الكوبرى » عند التغيير .

كان الفرنسيون يخشون انتقام هؤلاء الأعداء أنصار العهد السابق من أن يكونوا قد سمَّموهم.

---

(١) مدينة فرنسية .

وصل «إيفاريست جاميلان» واتخذ مكانه من الصف، كان يريد أن يُجنِّب والدته آلام الوقفة الطويلة . وكان يرافقه جاره المواطن «بروتو» هادئًا مبتسمًا، ويحمل معه كتاب «لوكريس» فى جيب معطفه الأسود اللون والمائل إلى الحمرة . وقد مدح العجوز الطيب هذا المشهد، كأنه لوحة مضحكة للرسام الإيطالى «بامبوكيو» أو بريشة تينييه[1] العصرى . قال «بروتو» :

– هؤلاء العتالون، وهؤلاء الثرثارات، ألطف من اليونانيين والرومان الذين يعتز بهم رسامونا فى هذه الأيام. أما عن نفسى ، فقد تذوقت الطريقة الفلمنكية .

والذى لا يذكره أبدًا بحكمة وذوق سليم، أنه كان لديه معرض للوحات هولندية، لا يعد له غيرُ ديوان السيد «شوازيل» بالنسبة إلى عدَد واختيار الصور.

يجيب الرسام :

– لا يوجد أجمل من القديم وما يُستلهم منه. ولكنى أتفق معك على أن اللوحات المضحكة لكل من «تينييه»، و«ستيين»[2]، أو «أوستاد»[3] أفضل من الزخارف النسائية لفاتو، و «بوشيه»، و «فان لو»[4]، لقد

---

(١) تينييه : رسام فلمنكى ت ١٦٤٩ .

(٢) رسام هولندى ت ١٦٧٩ .

(٣) رسام هولندى ت ١٦٨٥ .

(٤) رسام فرنسى ت ١٧٦٥ .

تشوهت فيها الإنسانية، ولكنها لم تُحقَّر ، على سبيل المثال عند «بودوان» أو «فراجونارد» .

ويمرُّ أحد المُنادين ، يصيح :

– نشرة محكمة الثورة !..... قائمة المذنبين !

قال « جاميلان» : إن محكمة ثورية واحدة لا تكفى ، لابد أن توجد واحدة فى كل مدينة ... ماذا أقول ؟ بل فى كل دائرة، وفى كل ناحية.. لابد من أن يلجأ كل رب أسرة، وكل المواطنين عليهم أن يلجئوا إلى القضاء .

عندما تجد الأمة نفسها مهددة بمدافع الأعداء، أو خناجر الخونة، يُغتال الغفران. ماذا ؟! ليون، ومرسيليا، وبرودو، متمردون، وكورسيكا ثائرة، ولافانديه تضطرم، ومايانس وفالانسيان هَوَتَا تحت سلطة الحزب، الخيانة فى الأرياف وفى المدن ، وفى المعسكرات ، الخيانة جالسة على مقاعد الجمعية الوطنية ، الخيانة جالسة وبطاقة فى يدها فى مجالس حرب قادتنا... فَلْتُنقِذِ المِقْصَلَةَ وطننا !

أجاب «بروتو» العجوز : ليس عندى اعتراض جوهرى على المقصلة. الطبيعة هى مُعَلِّمَتى الوحيدة وخليلتى الوحيدة، فى الحقيقة لم تعلمنى بأى طريقة أن حياة أى إنسان لها بعض القيمة ، بل على العكس، فهى تعلم بشتى الطرق أنها ليس لها أى قيمة. يبدو أن الغاية الوحيدة من المخلوقات، هى أن يُصبحوا غذاءً لمخلوقات أخرى، مُكَرَّسين للغاية ذاتها. والقتل من القانون الطبيعى، وبناء عليه فالحُكم بالإعدام شرعى، بشرط أَلَّا تمارسه عن فضيلة، أو عن عدلٍ، ولكن عن ضرورة أو من أجل

الحصــول مــن ورائــه على انتفــاع أو كسب، لــذلك يجب أن تكون عندى غــرائز شــديدة، لأنى أكره أن أرى الدمــاء تسيل، وذلك يُعَدُّ انحــلالا، لم تتوصل فلسفتى بَعْدُ إلى إصلاحه .

واستطرد «إيفاريست» : الجمهوريون رُحَمَاء وحساسون، ولا يوجد سوى الطغــاة الذين يؤكدون أن عقوبة الإعــدام شعار ضرورى للسلطة. والشعب ذو السيــادة ســوف يلغيها ذات يوم، و «روبسبير» كــافحهــا، ومعــه جميع الوطنيين، والقانــون الذى يُلغيها لم يسعــه أن يُنشر مبكرًا ، ولكن لا يجب أن يُطبق مستقبــلًا إلا عندمــا يهلك آخِر أعــداء الجمهــورية بموجب قوة القانون .

والآن يوجد خَلْفَ «جاميــلان» و «بروتو» مَنْ وصلوا متأخرين، ومن بين هؤلاء كثيرات من نســاء الدائــرة، ومن بين أُخــريات حــائكة جميلة، واضعة على رأسهــا منديلًا ، ولابسة خُفًّــا ، ومتقلدة بسيف، ومن هؤلاء فتاة جميلــة شقراء، شعثة الشعــر، خمارها مُجَعَّد، وَأُمٌّ، شــابة صغيرة، نحيفــة وشــــاحبة ، تعطى ثديها إلى طفلها الهزيل النحيل . والطفل الذى لا يجد لبنًا فى ثديها يصيح، ولكنَّ صيحاته كــانت ضعيفة، ويكاد يختنق من نحيبه. صغيرٌ يُثير الشفقــة، فهو ممتقع البشرة، ووجهــه أصفر يميل إلى السواد ، عيناه مُتَّقِدَتان، وأمه تنظر إليه نظرة تُثير الألم .

قال «جــاميلان» وهو يلتفت إلى الرضيع البــائس ، والذى يتألم خلفه ويئن تحت ضغط الذين يصلون متأخرين : إنه صغير جدًّا !!

– عمره ستة أشهر ، حبى المسكين!.... والده فى الجيش : وهو من بين هؤلاء الذين صَدُّوا النمساويين فى كوندية .

اسمه ديمونتاى (ميشيل)، موظف تجارى، يحترف صناعة الجوخ، وقد تطوع فى المسرح الذى أقيم أمام مبنى دار البلدية. رفيقى المسكين كان يريد أن يدافع عن وطنه، وسافر.... وكتب إلَىَّ، وطلب منى أن أتذرع بالصبر. ولكن كيف تريدنى أن أُطعم «بول» – (هذا هو اسمه) – وأنا لاأستطيع أن أُطْعِمَ نفسى ؟

صاحت الفتاة الشقراء الجميلة : آه ! أمامنا ساعة أخرى من الانتظار حتى نحصل عليه، ولابد فى هذا المساء من تكرار نفس الانتظار أمام باب البقالة، ونتعرض لمخاطر قاتلة من أجل الحصول على ثلاث بيضات، وربع رطل زبدة.

فتنهدت المواطنة «ديمونتاى» قائلة : زبدة، لم أَرَها منذ ثلاثة أشهر !

وجميع النسوة اشْتَكَيْنَ من نُدْرَة وغلاء المواد الغذائية، ويقذفن باللعنات على المهاجرين، وينذرْن المقصلة لمنتشى الدوائر الذين يعطون نساء ماجنات دجاجاتٍ مُسمَّنةً وخبزًا بسعر فيه محاباة مشينة .

وتنتشر القصص التى تنذر بالخطر عن غرق عُجولٍ ففى نهر السين، وجوالات من الدقيق تُفرّغ فى المجارى، وخبز يُلْقَى فى المراحيض... ويُقال إن المُجَوِّعين الملكيين ، والرولانديين، والبريسوتانيين هم الذين يتابعون القضاء على شعب باريس .

وفجأة تصرخ الفتاة الشقراء الجميلة ، ذات الوشاح المجعد ، وكأن النيران اشتعلت فى تنورتها، وتهتز بعنف، وقد قلبت جيوبها وقالت إن كيس نقودها قد سُرِق .

وإثْر عملية النشل هذه سَرَتْ موجة من السخط من هذا الشعب الرقيق الذى سبق أن نهب الفنادق فى ضاحية «سان جيرمان»، و غزا «التويلورى» بدون أن يستولى على أى شىء. هؤلاء حرفيون وأهالى ، وهم الذين أحرقوا – عن حسن نية – قصر «فيرساى»، ولكنهم كانوا يعتقدون أنهم يكونون غير أشراف إذا سرقوا دبوسًا واحدًا منه .

والشباب الفاسق جازف على مغامرة الطفلة الجميلة ببعض الدعابات سيئة القصد ، وسرعان ما اختنقت بما شاع من رأى الجمهور . وكان الكلام يدور عن تعليق اللص على حبل المشنقة. وجرى تحقيق صاخبٍ ومتحيز، وأشارت المرأة الحائكة الكبيرة بأصبعها إلى شخص متقدم فى السن، ويبدو أنه كان راهبًا سابقًا، تُقسم على أنه الراهب «الكابوتش» الذى ضرب ضربته.

وفى الحال اقتنع الحشد ، وأطلق صيحات الويل والثبور . أما العجوز فقد وقع تحت طائلة عقاب المجرم باسم الجماعة، وَمَثُلَ أمام المواطن بروتو فى منتهى التواضع، ويبدو عليه مظهر حقيقى لرجل دين سابق، ويوحى مظهره بالاحترام، فى حين تسبب اضطرابُ هذا الحشد فى إظهار هذا الرجل المسكين بمظهر فاسد ، وأيضًا بسبب أيام سبتمبر القاسية . كما أن الخوف الذى ارتسم على وجهه جعله مشبوهًا عند هذا الجمهور

الذى يعتقد – عن طيب خاطر – أن المذنبين فقط هم الذين يخشون هذه الأحكام، كأن هذا التهور وعدم التروى فى حكمهم لابد أن يخيف حتى الأبرياء، وليس المذنبين فقط .

«بروتو» كان يميل إلى القانون بألَّا يُعارض الشعور الشعبى مطلقًا، خاصة إذا كان يبدو لا معقولًا وقاسيًا، « كان يقول آنئذ : «صوت الشعب هو صوت الرب ». ولكن «بروتو» كان غير منطقى ، فقد صرح بأن هذا الرجل – سواءً كان راهبًا كبوشيًّا أَوْ لم يكن – فإنه لا يمكن أن يسرق هذه المواطنة التى لم يقترب منها فى أى لحظة .

استنتج الجمهور أن الذى يدافع عن اللص يكون متواطئًا معه، والآن تناقل الحديث بينهم عن معاقبة المُذْنِبَيْنِ، وعندما تعهد «جاميلان» بأن يضمن «بروتو» تحدث الأكثر حكمة فى الجمهور بأن يرسلوه مع الاثنين الآخرين إلى الدائرة .

ولكن الفتاة الجميلة صاحت فجأة وبفرحة أنها عثرت على كيس نقودها . وفى الحال انطلقت عليها صيحات الاستنكار والسخرية، وهُدِّدَتْ بأن تُضرب على أردافها على الملأ كراهية .

قال رجل الدين لـ «بروتو» : أشكرك على أنكَ دافعتْ عنى ياسيدى، واسمى لايهم ، ولكن لابد أن أذكره لك : (اسمى لويس دى لونجمار)، وفى الواقع أنا راهب قانونى ولست راهبًا كابوشيًّا، كما قال هؤلاء النسوة، والأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك، فأنا أكليركى قانونى من النظام

البارنابيتى الذى خَرَّجَ للكنيسة أفـواجًا من الأطباء والقديسين، ولا يكفى مطلقًا أن نُـرجِع أصله إلى القـديس «شـــارل بورومى»(١)، بل لابد من اعتبار أن مُؤسِّسه الأصلى هو القديس بول (بولس) المُبَشِّر، والذى يحمل المُشَبَّكة فى شعـار النبالة. كـان لابد أن أُغادر الدير الذى كنت فيـه، حيث أصبح مقر دائرة لوبون – نوف ، وأن أرتدى زى راهب علمانى .

قال «بروتو» وهو يتفحص عباءة السيد «لونجمار» : أبى، إن ملابسك تدل بما فيـه الكفاية على أنك لم تنكر طريقتك، ومَنْ ينظر إليك يعتقـد أنك أصلحت نظامك بـدلا من أن تتركـه، وعـرَّضْتَ نفسك فى هـذه الظواهر القاسية لشتائم شعبية وقحة بهذا المظهر الزاهد .

أجـــاب الراهـب : ومع ذلك، فلم أستطـع أن أرتدى الزّىَّ الأزرق كما يرتدى الرَاقص .

قـال «بروتو» : يا أبى، إن ما قُلْتُـه عن ملابسك، قلتُـه لكى أُحَيِّى فيك أخلاقك، وأُحذرك من الأخطار المُحدقة بك .

قـال الـراهب : سيـدى ، من اللائق ، أو على العكـس تمامًـا، يجب أن تُشجعنى على إشهـار عقيدتى ، ذلك لأننى لستُ إلَّا مجبـولًا على الخوف من الهلاك. لقـد تركتُ الزىَّ الرهبـانىَّ يا سيـدى، ومـا ذلك إلا نوع من الارتداد، إن أقل شىء ألَّا أغادر البيـت الذى أنعم علىَّ الله فيه طوال سنين عدة بحياة هادئـة ومنعزلة، وحصلتُ على الموافقة بالإقامـة فيه ، ولزمتُ

---

(١) أصبح أسقف ميلانو فى القـرن السادس عشر. قائـد أتباع برنابيت ، ولد سنة ١٥٣٨ ، وتوفى سنة ١٥٨٤ .

فيه صومعتى، فى حين تحولت الكنيسة والدير إلى نوعٍ من دار البلدية الصغيرة، والذين سموها «الدائرة». وقد رأيتُ يا سيدى شعارات الحقيقة المقدسة تُدَقُّ بالمطرقة، ورأيت اسم المبشر (بول) يُستبدل بِقَلَنْسُوَة أحد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. أحيانًا كنت أحضر اجتماعات الدائرة غير القانونية، وسمعتُ فيها تعبيرات خاطئة تثير الدهشة. وأخيرًا غادرت هذا المقر المُمْتَهَن، وذهبتُ لأعيش فى إحدى الحظائر التى صُودرت خيولها لخدمة الجيوش، بمعاشٍ حددته لى الجمعية، وهناك أقمتُ القُدَّاس أمام بعض المؤمنين الذين جاءوا ليشاهدوا خلود كنيسة المسيح.

قال «بروتو»: أَمَّا أنا يا أبى فإذا كُنْتَ راغبًا معرفة اسمى فإننى أُدْعَى «بروتو»، وقد كنت قديمًا جَابِى ضرائب.

أجاب الأب «لونجمار»: كنتُ أعرف من موعظة للقديس «مَتَّى» أنه فى الإمكان الاستماع إلى حديثٍ طيبٍ من أحد جُباة الضرائب.

قال «بروتو»: أبى إنكَ مهذب أكثر من اللازم.

قال «جاميلان» للمواطن «بروتو»: قَدِّرُوا هذا الشعب الجائع للحرية أكثر من الخبز.. كل واحد هنا كان مستعدًّا أن يترك مكانه ليعاقب اللص. هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة فى فقر مدقع، وبرغم أنهم مطحونون بالحرمان، فإنهم يتمتعون بنزاهة شديدة، ولا يسعهم أن يتسامحوا بصدد أى عمل مشين.

أجاب «بروتو»: يجب أن نعترف أن هؤلاء القوم قد اتخذوا موقفا

سيئًا تجاه هذا الـراهب الطيب حينما رغبـــوا فى شنق النشـــال ، وتجاه المُدافِع عنه، وتجاه الذى يدافع عــن المُدافع عنه . إن حــرصـهم – وكـذلك حبهم الأنانى الشـديد الذيـن يُكِنُّونه لمالهم – دفعهم إلى ذلك ، فـالنشـال عندما يهاجم أحـدًا منهم فالجيع يُصبحون مهـددين، ومن ثم يحرصون على أن يُعـاقبوه... ومــع ذلك ، فمن المحتمل أن يكون معظم هؤلاء العمال اليـدويين وهؤلاء الشغالات فى البيـوت، مستقيمين ومن ذوى الصـلاح، ويحترمـون مـال الغير ، وقد أُلْقِيَتْ عليهــم هذه الإحساســات وثَبَّتَهَـا فى نفــوسهم تربيةُ آبائهــم وأُمهاتهم، الذين عـاقبـوهم بما فيه الكفـاية على أردافهم، وزرعوا فيهم الفضيلة منذ طفولتهم .

لم يُخْفِ «جـاميلان» عن «بروتو» العجـوز رأيه بأن هذه اللغــة التى يتحـدث بها جـديرة بأحـد الفـلاسفـة . فقـال : إن الفضيلة طبيعــة عند الإنسان وقد وضـع الله بذرتها فى قلوب البشر .

كان العجوز «بروتو» مُلْحِدًا، ونزح من إلحَادِه نبعًا غزيرًا من الملذات .

– إننى أرى – أيها المواطن «جاميـلان» – أن كلمة ثورى هى من أجل مــا هو على الأرض، وأنت بالنسبــــة إلى السماء تعَـدُّ محافظًا، ولا يختلف «روبيسبير» و «مارات» عنك فى ذلـك مطلقًا . ومن الغريـب أن الفرنسيين الذين لم يتألموا لِمَلِـكٍ من البشر يُصرون على أن يحتفظوا به كملك خـــالٍ، أكثـر طغيانًا ووحشيـة، وإلَّا فما هو البـاستيل(١) والغرفـة المحرقـة(٢)

---

(١) الباستيل : سجن بباريس هُدِم سنة ١٧٨٩ .

(٢) يعنى بها : المحكمة التى كانت تبتّ فى القضايا الاستثنائية .

بالنسبـة إلى جهنم ؟ إنَّ البشرية تنسخ آلهتهـا مِنَ الطغـاة ، وأنتم الذين ترفضون الأصل وتحتفظون بالنسخة !

صاح «جاميلان» : أوه أيها المواطن ! ألا تخجل من أن تتناول مثل هذا الحديث ؟ كيف تخلط بين المعبـودات الكئيبـة التـى هى وليـدةالجهل والخوف وبين الخالق ؟ إن الإيمان بإله واحـد أمرٌ وضرورى للأخـلاق . إن الله هو منبع الفضائـل جميعها، ولن يكون المرء جمهوريًّا مـا لم يؤمن بالله .

«روبسبير» كـان يعى ذلك جيدًا ، فـانتزع من قـاعة اليعقـوبيين ذلك التمثـال النصفى للفيلسوف «هيلفيتيـوس» الآثم وأعان الفـرنسيين على الاستعبـاد بتعليمهم الإلحاد ... وإنـى أتعشم - على الأقل - أيها المواطن «بروتو» عندمـا تؤسس الجمهـويـة ألا ترفض انضمامك إلى دين حكيم يقبله العقل .

أجـاب «بروتو» : إننى أحب العقل، ولست متعصبًـا ضـده ، فـالعقل يرشـدنا ويُنيرنـا، وعندمـا تجعل منه معبـودًا فسـوف يُضلِّك ويُقنعك باقتراف الجرائم .

واستمر « بروتو » فى استدلاله، وقـدماه فى الجدول ، كذلك كان يفعل منذ عهـد قريـب فى أحد مقـاعـد البارون «هولبـاك »[١] الوثيرة المُذَّهبة، والذى - وفقًـا لتعبيره - كان يستخـدمها كأسـاس للفلسفة الطبيعيـة ، ويقول :

---

(١) أولباك - أو هولباك -: فيلسوف فرنسى ملحد ، ولد سنة ١٧٢٣ ، وتوفى سنة ١٧٨٩ .

إن «جان جاك روسو» الذى أبدى بعض المواهب، خاصة فى الموسيقى كان عبارة عن «جان - فيس» الذى ادعى أنه استقى الأخلاق من الطبيعة، مع أنه فى الحقيقة أخذها عن مبادئ «كالفان»(١). إن الطبيعة تُعلمنا أن ينهش بعضنا بعضًا ، وتعطى لنا جميع نماذج الجرائم، وجميع الرذائل التى تصححها الحالة الاجتماعية أو تخفيها .

يجب أن نحب الفضيلة، ولكن من الصالح أن نعرف أن ذلك مجرد وسيلة تَخَيَّلَهَا الناسُ ليعيشوا معًا فى وئام. وما نسميه الأخلاق ما هو إلَّا عملية يائسة قام بها نظراؤنا ضد النظام العالمى، الذى هو نزاع، وقتال، وصراع بين مختلف القوى العمياء المتضاربة، فهى تدمر نفسها تدميرًا ذاتيًّا، وكلما أفكر فيها أكثر أقنع نفسى بأن الكون ساخط .

إن اللاهوتيين والفلاسفة الذين يجعلون الله خالق الطبيعة، وخالق الكون، يجعلونه يظهر بمظهر لا معقول شرير، وهم يقولون طيب لأنهم يخشونه ، ولكنهم مُجبرون على أن يوافقوا على أنه يتصرف بطريقة وحشية، وينسبون إليه دهاءً نادرًا عند الإنسان، ومن ثم يجعلونه معبودًا على الأرض، لأن جنسنا البائس يزهد فى عبادة آلهة عادلة وخَيِّرة، حيث لا يوجد ما يخشاه منهم، ومن ثم لا يحفظ شعبنا لهم جميلًا أو معروفًا غير ذى جدوى .

ولولا الأعراف(٢) والجحيم لأصبح الإله الطيب مجرد سيد مسكين .

---

(١) زعيم الإصلاح الدينى فى فرنسا وسويسرا، ولد سنة ١٥٠٩ ، وتوفى سنة ١٥٦٤ .

(٢) الأعراف : الحاجز بين الجنة والنار .

قال الأب لونجمار : لا تتحدث أبدًا عن الطبيعة، أنت لا تعرف ما هى .

– بكل تأكيد يا أبى ، أعرف ذلك جيدًا مثلك !

– لا تستطيع أن تعرف ذلك، لأنك لا تعتنق أى دين، وأن الدين فقط هو الذى يعلمنا ما هى الطبيعة، وفى أى شىء هى صالحة، وكيف أنها قد حُرِّفت. وفضلًا عن ذلك لا تنتظر ما سوف أجيبك به قائلًا : إن الله لم يمنحْنِى حرارة اللسانِ لكى أدحض أخطاءَك ولا حرارة اللغة، ولا قوة الفكر وكنت أخشى ألَّا أُزودك لعدم كفايتى، إلَّا بغرض التجديف(١) ، وبأسباب التصلب، وعندما أشعر برغبة جامحة لخدمتك، فلن أتلقى مِنْ أَجْلِ ثمرة كرمى الخفية إلا .....

وتوقفت هذه الكلمات بانبعاث ضوضاء صاخبة بدأت من أول الطابور ، وتنذر الطابور الجوعان بأن المخبز قد فَتَحَ أبوابه. وبدءوا يتقدمون ، ولكن ببطء شديد ، ويقف أحد أفراد الحرس الوطنى يُنظم الطابور ويُدخلهم ليشتروا الخبز فردًا فردًا . كان الخباز وزوجته وابنه حاضرين عملية بيع الخبز، وكذلك مفتشان مدنيان، يُعلق كل منهما شريطًا ثلاثىَّ الألوان على ذراعه الأيسر ، ليتأكد من أن المستهلكين ينتمون إلى الدائرة ، وأن يسلم إليه النصيب المحدد للأفواه المحتاجة للغذاء .

كان المواطن «بروتو» يجعل من البحث عن المتعة هى الغاية الوحيدة للحياة، ويرى أن العقل والحواس هما فقط القضاة فى حالة عدم وجود الآلهة، ولا يمكن إدراك حياة أخرى .

---

(١) التجديف : كفران النعم .

وعندمـــا وجـد فى كلمات «الرســام» الكثير من التعصب، وفى كلمات «الراهب» الكثير من البســاطة، ليحصل منها على متعـة كبيرة، هذا الرجل الحكيم لكى يُوفِّق بين سلوكه ومـذهبه فى الظروف الحالية، وليُخفف من طول الانتظار، أخرج من جيب سترته حمراء اللون ، والتى تميل للسواد، أخرج كتابه عن «لوكريس»[1] الذى ظل أعز ما لديه من ملذات، وموضـع سروره الحقيقى. وكــان جلد هذا الكتــاب الأحمر مجعـدًا من الاستعمال، وكان المواطن «بروتو» قـد كشط بحذر شعارات النبالة الذهبيـة الثلاث، التى اشـتراها أبوه الجابى بمبلغ كبير من المال .

فتح «بروتو» كتــابه على الموضـع المذكـور حيث الشــاعر الفيلســوف، الذى يريد أن يشـفـى الناس باضطرابات الحب ، بلا جـــدوى، فيُفَـــاجأ بامرأة بين ذراعى واحدٍ من الخدم فى حالة تسئ إلى كل حواس الحبيب .

ويقرأ المواطن «بروتو» أبياتَ الشـعــر هذه ، ولكن مع ذلك لا يفوته أن يُلقى نظرةً على عُنق جــارتــه الجميلة، وأن يستنشقَ بشـهـوة تلك البَشَرة الرطبة لهذه الفتاة الصغيرة .

الشــاعر «لوكـريس» لم يكن لديه ســوى الحكمة، وتلميـذه «بروتو» عنده منها الكثير .

كان يقــرأ ، ويخطو خطوتين كل ربع ساعة. وأُذنه تتمتع بالإيقــاعات الوقورة والمتعددة للشـعــر اللاتينى. وتطرق أُذُنه صرخاتُ الثرثارات عن

---

(١) لوكريس : شاعر لاتينى ، توفى سنة ٥٣ ق . م .

غلاء الخبز، والسكر، والبُنِّ، والشمع، والصابون . وهكذا وَصَلَ فى هدوء إلى عتبة المخبز، ومن خلفه «إيفاريست جاميلان» يرى فوق رأسه الحزمة الذهبية على الشبكة الحديدية التى تغلق جبهة الباب .

وجاء دوره، كانت سلال وأرفف الخبز خاوية، وسَلَّمَهُ الخباز آخر رغيف تَبَقَّى، والذى لا يزن رطلين. دفع «إيفاريست» المطلوب ، وأُغلق «الشِّبَّاكُ» على إثْرِهِ خوفًا من أن تهجم الجماهير الصاخبة على المخبز، ولكن لم يكن هناك ما يخشى عليه فهؤلاء الناس المساكين، جُبِلُوا على الطاعة بواسطة قامعيهم (ظالميهم) القدامى، وبواسطة محرريهم الجدد، ومن ثم ظلوا على حالهم، مُطأطئى الرءوس يُجرْجرون أرجلهم زاحفين .

عندما وصل «جاميلان» إلى منعطف الطريق رأى المواطنة «ديمونتاى» جالسة على قارعة الطريق وطفلها بين ذراعيها ، كانت جالسة جامدة شاحبة جافة الدمع، شاخصة البصر ، وطفلها يرضع إصبعها بنهم . وقف «جاميلان» أمامها لحظةً خجلانَ مترددًا ، وكان يبدو عليها أنها لا تراه .

تمتم ببعض الكلمات، ثم أخرج مُدْيته من جيبه، سكينة بِقَرْنٍ ، وقطع خبزه واقتسمه مع المواطنة «ديمونتاى»، واضعًا نصيبها على ركبتى الأم الصغيرة، التى نظرت إليه فى دهشة، ولكنه كان وقتئذ قد تجاوز منعطف الطريق .

وعندما وصل إلى مسكنه وجد والدته جالسة إلى النافذة ، كانت تُرتِّق بعض الجوارب، ووضع بين يديها ما تبقى معه من الخبز وهو سعيد بذلك ، وقال :

– سامحيني يا أمى الطيبة، فإننى كنتُ متعبًا ، حيث وقفتُ طويلاً ، وأرهقنى الحرُّ الشديد فى الطريق، وعند عودتى إلى المنزل أكلت نصف الخبز لقمةً لقمةً ، وتبقَّى بالكاد نصيبك .

وتظاهر بأنه ينظف « جاكتته » من أَثَرِ الفُتات المتناثر عليها .


3

3

قـالت المواطنة الأرملة «جـاميـلان» مستخدمـة طريقـة قديمة فى التعبير : «مِنْ فَرْط ما نأكل القَسْطَل سوف نتحول إلى قسطل». فى هذا اليـوم الموافق ١٣ يوليـو، كـانت هى وابنها يتناولان حساء القسطل، ولما انتهيا من هذه الوجبة القاسية دَفَعَتْ سَيِّدَةٌ الباب فجأة، وملأت المكان بتألقها وبعطرها. ويعرف «إيفاريست» أنها المواطنة «روشيمور» (١).

اعتقـد أنها أخطأت البـاب، وأنها تقصـد المواطن «بروتو» صـديقها القـديم. وفكر فى أن يدلها على المخزن المواجـه، أو يستـدعى «بروتو» من أجلها ويُجنِّب المرأة الأنيقة أن تتسلق سلم الطحان، ولكن يبدو من البداية أنها كـانت تقصـد المواطن «إيفاريست جـاميـلان» فى عمل، لأنها أخبرته بأنها سعيدة بأنها قابلته وتُدعى إلى مائدته .

لم يكونا غـريبين عن بعضهما : لقـد تقـابلا عـدة مـرات فى مـرسم «دافيد»، وفى إحـدى منصات الجمعيـة، وعند اليعقوبيين، وعند صـاحب المطعم فينوا، لقد لفت انتباهها بجماله، وبشبابه، ومظهره الجاد .

(١) الكونتيسة دى روشيمور : شخصية تمثل اللاوعى واللاصـلابة لسيدات المجتمع فى فـرنسا فى العهد القديم .

كان يرتدى قبعة مُـزينة بشريط مثل زمارة القصب، ومزينة بالريش مثل أحد النواب فى مهمة، وكـانت المواطنة «روشيمور» تضع على رأسـها «باروكة» مستعارة، مُخضَّبة، ومُـرَقَّشة، مُمَسَّكة،بعطر المِسْك ، والجسد أيضًـا كـــان بَضًّــا، يغطيــه الكثير من التكلف والتصنــع.. هذه الأشيــاء الصناعية الصــارخة من أجل الموضة كانت تُشــوه النمط السريع للحياة، وحُمَّى هذه الأيام الرهيبة التى لا نضمن فيها بزوغ يوم جديد .

وكانت ترتدى ثوبًا عريضَ الرفـارف ، طويل الذيل ، يضوى لكثرة ما فيه من أزرار كبيرة مصنوعـةِ من الفولاذ الأحمر القـانى فى آنٍ واحد ، إذ كانت تتزين بثوب يتميز بألوان الضحـايا وبألوان الجلاد .

وكان يرافقها أحد الشبان العسكريين، جندى فارسٌ ، وكانت مُمسكة العصا الصدف الطـويلة فى يدها، وهى طويلة وجميلة وممتلئة، وصدرها عـريض.. وقـامت بجولة فى المرسم، كـانت تقـرِّب نظارتها الذهبيـة من عينيهـا الرماديتين، تتفحـص لوحات الرســام وهى تبتسم، وتتصــايح إعجابًا بجمال الفنان، وتُطريه ليمدَحَها . وتسـأل المواطنة :

– مــا هذه اللوحــة النبيلة والمؤثـرة فى القلب.. امــرأة رقيقـة وجميلة بالقرب من شـاب مريض ؟

أجاب جـاميلان بأنها يجب أن ترى فيــه «أوريست»، ترعــاه شقيقته «إليكترا»، وأنه إذا استطاع إتمامها فربما كانت أقل أعماله رداءة .

وأضــاف : إن الموضوع مأخـوذ عن «أوريست» للكاتب «يوريبيـد».

وكنتُ قـرأتُ، فى ترجمة قـديمـة لهذه المأسـاة مشـهـدًا قـد أثر فىّ، وأثار إعجابى، وهو يصـور «إليكترا» الشـابة وهـى ترفـع شقيقها على فراشه من الألم الذى يُحسـه، وتجفف الرغـاوى التى تلطخ فمه، وتُبعـد عن عينيـه الشعر الذى يخفيهما، وترجو أخاها العزيز أن يُصغى إلى ما سوف تقوله له فى صمت آلهة العذاب .... وعندما قـرأتُ هذه الترجمة، وأعدتُ قراءتها، شعرت كأن غشاوة حجبت عنى الأشكال أو الصُّـوَر اليونانية، وأننى لم أستطع أن أبددها .

لقد تصورتُ النص الأصلى أكثـر عصبية، وله نمط آخر . وتأجَّجت فى نفسى رغبـة أن صنع منها فكرة صحيحـة، وطلبت من الأسـتـاذ «جيل» الذى كان يُدَرِّس اللغـة اليونانية فى ذلك الـوقت فى «الكوليج دى فرانس» (وكان ذلك فى عام ١٧٩١)، أن يشرح لى هذا المشـهـد كلمة كلمة ويوضحه لى كما طلبت منه. رأيت أن القدمـاء كانوا أكثر بساطة وأكثـر أُلفة مما كنا نتصور .

وإليكِ ما قـالته «إليكترا» إلى «أوريست» : «أخى العـزيز، كم أن نومك يسعـدنى ! هل تريد أن أسـاعـدك لتنهض ؟». وأجـاب أوريست : «نعم، ساعـدينى، خذينى، جففى هذه البقـايا من الرغاوى حـول فمى وعَيْنَىَّ. وضعى صـدرك على صدرى، وأزيحى عن وجهـى شعرى المعقـد ، لأنه يحجب عينى ...».

وبناء على هـذا الشِّعْـر الجميل القـوى والمؤثـر، وهذه التعبيرات الساذجة، رسمتُ خطوط هذه اللوحة التى ترينها أيتها المواطنة .

هذا الرسـام الذى عـادة ما نتحـدث عن أعماله باختصـار لم ينضب حديثه عن هذه اللوحة، وقـد شـجعه على ذلك إشارة صدرت من المواطنة «روشيمور» عندما خلعت نظارتها ، فاستطرد قائلًا :

– اختار «هانيكان» أساسًا مخاوف «أوريست»، ولكن «أوريست» أَثَّر فينا بأحزانه أكثـر مما أَثَّرَ فينا بمخاوفـه. ويالمصيره ! كان ذلك عن حب الوالدين، وعن طاعةٍ للقوانين المقـدسة ارتكب هذه الجريمة، التى لابد أن الآلهة تسـامحه فى ارتكابها، ولكن الناس لـن يسـامحوه أبدًا . وقـد أنكر الطبيعة لينتقم من أجل العـدالة المُهانة، وجعل من نفسه وحشًـا، وانتزع أحشاءه بنفسـه، وظل فخورًا تحت وطأة الجُرْم الشنيع والفـاضل الذى ارتكبه... هذا ما كنت أريد أن أوضحه بالنسبة لهذه اللوحة للأخ والأخت.

ثم اقترب من اللوحة ونظر إليها بإعجاب ، وقال :

– لقد فـرغْتُ من بعض الأجزاء تقريبا، كـرأس «أوريست» وذراعيه، على سبيل المثال .

● إنها قطعـة تُثير الإعجـاب ... و «أوريسـت» يُشبهك، أيها المواطن «جاميلان».

– هل لاَحَظْتِ ذلك ؟ قالها بابتسامة وقورة .

وتناولت المقعـد الذى قدَّمـه إليها «جـاميلان» وظل الجندى الفـارس واقفًا إلى جانبها، ويده على مسند المقعد حيث كانت جالسة، ومن ثم يمكن للمـرء أن يعرف أن الثـورة كانت قـائمـة ، ففى العهد القـديم لم يكن فى

استطاعة أى رجل فى معية امرأة أن يلمس - ولو بأصبعه - أى مقعد تجلس عليه، ذلك ما تفرضه التربية الصارمة لمتطلبات الأدب ...

كانت «لويز ماشيه دى روشيمور» ابنة أحد ضباط الصيد عند الملك، وأرملة أحد النواب، وصديقة حميمة لمدة عشرين عام لجابى الضرائب «بروتو ديزيليت»، وقد اندمجت مع المبادئ الجدديدة. وشوهدت فى عام ١٧٩٠ - فى شهر يوليو - تحرث أرض حقل «شامب دى مارس».

ومع أن نزوعها الحازم من أجل السلطات قد نَقَلَهَا بسهولة من «الرهبان» إلى «الجيروندان» وإلى الجباليين (المنشقين)، فإن روح المصالحة، وحرارة المعانقة، وقدرة الكيد يجعلونها تنتمى أيضًا إلى الأرستقراطيين، وإلى المناهضين للثورة.

كانت شخصية لها صيت كبير جدًّا، حيث كانت تتردَّدُ على الحانات، والمسارح، والمطاعم، والبيوت المشبوهة، والصالونات، ومكاتب الصحف، وغرف انتظار اللِّجان. وقد كانت الثورة تأتيها بالطرائف واللهو، والابتسام والسرور، والمعاملات المثمرة .. وكانت لها مغامرات سياسية وغرامية، وتلعب على القيثارة، وترسم مناظر طبيعية، وتتغنى بالأغانى العاطفية، وترقص الرقصات اليونانية، وتقيم ولائم للعشاء، وتستقبل سيدات جميلات، مثل «الكونيسة دى بوفور»، والممثلة «ديكوان»، وتقضى طوال الليل جالسة إلى الطاولة وهى فى أبهى ثيابها، ومنضبطة، تحيا حياة كلها مغامرات، وكذلك يتوافر لها الوقت لكى تكون شفوقة نحو أصدقائها.

وكانت فضولية، تُحب التحرك، مربكة، عابثة، عارفة بالرجال، جاهلة بالعامة .. والآراء التى تتقاسمها مثل الآراء التى يجب أن ترفضها، ولاتفهم شيئًا مطلقًا عَمَّا يجرى فى فرنسا، وتبدو جريئة ، صعبة المراس، وتتمتع بمهارة فائقة فى تجاهل الأخطار، وبثقة لا حَدَّ لها فى تأثير مفاتنها.

كان الجندى الذى يصطحبها فى زهرة شبابه. وكانت خوذته من النحاس، مزينة ومبطنة بجلد الفهد ، وينسدل على ظهره شعر غزير مثل عرف الخيل . والجاكت الذى يرتديه كان أحمر اللون، على شكل صديرية، يحرص على أن يكون واصلا حتى الحقو، حتى لا تخفى أناقته الانحناءة . وكان يتمنطق بسيف طويل، تشبه قبضته منقار الصقر، وكانت تبدو متألقة. ويرتدى سروالًا بشريط أزرق خفيف ، يضم العضلات الأنيقة لساقيه، وشرائطَ مضفرة لونها أزرق قاتم، مرسوم عليه زخارف عربية على فخذيه . كان يبدو عليه مظهر راقص يرتدى زيًّا خاصًّا يصلح لتمثيل دور عسكرى أنيق، فى قصة «أشيل بسيروس»(١)، أو «أفراح الإسكندر»، لأحد تلاميذ «دافيد»، الحريص على تضييق الشكل.

اختلط الشَّبَهُ على «جاميلان»، وتَذَكَّرَ أنه رأى هذا الجندى من قبل منذ خمسة عشر يومًا، كان يخطب فى الناس عند منصات مسرح الأمة .

قدمته المواطنة «روشيمور» بِاسْمِهِ قائلة :

---

(١) أشيل : أحد أبطال الإلياذة . وسيروس : من جزائر بحر إيجة .

– «المواطن «هنرى» عضو اللجنة الثورية لقطاع حقوق الإنسان».
كانت متعلقة به دائمًا، كمرآة للحب، وشهادة حُبٍّ للوطنية .

أشادت المواطنة بجاميلان ومواهبه، وسألته عَمَّا إذا كان يوافق على أن يرسم لوحة لإحدى بائعات القبعات يهمها أمرها. كان سيختار لها موضوعًا خاصًّا : امرأة تقيس إيشاربًا أمام مرآة، على سبيل المثال ، أو عاملة صغيرة تحمل تحت إبطها علبة بها قبعات .

ولما كانوا قادرين على تنفيذ مثل هذا العمل الفنى البسيط من هذا النوع، حدثوها عن «ابن فراجونارد»، وعن الصغير «دوسى» وكذلك المدعو «برودوم»، ولكنها فضَّلتْ مخاطبة المواطن «إيفاريست جاميلان».. ومع ذلك فهى لم تنته إلى شىء فيما يتعلق بهذا الموضوع، ويبدو أنها قد طلبت هذا الطلب فقط لتخوض فى المناقشة، ولكنها فى الواقع جاءت من أجل أَمْرٍ آخر تمامًا، فقد طالبت المواطن «جاميلان» بخدمة هامة لأنها كانت تعرف أنه على علاقة بالمواطن «مارات»، وكانت تريد أن يُدخلها عند « صديق الشعب »، حيث تريد أن تتحدث معه .

أجابها «جاميلان» بأنه شخصية صغيرة لا يستطيع تقديمها إلى «مارات»، وأن «مارات»، بالرغم من أنه يرزح تحت عبء المشاغل، فهو ليس الرجل الذى يرفض مقابلة أحد .

وأضاف «جاميلان» :

– سوف يستقبلك أيتها المواطنة لو كنت بائسة، لأن قلبه الكبير يجعله

حفيًّا بعاثر الحظ، ورحيمًا بكل من يتألم، سوف يستقبلك لو كان لديك ما يتعلق بأمان الشعب.. لقد كرس حياته لإماطة اللثام عن الخونة .

أجابت المواطنة «روشيمور» بأنها ستسعد بأن تُحَيِّى فى «مارات» وطنيًّا شريفًا قدم للبلد خدمات جليلة، وهو جدير بأن يقدم أكثر من هذا أيضًا، وأنها تتمنى أن تقدم هذا المُشَرِّعَ إلى بعض الرجال المرموقين، محُبِّى الإنسانية، والخيِّرين الذين لديهم الثروة، وهم جديرون بأن يمولوه بإمكانيات جديدة ليُشفى غُلَّة حبه الملتهب للبشرية.

وأضافت : إنه من المرغوب فيه أن يساعد الأثرياء فى تحقيق رفاهية الشعب .

حقًّا ، لقد وعدن المواطنة الممول البنكى «مورهاردت» أن تجعله يتناول العشاء مع «مارات».

وكان «مورهاردت» سويسريًّا مثل صديق الشعب، وكان مرتبطًا بالعمل مع كثير من النواب فى الجمعية الوطنية، «جوليان»[1] (من تولوز) و «ديلوناى» من (أبجير) والكابوش السابق «كابو»[2] ليتنافسوا على أسهم شركة الهند .

فالعملية غاية فى البساطة، تقوم على أساس أن يرسو سعر هذه الأسهم على ٦٥٠ جنيهًا بالتلاعب حتى يمكن شراء عدد كبير منها بهذا

---

(١) جوليان : راعٍ من تولوز. متهم فى قضية شركة الهند. نجح فى الاختفاء حتى الثيرميدور .

(٢) كابو ، فرانسوا : كابوش سابق، انضم إلى المؤسسة المدنية للأكليروس. تم انتخابه فى الجمعية التشريعية. وطالب بسقوط الملك. لم يقاوم مذبحة سبتمبر. مشتبه فيه هو والبارون باتز، تم إعدامه بالمقصلة فى الرابع من أبريل ١٧٩٤ مع دانتون وأصدقائه.

السعر، على أن يـرفع السعر بعد ذلـك إلى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جنيه بحوافز مُطَمْئِنة .

ولكن «كـابو» و «جـوليان» و «ديلوناى» اكتشف أمـرهم . وحـامت الشبهات حول «لاكِرْوَا»(١) و «فابر ديجلانتين»، وحتى «دانتون». وكان الممول البنكى «البـارون دى باتز»(٢) يبحث عن شركاء جُـدُد فى الجمعية الوطنية، فنصح الممول البنكى «مورهاردت» بأن يقابل «مارات».

لم تكن فكرة المضـاربين بالأسهـم الماليـة للمناهضـين اللاثوريين، لم تكن غريبة كما كانت تبدو فى البداية، فدائمًا هؤلاء الناس يجتهدون فى أن يجتمعوا بالسلطات الجديدة، و «مـارات» بشعبيته، وبقلمه، وبأخـلاقه، كان سلطة تثير الإعجاب .

وكان الجيروندان يضمحلون، وأنصار «دانتـون» هزمتهم العاصفة، ولن يحكمـوا أبـدًا. وكـان «روبسبير» معبـودَ الشعب، تقيًّـــا ، وغيـورًا وشكَّاكًـــا ، وغيرَ مندفع . وكـــانت الضرورة تقضى بأن يُحَاط بمارات، والتأكد من رفقه بالنسبة إلى اليوم الذى قد يصبح فيه ديكتاتورًا ، والكل يتكهن بأنــه سيكون جبـــارًا وطاغيـــة فى يوم من الأيـام ، يدل على ذلك

---

(١) دى لاكـروا، جان فـرانسو: محام منتخب فى الجمعيـة التشريعية وفى الجمعيـة الوطنية، صـديق دانتـــون . معـــارض لروبيسبير بشـــدة. عضـــو فى لجنة أمن الشعب، هاجـم الجيروندان. متهم بالإخـــلال «بأمانة الوظيفة»، وبإصدار نقود مزيفة، إلخ... مات مع دانتون فى الخامس من أبريل ١٧٩٤ .

(٢) البارون دى باتز : نائب عن الولايات ، ومنافس مجازف ، كان يحاول إنقاذ الملك وأن يُهرب الملكة، ويبدو أنه دفع كابو وديلوناى وجوليان دى تولوز إلى المزايدات على الأسهم التابعة لشركة الهند . نجح فى الإفلات من المقصلة .

شعبيته، وطموحه، والمسارعة للتحكم فى أقوى الموارد. وربما بعد كل ذلك يؤسس «مارات» النظام ويصلح المالية، وينشر الرفاهية . وقد ثار «مارات» عدة مرات ضد الحمقى الذين يزايدون عليه بالوطنية، ولم ينفك منذ زمنٍ أن حَذَّر المشاغبين بنفس الدرجة تقريبًا التى حذر بها المعتدلين. وبعد أن أثار الشعب لشنق الذين يحتكرون أقوات الشعب فى حوانيتهم المنهوبة، وحض المواطنين على الهدوء والحذر، أصبح رجل حكومة .

وبالرغم من بعض الشائعات التى تدور حوله، كما كانت تدور حول جميع رجال الثورة فإن هؤلاء المتطفلين لا يعتقدون أنه مُرْتَشٍ، ولكنهم يعرفون أنه مُتَبَاهٍ، وسريع التصديق، ويتعشمون أن يكسبوه بالإطراء والمديح، وخاصة بأُلفة متسامحة، والتى يعتقدون من ناحيتهم أنها من أفضل الإطراء الخادع، ويحسبون أنهم بفضل ذلك سوف يلعبون على الوجهين، ساعة معه، وساعة عليه، وينالون ما يرمون إليه من بيع وشراء كُلَّ ما يريدون، ويدفعونه إلى خدمة مصالحهم، ظنًّا منه أنهم لا يعملون إلَّا لصالح الشعب .

المواطنة «روشيمور» ماهرة فى تهيئة الأجواء، خاصة وهى لا تزال فى سن الحب والغراميات، فاضطلعت بمهمة الجمع بين الصحفى والعضو فى الهيئة التشريعية، وبين الممول البنكى، وتصورها الجنونى قَدَّمَ لها رجلَ أموال المقامرة الذى لا تزال يداه مخضبتين بدماء شهر سبتمبر، مشتركًا فى حزب الماليين، حيث تعتبر هى وكيلة لهم . وألقت بحساسيتها وبراءتها فى خضم هذه الأعمال المالية المربحة فى هذا العالم الذى تحبه :

عــالم المحتكرين، والممــولين، والمبعـوثين من الخارج، والمشـــاركين فى المشروع، وذوات الدَّلال المتحذلقات .

أصرت على أن يصطحبهــا المواطن «جاميــلان» عند صــديق الشعب ، الذى يقيم غير بعيد فى شارع كورديلييه، بالقرب من الكنيسة.

وبعد أن أبدى بعض المقاومة أذعن الرسام لرغبة المواطنة .

أمَّــا «هنرى» الجندى الفــارس فقـد دُعِـىَ للانضمام إليهما، ولكنه يرفض راغبًا فى المحافظة على حريته، حتى حيال المواطن «مارات» الذى - بلا مراء - قَدَّمَ خدمات إلى الجمهورية، ولكنه الآن قد وهنت عزيمته، أفلم يُشِرْ على شعب باريس بالانقياد ؟

ويرثى الشــــاب «هنرى» - بصـــوت منغم وبتنهيــــدات طويلة - الجمهـورية التى خانها مَنْ عَلَّقـت عليهم آمالها ، «دانتـون» رفض فكرة الضريبـة على الأغنيـاء ، و «روبيسبير» يعارض الدوائـر ، و «مـارات» ، نصائحه الجبانة كانت تحطم حماس المواطنين .

- صاح «هنرى» : أوه ! يالضعف هؤلاء الرجــال حيال «لوكلير»(١)، و«جــاك رو»(٢)! إنهما - «لوكلير» و «جــاك رو» - صـــديقــا الشعب

---

(١) لوكلير : استبعده اليعقوبيـون لتطرفه، وانتقل إلى الرهبان الفرنسيسكـان، ونادى بنفسه خليفة لمارات .

(٢) جاك رو : كاهن صــدر ضده حكم يُحرِّم عليه ممارسة وظيفته . وهو أحـد أعضاء مجلس العموم الأشد عنفًا، فقـد رفض طلبهم بأن يقوم بإعدام لويس الســادس عشر وقال : «إننى هنا فقط لكى أصطحبكم إلى المشنقة » . وعندما أُرسِل إلى محكمة الثورة فى سبتمبر ١٧٩٣ ، طعن نفسه .

الحقيقيان ! «جاميلان» لم يسمع هذا الحديث، الذى قد يجعله ناقمًا، كان قد ذهب إلى الغرفة المجاورة لكى يرتدى زيه الأزرق .

قالت المواطنة «روشيمور» للمواطنة جاميلان : «لَكِ أن تتفاخرى بولدك، إنه عظيم بموهبته وبأخلاقه ».

وتجيب المواطنة الأرملة جاميلان بشهادة طيبة عن ابنها دون كبرياء أمام سيدة كريمة المحتد، لأنها تعلمت منذ طفولتها أن أول واجبٍ للصغار هو التواضع نحو الكبار . وقد كانت ميالة إلى الشكوى، وكانت تجعل من شكواها موضوعها الرئيسى، لأنها تجد فى شكواها مواساة لآلامها . وتكثر من شكواها أمام هؤلاء الذين تعتقد أنهم قادرون على مواساتها، ومدام «دى روشيمور»، تظن أنها من ضمن هؤلاء . لقد استثمرت اللحظة المواتية؛ قصت فى نَفَسٍ واحد بؤس الأم والابن، والاثنان يتضوران جوعًا، حيث لا تُباع أى لوحات، فالثورة قضت على التجارة، كأنها ذبحتها بسكين. والمواد الغذائية أصبحت نادرة، والأسعار ليست فى متناول الأفراد ...

وتتمادى السيدة الطيبة فى شكواها بكل زلاقة اللسان من شفتيها اللينَتَيْنِ، حتى تستطيع أن تقول كل ما لديها بسرعة قبل أن يظهر ابنها الذى يمنعه دائمًا كبرياؤه عن أى شكوى .

وكانت تحاول جاهدة فى أقصر وقت ممكن أن تؤثر فى سيدة ترى أنها ثرية ومرموقة، وتجعلها تهتم بمصير ابنها. وكانت تشعر بأن جمال «إيفاريست» يلعب دورًا كبيرًا ليجذب حنان امرأة كريمة الأصل .

وفى الواقع أبدت المواطنة «روشيمور» تأثرها ، فقد تأثرت بفكرة آلام «إيفـــاريست» ووالدته، وبحثت عن الـوســائل التـى تخفف هذه الآلام، وعملت على شراء أعمال الرسام عن طريق بعض أصدقائها الأثرياء .

وقالت وهى تبتسم : إنه توجد فى فرنسا أموال لا تزال مخبوءة .

وأفضل من ذلك أيضًــا (نظرًا لأن سوق الفن قـد كَسَد)، فهى ستجـد عملاً من أجل «إيفاريست» عنـد «مورهاردت» أو عند الإخوة بيريجو، أو وظيفة حكوميــة عند أحد ممولى الأسلحــة. ثم فكرت فى أن ذلك لا يناسب رجــلاً يتمتع بهذه الأخلاق، وبعـد لحظة إمعـان فى الفكر، صدرت منهــا حركة بأنها وجدت الحل :

– بَقِى تعيين الكثير من المحلفين فى محكمــة الثــورة. يُعَيَّن مُحلَّفًــا أو قَـاضيًــا، هذا هو الذى ينـاسب وَلَدِك. إننى على صلة مع أعضــــاء لجنة الخلاص الشعبى، وأعرف روبسبير البكرى، فأخوه يتناول العشاء دائمًا عندى. ســـوف أُكلمهم فى الأمـــر ، وسأتكلم مع كـل مـونتــانيــه(١)، وديماس(٢)، وفوكييه(٣) .

وهنا بَدَت المواطنة جـاميـلان متــأثرة ومعترفـة بالجميل، ووضعت

---

(١) مونتانيه : قاضٍ من تولوز ، وأول رئيس لمحكمة الثورة، طُرِدَ بسبب « اعتداله » .

(٢) ديماس، رينيه فـرانسو: كـاهن سابق ، ومحام فى حماية روبسبير، ونائب رئيس محكمـة الثورة التى رأسها اعتبارًا من الثامن من أبريل ١٧٩٤، يتمثـل فيه التعصب الذى وصفه أناتول فرانس. تم إعدامه بالمقصلة هو وروبسبير فى الثامن والعشرين من يوليو ١٧٩٤ .

(٣) فـوكييه – تانفيل : عُين مـدعيًا عـامًـا فى محكمة الثـورة فى مارس ١٧٩٣، وصحبـه روبسبير إلى المقصلة .

أُصبعها على فمها كإشارة للتوقف عن الكلام، فقد عَادَ «إيفاريست» إلى المرسم .

نزل «إيفاريست» والمواطنة «روشيمور» على السلم المظلم ، كانت درجاته الخشبية والكاروهات، مغطاة بقذارة قديمة .

وعلى «البون –نوف» – وكانت الشمس غائمة – كانت تمتد الظلال على قاعدة تمثال لحصانٍ برونزى، وتُزينه الآن أعلام الأمة، وكان هناك جمع غفير من الناس رجال ونساء يستمعون، كانت كل مجموعة صغيرة على حدة، كانوا يستمعون إلى مواطنين يتحدثون بصوت منخفض .

وكان الجَمْعُ واجمًا ، يلتزم الصمت، الذى يتخلله على فترات أَنَّات وصيحات غضب، وكثير منهم كان يسرع الخُطَى نحو الطريق، شارع ثيونفيل، (شارع دوفين سابقاً)، وينساب «جاميلان» بين إحدى هذه الجماعات، فقد سمع أن «مارات» قد اُغتيل منذ قليل .

وريدًا رويدًا كان النبأ يتأكد ويتحدد، فقد اُغتيل فى مقصورته، على يد سيدة جاءت متعمدةً قتله من «كان»(١). البعض يعتقد أنها هربت، ولكن الأغلبية تقول إنها اعتُقِلَتْ .

كانوا هناك جميعًا، كأنهم قطيع لا رَاعِىَ له. وكان الجَمْعُ يقولون :

«إن «مارات» إنسان حَنُونٌ، وخَيِّرٌ.. «مارات» لن يقودنا بعد ، وهو الذى لم يخطىء قط ، وكان يتوقع كل شىء، وكان يجرؤ على أن يُظهر

---

(١) « كان » : إحدى المدن الفرنسية .

كل شىء !.... ما العمل ؟ وما الحيلة ؟ لقد فقدنا مستشارنا، والمُدافِعُ عنا، وصديقنا ». إنهم يعرفون من أين جاءت الضربة، ومن الذى صَوَّبَ ذراع المرأة. إنهم يتألمون.. ويقول الجمهور:

- إن الأيدى الآثمة التى ضربت «مارات» هى نفسها التى تريد أن تقضى علينا . إن موته علامة لذبح جميع الوطنيين .

اختلفت التقارير حول ظروف هذا الموت المأساوى، وآخِر كلمات الضحية، وجرت التساؤلات حول القاتلة، التى لا يُعرف عنها سوى أنها سيدة شابة أرسلها الخونة الفيدراليون.

أَمَّا المواطنات فقد كَشَّرن عن أنيابهن، وأبرزن مخالبهن من مكامنها، وتَوَّعَدْنَ المجرمة بالتعذيب، ووجدن أن المقصلة بالنسبة لها رقيقة ليِّنة، فطالبن بِجَلْد هذه الغولة الآثمة، ورَبْطها فى عجلة التعذيب والتمزيق، وتخيلن شتى ألوان التعذيب .

وكان بعض أفراد الحرس الوطنى المسلحون يسحبون إلى القطاع رجلاً يبدو عليه مظهر الواثق. كانت ملابسه مُمَزَّقة، وتسيل الدماء خطوطًا على وجهه الشاحب، فقد فَاجَئُوهُ وهو يقول إن «مارات» يستحق المصير الذى آل أليه بتحريضه دائمًا على السلب والنهب والقتل. وبصعوبة بالغة تمكن جنود الحرس الوطنى من انتشاله من بين براثن الشعب الغاضب.. وكانت تشير إليه أصابع الاتهام بأنه متواطئ مع القاتلة. وارتفعت صيحات التنديد والتهديد بالموت عند مروره .

ظل «جـــاميــلان» يتملكه الغيظ والألم، وجفـت دمـوعـــه فى مقلتيـه المتقـــدتين، وامتــزجت آلامـــه البنوية مع الحماس الوطنى والإصـــلاح الشعبى ليمزقوه داخليًّا، وكان يفكر :

«.. «مــارات» بعـد «لوبيلتييـه»، وبعـد «بوردون»[1]!... كنت أعـرف مصـير الوطنيين الذين ذُبِحوا ففى «شــاى دى مارس»، وفى «نانسى» وفى «باريس».. لقد هلكوا جميعا !».

وكان يفكر فى الخائن «ويمبفين»[2] الذى كـان منذ عهد قريـب أيضًـا على رأس حشد فوضوى يبلغ ستين ألفًا من الملكيين ساروا نحو باريس، والذى لولا أن أُلقى القبض عليه فى «فيرنــون» بأيدى الوطنيين الشجعان، لكان أشعل الفتنة فى المدينة الباسلة والمنيعة .

وكم من الأخطار أيضًـا كَشَفَها «مارات»، وكم من مشروعات إجرامية وخيانات، لا يمكن إلا لِحِكْمَـة ويقظة «مارات» معـرفتها وإحبـاطها ! من يستطيع من بعده أن يتعرض إلى «كـوستين»، العاطل فى معسكر سيزار، والذى يرفض فك الحصـــار عن «فــانسيان»، أو «بيرون» الكســول[3] فى فــانديه – السفلى، تركـه يستـــولى على «ســومـــور» ويحاصر «نانت»، و«ديلون»[4] الخائن للوطن فى «آرجون»؟...

---

(١) بوردون ، ليونارد : محامٍ وخطيب، ومنتخب فى الجمعية الوطنية عن لواريه . ساهم فى الثيرميدور التاسع .

(٢) ويمبفين : قائد فرنسى ، ولد سنة ١٧٤٤ ، ومات سنة ١٨١٤ .

(٣) « بيرون » : قائد فرنسى ، قُطع رأسه سنة ١٧٩٣ .

(٤) « ديلون » : قائد ولد فى دبلن سنة ١٧٤٥ ، وخدم فى فرنسا .

وعندئذ يزداد الصراخ من حوله، من لحظة إلى أخرى، ويتعالى الهتاف المشئوم :

– مات «مارات»، قتله الأرستقراطيون !

وبينما كان القلب مفعمًا بالألم والبغض والصبابة ذَهَبَ لتأبين شهيد الحرية، واقتربت منه فلاحة عجوز ترتدى غطاء رأس لِيمُوزَنِيٍّ(١)، وسألته عَمَّا إذا كان السيد «مارات» الذى أُغتيل، أليس هو السيد «مارات» القس، من «سان بيير – دى – كاى روا »؟...

* * *

فى اليوم السابق للعيد ، ذات مساء هادئ ومضئ، كانت «إيلودى» متأبطة ذراع «إيفاريست» يتنزهان فى ميدان الفيديراسيون، (أى ميدان الاتحاد الفيدرالى).

وكان عمال ينجزون على عَجَلَةٍ منهم إقامة أعمدة، وتماثيل، ومعابد، وجبل، وكنيسة. وتُنْصب رموزٌ عملاقة، هيرقل شعبى يلوح بهراوته، والطبيعة ترضع الكون من ضرعها الذى لا ينضب.. كانت هذه الرمزيات منتصبة فى العاصمة التى صارت فجأة فريسة للمجاعة وللإرهاب، وكأن أهلها يُنصتون لسماع المدافع النمساوية فى طريق «الْمو»(٢).

وعوَّضت «الفاندية» فشلها أمام «نانت» بانتصارات باسلة، دائرة من السيوف والنيران ومن الغضب تحيط بالمدينة العظيمة الثائرة، وعلاوة

(١) نسبة إلى «ليموزن» بلد فى فرنسا .
(٢) الْـمُو : مدينة فرنسية صغيرة .

على ذلك كانت تستقبل بعظمة نواب الجمعيات الأولية الذين تقبلوا الدستور ، وكان الاتحاد الفيدرالى قد هزم ، وستهزم الجمهورية الواحدة التى لاتتجزأ جميع أعدائها .

ويقول «إيفاريست» باسطًا ذراعيه على السهل المزدحم :

– «هنالك، فى ١٧ يوليو ١٧٩١ أطلق «بايى» الخائن النار على الشعب عند سفح كنيسة الوطن . وكان المدعو «باسافان» – رامى القنابل اليدوية – شاهدًا على المذبحة، وعندما عاد إلى منزله مَزَّقَ ملابسه وصاح: «لقد أقسمتُ أن أموت مع الحرية، ولكنها ليست حرية أبدًا ، لابد أن أموت»، وأطلق الرصاص على رأسه .

وبعد ذلك، قام الفنانون والبورجوازيون، فى هدوء، بفحص استعدادات العيد، يُقْرَأ على وجوههم حب الحياة النكدة كحياتهم أنفسهم: إن أعظم الأحداث عندما تدخل فى فكرهم، تنتقص من حجمها، وتصبح تافهة مثلهم. وكان كل زوجين يسيران يحملان بين ذراعيهما، أو يجران خلفهما، أو يجرى أمامهما أطفال لم يكونوا على درجة كبيرة من الجمال مثل والديهم، ولا يُـؤْمَل بأن يكونوا أكثر سعادة، والذين سيهبون الحياة لأطفال آخرين على درجة متوسطة مثلهم من البهجة والجمال . وأحيانًا نَرَى فتاةً طويلة وجميلة والتى توحى فى مرورها أمام الشباب برغبة عظيمة، وللعواجيز بأسفٍ على الحياة الجميلة ».

وبالقرب من المدرسة العسكرية، أشار «إيفاريست» لإيلودى إلى

تماثيل مصرية رسمها «دافيد» تبعًا لنماذج رومانية من عهد «أغسطس».. وهنالك يسمعان عجوزًا باريسيًا مُعَفَّرًا يصيح :

– إن المرء ليظن نفسه على ضِفَاف النيل !

«إيلودى» لم تر صديقها منذ ثلاثة أيام، فقد تعرض متجر «لامور بانتر» إلى أحداث هامة. استُدعى المواطن «بلين» إلى لجنة الأمن العام من أجل غش الواردات.. ولحُسن الحظ، أن تاجر «الرشم»[1] كان معروفًا فى قطاعه، فأُطلِق سراحه بضمان لجنة مراقبة القطاع .

وبعد أن سردت هذا الحدث وهى متأثرة، أضافت «إيلودى» :

– والآن نعيش فى هدوء، ولكن الإنذار كان شديدًا، كان لابد من حدوث ذلك ، حتى لا يُودَع أبى فى السجن. ولو كان الخطر تأخر قليلاً، لكنت جئتُ إليك أطلب منك التدخل بنفوذ بعض أصدقائك لصالحه .

ولم يُجِبْ «إيفاريست» عن ذلك، وقد كانت «إيلودى» بعيدة عن أن تدرك معنى هذا الصمت. كانا يسيران – يده فى يدها – بحذاء جرف نهر السين . كانا يتبادلان حديثًا حنونًا بلغة جُولى وسان برو[2]، وقد منحهم جان جاك الطيب وسائل التعبير عن حبهم وتزيينه .

وقد قامت دار البلدية بتكملة هذه المعجزة، حتى يعم الخير فى يوم من الأيام تلك المدينة الجائعة، فأقامت سوقًا فى ميدان الأنفاليد، وعلى ضفة

---

(١) المراد بالرشم : الصور المطبوعة .

(٢) اسم رواية لجان جاك رسو ، أَغْوَى فيها سان برو الفتاة جولى .

النهـر ، فأقـامت أكشـاكًـا بها تجار يبيعـون خبـزًا أسطوانىَّ الشكل ، ومقـانقَ، وسـجقًا، ولحمَ خنـزير مغطىً بورق اللورى، وحلويات نانتير، وفطائـرَ حلوة، وكعكَ الأبازير، وخبـزًا بوزن أربعة أرطال ، وليمـونادة، ونبيذًا .

وكانت توجـد أيضًـا بوتيكات، حيث تُباع الأغانى الوطنيـة ، وشارات وطنية، وشرائط ثـلاثية الألوان، ومحافظ، وسلاسل مـن النحاس، وكل أنواع اللهو .

وتوقف «إيفاريست» أمام معروضات صائغ متواضع، واختار خاتمًا من الفضة نُقِشَ عليـه نقشٌ بارزٌ يمثل رأس «مارات» ملفـوف فى وشاح. وألبسه فى أصبع «إيلودى» .

وتوجَّه «جاميلان» فى هذا المسـاء إلى شارع «لاربر – سيك» (الشـجرة الجافـة)، عند المواطنة «روشيمـور» التى كانـت قد طلبتـه من أجل أمـر عـاجل . وجدها فى غـرفـة نومها متمـددة على «الشيـزلونج» بلا تكلف . وبينما كـان وضـع المواطنة يعبر عن ارتخاء مثير، كـان كل شىء حَـوْلَها ينطق بمفاتنها وألاعيبهـا ومواهبها : قيثارة بالقـرب من مِعْزَف قيثارى منفرج قليلاً، وجيتارٍ على المقعد ، وأداة تطريز كانت مركبة على قماش من الستان، وعلى الطاولة منمنمة مرسـومة، وأوراق، وكتب ، ومكتبة تعمها الفـوضى، أتلفتهـا يد جميلة، بقـدر ما هـى متعطشة إلى المعـرفـة، فهى متعطشة إلى الإحساس . مدت إليه يدها ليقبلها ، وقالت له :

– تحيـــاتى أيها المواطن المُحلِّف !.... اليـــوم فقط سَلَّمنى «روبسبير البكرى» رسالة لصـــالحك للرئيس «هيرمان»(١)، رسالة حُـــرِّرت جيدا ، وتقول تقـريبًا : «أرسل إليك المواطن «جـاميلان»، موصـى عليـه لمواهبه ووطنيته. ورأيت من واجبى أن أُعرِّفك بمواطن له مبادئ، وسلوك حازم فى الخط الثــورى، وأنت لن تترك فـــرصـــة لكى تكون نافعًـــا لأحـــد الجمهـوريين...» حملت هذه الرســالة دون تردد إلى الرئيس «هيرمـان»، الذى استقبلنى بأدب جَمٍّ، ووقع على تعيينك فى الحال . هذا ما تم .

قال « جاميلان » بعد لحظة من الصمت :

– أيتهــا المواطنــة، بالرغم من أنى لا أجـــد لقمــة عيـش لى ولوالدتى، فأُقسم بشرفى أننى لا أقبل وظيفــة مُحَلِّف إلَّا لأخدم الجمهـورية، وأنتقم لها من كل أعدائها .

لاحظت المواطنة الشكر البــارد، والمجـاملــة الجافــة ، وعللت ذلك بأن «جاميـلان» تنقصه الرقة . ولكنها تحب الشبــاب كثيرًا ، فلم تؤاخذه على بعض الجفــاء . «جاميلان» كــان وسيما ، ووجدتْ أنه يستـحق التقـدير. واعتقـدت أنه «سوف يُهذَّب» . ووجهت إليــه الدعوة إلى العشـــاء عندها ، لأنها كانت تستقبل زُوَّارًا كل مساء ، بعد المسرح ، وقالت له :

– ســـــــوف تلتقى عنـدى بأنـــاس من المفكـرين وذوى المواهــب :

---

(١) هيرمان : صديق روبسبير ، خلف مـونتانيه كرئيس لمحكمــة الثورة من أكتوبر ١٧٩٣ –إلى أبريل ١٧٩٤ . طُرِدَ وأُعدِم بالمقصلة مع فوكييه – تانفيل فى السابع من مايو ١٧٩٥ .

«إيلليفيو»[1]، و «تالما»[2]، والمواطن «فيجى»[3] الذى كان بـارعا فى نَظْم القوافى المُسْبَقَة لنظم الشعر بحسبها .

والمواطن «فرانسوا»[4] قرأ لنا «باميلَّا» التى كتبها ، والتى كان يتكرر عـرضها على مسرح الأمـة. أسلوبها متأنق وخـالٍ من الشـوائب، ولبق ، وهى صفة لكل ما يكتبه المواطن «فرانسوا». المسرحية كانت مؤثرة، حتى أننا جميعًـا ذرفنا الـدمع . كـانت الشـابة «لانج» هـى التى تقـوم بدور «باميلّا».

أجاب « جاميلان » :

– سأستند إلى رأيك أيتها المواطنة ، ولكن مسرح الأمـة قليل الوطنية، ومن المؤسف بالنسبة إلى المواطن «فرانسوا» أن تكون أعماله مُنْصَبَّة على هذه المسرحيـات المُحقَّـرة بالأشعار البـائسـة التى يكتبهـا «لايا»[5]، إن فضيحة « صديق القوانين »[6] لم تُنْسَ ....

فقـالت : أيها المواطن « جاميـلان » ، أَتْرُكُ لك « لايا » ، فهـو ليس من أصدقائى .

---

(١) مطرب فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٩ ، ومات سنة ١٨٤٢ .

(٢) ممثل فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٣ ، ومات سنة ١٨٢٦ .

(٣) شاعر فرنسى ، ولد سنة ١٧٦٨ ، ومات سنة ١٨٢٠ .

(٤) فرانسـو دى نوف شاتو : شـاعر متمكن وأديب، وسيـاسى، كتب مسرحيته «باميـلا». سُجِنَ فى الثالث من سبتمبر ١٧٩٣ ، وأُطلِقَ سراحه بعد الثيرميدور التاسع . عضو بالجمعية الوطنية . عُيِّنَ وزيرًا للداخلية فى ١٧٨٩ – ١٧٩٩ ، وأصبح فيما بعد سيناتورًا وكونتا للإمبراطورية .

(٥) « لايا » : شاعر فرنسى، ولد سنة ١٧٦١ ، ومات سنة ١٨٣٣ .

(٦) صديق القـوانين : مسرحية قُدمت على مسرح الأمة فى الثـانى من يناير سنة ١٧٩٣ فى وقت قضية الملك .

لم يكن مطلقًا بدافع الطيبة أن المواطنة قد استعملت نفوذها لتعيين «جاميلان» فى وظيفة مرموقة بعد ما صنعته من أجله، إنما كانت تهدف إلى رَبْطِه بها ربطًا وثيقًا، وتضمن لنفسها سندًا حيال عدالة قد تحتاج إليها ذات يوم، وذلك لأنها كانت ترسل الكثير من الخطابات داخل فرنسا وخارجها، وأن مراسلات مثل هذه كانت حينئذ تثير الشبهة .

– أتذهب إلى المسرح دائمًا أيها المواطن ؟

فى هذه اللحظة يدخل «هنرى » الجندى الفارس، الذى هو أجمل من الطفل «بافيللى»، دخل الغرفة حاملاً فى حزامه مُسدسين .

وَقَبَّل يد المواطنة الجميلة ، والتى قالت له :

– هذا هو المواطن «إيفاريست جاميلان»، والذى من أجله قضيتُ اليوم فى لجنة الأمن العام وهو غير مُمْتَنّ لى ، فعليك أن تؤنبه .

فقال « هنرى » صارخاً :

– آه ! أيتها المواطنة ، لقد قابلت مُشَرِّعينا فى التويليرى، يا له من مشهد محزن ! أَوَ ينبغى لمثلى شعب حر أن يقيموا تحت سقف أحد الطغاة ؟.. لقد كانت الثُّريات المضيئة تلقى أنوارها منذ عهد قريب على مؤامرات «كابيه»(١)، وعربدة أنطوانيت، إنها هى نفسها تلقى الضوء اليوم على ليالى مشرعينا. إن ذلك يُغضب الطبيعة.

فأجابت قائلة : صديقى ، قَدِّم التهنئة للمواطن «جاميلان»، قد تم تعيينه مُحَلِّفًا فى المحكمة الثورية .

---

(١) لقب أطلق على لويس السادس عشر بعد إلغاء الملكية .

قال «هنرى»: لَكَ تهنئتى، أيها المواطن ! فأنا يسعدنى أن أرى رجلًا فى مثل أخـــلاقك يضطلع بهذه الأعمال . ولكن أُصْـــدِقُكَ القـــول : إن ثقتى ضئيلة بهذه العدالة المنهاجية التى يبتكرهــا المعتدلون بالجمعية الوطنية، آلهة الانتقام هذه طيبة القلب ، فهى تحابى المتآمرين، وتعفو عن الخونة ، وتكاد تجرؤ على ضرب الفيـدراليين، وتخشى استدعــاء النمساوية أمــام المحكمة . لا ، ليســت المحكمة الثورية هــى التى سوف تُنقذ الجمهـورية. إنهم حقًّا مُذنبون هؤلاء الذين أَوْقفـوا – فى حالة اليأس – انطلاق العدالة الشعبية !

قالت المواطنة « روشيموز » : ناولنى هذه القارورة يا « هنرى »...

وعندمــا عاد «جـاميلان» إلى منــزله وجد والدته و «بروتو» العجـوز يلعبان الورق على ضوء شمعة مُدَخِّنَة . والمواطنة تعلن بلا حياء : « ثلاث ورقــات للملك»، وعندمـــا علمت أن ابنهــا أصبح مُحَلِّفًــا قَبَّلَتـــه بشـــدة، متصـــورة أن ذلك شرف عظيم لكليهما، وأنهما من الآن فصـــاعدًا ســـوف يتناولان الطعام كل يوم .

قــالت الأم : إننى سعيـدة وفخـــورة لأننى أصبحت أُمَّ مُحَلِّف ، وهذا شىء جميل مثل العـــدالة ، وأهم شـــىء للجميع، فبـدون العـــدالة يُهان الضعفاء فى كل لحظة . وأعتقـد أنكَ ستحكم بالحق، يا «إيفاريست» وذلك لأنـــنى وَجَدْتُـكَ عــادلًا ورحيـما وشهـــمًا فى كـل الأمـور منــذ صبــاكَ، ولا تستطيع أن تتحمل الظلم، وكنت تُقــاومُ كـل بَغْيٍ بما لديك من قــوة،

وكنت شفيقًا على البؤســاء، وهذا أفضل ما يتمتع به أى قاضٍ... ولكن قل لى يا«إيفاريست» : ماذا سترتدى فى هذه المحكمة الكبيرة ؟

أجابها : «جـاميلان» بأن القضـاة يضعـون على رءوسـهم قبعة بريش أســود، ولكــنَّ المُحَلِّففين ليس لهم زىٌّ معين، فهم يرتدون مــــلابسهم العادية.

قالت : كان من الأفضل أن يرتدوا «الروب والبــاروكة»، لأن مظهرهم هكذا يكون أكثــر احترامًــا . ومع أنك دائمًا ترتدى مــلابسك بلا مبــالاة ، فإنك تبــدو جميــلًا ، وأنت الذى تُزين مــا تــرتديه ، ولكن معظم الرجــال يحتــاجــون إلى بعض الزينة حتى يبــدو مظهــرهم محترمًــا . وكــان من الأفضل أن يرتدى المحلفون الروب، والباروكة .

كــانت المواطنة قــد سمعت أن أعمال المحلف فى المحكمــة مثمــرة، ولم تحرص على أن تسأل عَمَّا إذا كــانت ستجنى مــا يُعيشـهم عيشة شريفــة، وقالت : إن المحلف يجب أن يكون فى صورة طيبة بين الناس .

وعلمت بما فيــه الكفاية أن المحلفين يتقاضــون مكافأة قيمتهــا ثمانية عشر جنيهًا عن الجلسة، وأن تزايد جرائم ضد أمن الدولة يُجبرهم على أن يحضروا دائمًا .

جَمَع «بروتو» العجوز ورق اللعب ، ونهض وقال لجاميلان :

– أيها المواطن ، لقــد تقلدت منصب قــاضٍ عظيم لا يُشق لــه غبــار . أُهنئك بأن تُضفى بأنوار ضميرك على محكمــة أكثر أمــانًا، وأقل عرضــة للخطأ، ربما عن أى شىء آخــر، لأنها تبحث عن الخير والشر، لا من حيث

هما أو من حيث جـوهرهما ،ولكن فقط بالنسبــة إلى المصـــالح الحقيقيــة، والمشاعر الصريحة. وسيكون عليك أن تحكم بين الحب والكراهية، وذلك مــا ســوف يكون عن غــريزة ، وليــس بين الصح والخطأ اللَّذَيْن يتعـذر التمييــز بينهما بالنسبــة إلى ضـعــاف العقــول من الرجــال . اُحْكُمْ وفقًــا لخفقات قلبك ، فأنتم – معشر المحلِّفين – لــن تجازفوا بالخطأ، شريطة أن يكون الحُكم مُــرضيًا للعــواطف ، التى هى شريعتكم المقدســة . ولكن لو كنتُ فى مكان رئيسكم لفعلتُ مثلما فعل «بريدوا(١)» ، وفــوضتُ الأمــر فى ذلك إلى لعبة القــدر فهذه أسلم وسيلة فى إقــامة العدالة ، وهى أيضًــا أكثر أمانًا .

* * *

كان لزامًــا على «إيفاريست جــاميلان» أن يبــدأ أعماله اعتبارًا من ١٤ سبتمبر، عند إعــادة تنظيم المحكمة، المقسمــة من الآن فصاعــدًا إلى أربعة قطاعات، لكل قطاع خمسة عشر مُحَلِّفًا، وكانت السجون مكتظة، والمدعى العام كان يعمل ثمانىَ عشرة ساعة يوميًّا .

كانت الجمعيــة الوطنية تقــاوم الإرهاب، وهزائم الجيوش ، وتــواجه الثورات فى المقــاطعات، وكذلك الدسائس والمؤامــرات، والخيانات، الآلـهة كانت عَطْشَى .

إن أول ما قام به المُحَلِّف الجديد زيارة تكريمٍ للرئيس «هيرمان»، الذى

---

(١) بريدوا : رجل خيالى هزلى جعل منه الكاتب الفـرنسى رابليه قاضيًا تقــوم أحكامه على نتيجة رَمْى النَّرْد .

امتدحــه لحلاوة حديثــه ورِقَّة عــلاقته . إنه مواطن وصــديق لروبسبير، الذى كان يقــاسمه شعوره، ويرى فيــه قلباً حساسًــا وفاضلا. لقـد كان متعمقــاً فى هذه الإحســاســات الإنسانيــة التى كــانت غــريبــة على قلوب القضـــاة، والتى صنـــعت المجـــد الأزلى لـكـل مــــن « دى بــاتـــى »[1] و«بيكاريا»[2] .

وشعر بارتياح للتخفيف من العــادات التى ظهرت فى النظام القضائى بإلغاء التعـذيب الجائر، وألوان التعـذيب المخزية والمتــوحشة. وعبَّر عن سروره بما حدث بصدد جريمة الإعدام التى كانت تُطَبق سابقًا لقمع أقل وأصغــر الجرائــم، وأصبحت هذه العقــوبة نــادرة جــدًّا، ومقتصرة على الجرائم العُظمى. ومن جهته – مثل روبسبير – ألغــاها عن طيب خاطر فى كل مــا لا يمس الأمن العام، ولكنه اعتقـد أنه يخون الدولة إنْ لم يعــاقب بالإعدام الجرائم التى تُرتكب ضد سيادة الأمة .

إن جميع زمــلائــه يفكرون هكــذا : أن فكرة الملكيــة القــديمــة حــول «مصلحــة الدولة» قــد أوحت بمحكمــة الثــورة، وأن ثمانيــة قــرون من السلطة المطلقة قد شكلت هؤلاء القضـاة، ووفقًا لمبادئ الحق الإلٰهى كانت تقاضـى أعداء الحرية .

ومَثُل «إيفاريست جاميلان» فى نفــس اليوم أمامَ المدعى العام، المواطن «فوكييه»، الذى استقبله فى مكتبه ، حيث كــان يعمل مع كاتبه. كان رجلًا

---

(١) « دى باتى » : محامٍ عام ورئيس برلمان بوردو .

(٢) بيكاريا، سيزار بونيانا ، ماركيز : محلف من ميلانو. مؤلف «مخالفات وعقوبات » .

ضَخْمَ الخِلْقَة، أجَشَّ الصــوت، وله عينان كعيون السِّنَّوْر فى وسط وجهه العريض، وبشرته الرصــاصية اللون. كان مظهره بصفـة عامة يُعبِّر عن الأضرار التى سببها الجلوس المستمــر والانزواء وعدم الحركـة للرجال الأقوياء الذيــن خُلِقوا للهواء الطلق والتمــرينات العنيفة . وكـانت الملفات ترتفع من حوله كحوائــط القبور، والذى نراه أنه كان يُحب هذه الأوراق العديمــة الفائدة، الرهيبة، والتى تبــدو أنـها ستخنقه. وكانت له مقــاصد قاضٍ مجتهدٍ، عاكف على القيام بواجباته، ولم يكن فكره يخرج عن دائرة أعماله. كانت تفوح من أنفاسه رائحة «العرقى»[1] الذى يتناوله ليساعده على التماسك، والذى يبدو أنه لم تصعد فائدته إلى مخه طالما أن كلماته لم تكن واضحة، وكانت دون المتوسط .

كان يقيم فى شقــة صغيرة فى القصر مع زوجته الشــابة، والتى أنجبت له تَوْءَمًــا، وكـانت هذه الزوجــة الشابة، والعمــة «هنرييت»، والخادمــة «بيــلاجى» يُشكلون كـل أسرته. وكــان يظهــر طيبًــا ورفيقًـــا مع هؤلاء النسوة. ثم إنه كــان رجلًا عظيمًا مع أفراد عائلته، وكــان فى مهنته بدون أفكار كثيرة، وبدون أى تطلعات .

لم يستطع «جاميــلان» أن يخفى ملاحظاته ببعــض الاستياء ، عن أن هؤلاء، القضاة فى النظام الجديد يشبهــون فى تصرفاتهم وروحهم قضاة النظام القــديم. وكــان منهم «هيرمان» الــذى مارَسَ أعمال محامٍ عــام فى مجلس «الآرتوا»، وكــان «فوكييــه» نائبًا ســابقًا فى «الشــاتيليه». كــانوا

---

(١) مشروب كحولى مسكر يتخذ من العنب وغيره .

يحتفظون بطبعهم، ولكن «إيفاريست جاميلان» كان يؤمن بالتجديد الثورى .

ويغادر مقر المحكمة ويعبر رواق القصر، ويتوقف أمام «البوتيكات»، حيث كانت تُعرض شتى أنواع المعروضات بطريقة فنية، ويلقى نظرة على معرض السيدة المواطنة «تينو»، ثم تصفح أعمالًا تاريخية وسياسية وفلسفية، مثل سلاسل الاستعباد، ومقال عن الحكم الاستبدادى، وجرائم الملكات. ويقول مفكرا :«حمدًا لله ! كل هذه المؤلفات جمهورية !». وسأل صاحبة المكتبة عَمَّا إذا كانت تبيع كثيرًا من هذه الكتب .

فهزت رأسها وقالت :

– لا نبيع سوى الأغانى والقصص، وأخرجت من أحد الأدراج مُجلدًا صغيرًا : وأضافت قائلة :

– هذا شىء جيد .

قرأ «إيفاريست» عنوان الغلاف : «الراهبة ترتدى قميصًا». ويقابل أمام البوتيك المجاور «فيليب ديماهيس»، الذى كان بين العطور ومساحيق الزينة، كان رقيقًا وعظيمًا ، وهو يُطَمئِنُ المواطنة «سان – جور» البائعة الجميلة على حبها، ويَعِدُها بأن يرسم لها صورة، وطلب منها موعدًا ليتحدث معها فى حديقة «التويليرى» فى المساء . كان جميلًا، وله قُدرة على الإقناع تسيل من بين شفتيه، وتنبجس من عينيه. وتنصت إليه المواطنة «سان – جور» مطرقة فى صمتٍ ، وكانت تميل إلى تصديقه .

ولكى يتأقلم مع الأعمال الشاقة التى كُلِّف بها ،أراد المحلَّف الجديد أن يختلط بالجماهير، فحضر أحد أحام المحكمة . ارتقى الدرج بصعوبة، حيث كان يجلس عليه جمهور كبير كأنهم فى مدرج لإلقاء الدروس، ودَلَفَ إلى قاعة البرلمان القديمة فى باريس .

كانت الجماهير تكاد تختنق من شدة الزحام من أجل رؤية محاكمة أحد الجنرالات، لأنه فى ذلك الوقت، كما كان يقول «بروتو» العجوز : «الجمعية الوطنية، على مثال صاحبة الجلالة البريطانية، تأمر بمحاكمة الجنرالات المهزومين، إن لم يوجد جنرالات خونة، فهؤلاء لن يفلتوا أبدًا من المحاكمة». وأضاف «بروتو»: لم يكن بالضرورة أن أى جنرال مهزوم يكون مجرمًا، لأنه من الضرورة أن يكون هناك واحد مغلوب فى كل معركة. ولكن لا يساوى شيئًا أن تحكم على جنرال بالإعدام لتهب الحياة إلى الآخرين...».

لقد جلس الكثير منهم على مقعد المدعى ، مِنْ هؤلاء العسكريين التافهين ومتصلبى الرأى مَنْ لهم عقولُ العصافير فى أجسام العجول . ومنهم ذلك الذى لا يعرف شيئًا عن الحصار والمعارك التى قادها أكثر مِمَّا يعرف القاضى الذى يحقق معه، والاتهام والدفاع تلاشوا فى الجنود والأهداف، والذخائر ، والمسيرات ، والمسيرات المضادة .

كان الجمع الغفير من المواطنين الذين يتابعون هذه المناقشات الغامضة التى لا تنتهى يَرَى خلفَ القائدِ السخيف الوطنَ مفتوحًا وممزقًا، يقاسى لموت الآلاف . وكان هؤلاء الوطنيون بنظراتهم

وبأصـــواتهم يستعجلـــون المحلفين الهادئين على مقــاعــدهـم ، بــإصـــدار جكمهم كضربة من هراوة على أعداء الجمهورية .

كــان «إيفــاريست» يشـعـر بذلك بحــرارة . إنَّ مــا يجب أن يُضرب فى شخص هذا البــائس هما الوحشــان اللذان يُمزقــان الوطن : العصيــان ، والهزيمة . كــان الأمر يتعلق بحق ، بمعرفة مــا إذا كان هذا الجندى بريئًا أم مــذنبًــا ! وعندمــا استعادت « لافــاندية » شجــاعتهــا ، ولمّا استسلمت «طولون»(١) للعدو، وعندما تقهقرَ جيش «الرَّاين» أمام غزاة مايانس، ولمَّا انسحب جيش الشمال إلى معسكر «سيــزار»، كان فى الإمكان الاستيــلاء عليهــا بهجــــوم عسكرى مفــاجئ لكل مــن الإمبراطوريين، والإنجليــز، والهولانديين، وحكام فالانسيــان، والذى كان مُهِمًّا هو تعليم القــادة إمَّا النصر أو الموت .

وعندما رأَى «جاميلان» هذا الجنــدىَّ المرتزق العاجز والمخبول ، الذى كــان فى الجلسة مضطربًا، كما اضطــربَ هناك فى سهول الشمال، خـرج «جاميلان» مسرعًا من القاعة حتى لا يهتف مع الجمهور : « إلى الموت !».

وفى جمعيــة القطاع تلقى المُحَلِّف الجديـد تهانى الرئيس «أوليفييــه»، الذى جعله يؤدى القَسَـــم عند الهيكل الرئيسى القــديــم البرنابى ، والذى تحول إلى هيكل الوطن، على أن يخنق فى نفسه – باسم الإنسانيــة المقدسة – أىَّ ضعف إنســانى .

---

(١) طولون : ميناء فرنسى حربى مشهور .

ويرفع «جاميلان» يده بالقسم ، مستشهدا بالأرواح العظيمة لمارات شهيد الحرية ، والذى وُضع له تمثال نصفى حديث على أحد الأعمدة أمام الكنيسة، أمام تمثال «لوبيليتييه» النصفى .

وتُدَوِّى بعض الهتافات مع التصفيق مختلطة بهْمهمة . كانت الجمعية متهيجة . وعند مدخل جناح الكنيسة كانت مجموعة من القطاعيين (كتائب) مسلحين برماح قصيرة يُرددون الصيحات .

قال الرئيس : إن من يحمل سلاحًا فى اجتماع للرجال الأحرار يُعَدُّ مناهضًا للجمهورية. وأصدر أمره فى الحال بالتخلى عن البنادق والرماح وإيداعها فى مخزن الأمتعة المقدسة (عبارة عن حجرة صغيرة فى الكنيسة للحرس).

وجاء المواطن «بوفيزاج» من لجنة المراقبة – وكان أحدب ، ثاقب النظرات، مقلوب الشفتين – جاء واعتلى المنبر الذى أصبح منصة، واضعًا على رأسه غطاء أحمر اللون، وقال :

– « القادة يخونونا ، ويُسلِّمون جيوشنا للعدو، والإمبراطوريون يدفعون بأحزاب من الفرسان حول بيرون، وسان – كوينتان، و«طولون» سُلِّمت للإنجليز الذين أنزلوا فيها أربعة عشر ألف رجلًا . إن أعداء الجمهورية يتآمرون من داخل الجمعية الوطنية نفسها .

وفى العاصمة دُبِّرَ العديد من المؤامرات لإنقاذ النمساوية(١)، وفى اللحظة التى أتحدث فيها، تدور شائعات بأن الابن «كابيه» هرب من

(١) المقصود بها الملكة .

المعبد، وحُمِل بنجـاح باهر إلى «سـان – كلود»، والمراد أَنْ يُرفَع على عرش الطاغية .

إن غلاء مواد المعيشة، وانخفاض قيمة الحوالات الحكومية، هما سبب المناورات الواقعة بيننا ، وتحت أعيننا، وعن طريق عمـلاء أجانب. فباسـم الشعب وسـلامتـه، أُطالب المواطـن المحلِّف بألَّا تأخـذه شفقـة أو رحمة بالمتآمرين والخونة ».

وبينما هو نازل من على المنصـة ، ارتفعت الأصـوات فى الجمعيـة : «لتسقط محكمة الثورة ! ، ليسقط المعتدلون !».

وصَعَدَ المواطن «ديبون اينيه» – وهو ضخم ومزدهر البشرة، ويعمل نجارًا فى ميـدان ثيونفيل – صعد إلى المنصة وأراد كما يقـول – أن يوجه سؤالًا إلى المواطن المحلِّف. وسـأل «جاميلان» عن مـوقفه بصـدد قضية عائلة «بريسوتان» ، والأرملة «كابية».

كان «إيفـاريست» خجولًا، ولا يعـرف مطلقًا التحدث أمـام الجمهور، ولكن الإثارة ألهمته، فنهض شاحب الوجه، وقال بصوت مختنق :

– أنا قاضٍ ، ولا أُشهد إلَّا ضميرى، وأىُّ وعْدٍ منى لكم سيكون مخالفًا لواجبى. يجب أن أتحدث فى المحكمة، وأن التزم الصمت فى أىِّ مكان آخر . أنا لا أعرفكم. أنا قاضٍ : لا أعرف صديقًا ، ولا عدوًّا .

كانت الجمعيـة متنوعة، حائرة مترددة، مثل جميع الجمعيـات، لكنها قَرَّتْ أخيرًا. وعاد المواطن «ديبون إينيه» إلى العمل، لن يسامح «جاميلان» فى تولِّيه منصبًا، كان هو نفسه يطمع فيه .. فقال :

– «أنا فـاهـم، وأستحسن وسـاوس المواطن المحلِّف، الـذى يقـال له

وطنى، ولكن عليه أن يرينا ما إذا كان ضميره يسمح له أن يحتل مكانه فى محكمة مُخَصَّصَة لتحطيم أعداء الجمهورية، وموطدة العزم على أن تحتاط منهم. وتوجد تَوَاطُئَات ينبغى على الصالح أن يتملص منها. ألم يتحقق من أن العديد من المحلفين فى هذه المحكمة استسلموا للرشوة بأموال المتهمين، وأن الرئيس «مونتانيه» قد ارتكب خطأً لينقذ رأس الفتاة «كورداى».

وعقب هذه الكلمات ضجت القاعة بالتصفيق الحاد. وكذلك ارتفع الضجيج إلى القباب عندما صعد «فورتينيه تروبير» إلى المنصة، وبَدَا أنه ازداد نحافة فى هذه الشهور الأخيرة. وفى وجهه الشاحب وجنتان حمراوان تخترقان الجلد، وجفونه كانت ملتهبة وحدقتاه شبيهتان بالزجاج . قال بصوت ضعيف لاهث :

– أيها المواطنون، إننا لا نستطيع أن نشتبه فى الجمعية الوطنية، ولجنة الخلاص الشعبى التى تنبثق منها فى آن واحد. وقد أنذرنا المواطن «بوفيزاج» عندما أوضح لنا أن الرئيس «مونتانيه» أفسد دعوى لصالح أحد المذنبين. وأنه لم يُضف من أجل راحتنا وطمأنتنا سوى – وفقًا لبلاغ المدعى العام – أن «مونتانيه» قد خُلِع وأُودِع السجن؟... ألا نستطيع أن نسهر على الخلاص الشعبى دون أن نبذر التشكيك فى كل مكان ؟ ألا توجد فى الجمعية مواهب أو فضائل؟ أو ليس «روبسبير» ، و «كوثون»، و «سان جوست» رجالًا أشرافًا ؟.. من الواضح أن أعنف الكلمات التى سمعناها صدرت عن أفراد لم نرهم قط يحاربون من أجل الجمهورية ! وما كان لديهم غير هذا الحديث حتى يجعلوها مكروهة .

أيها المواطنون ، قليل من الضوضاء ، وكثير من العمل ! فبالمدافع وليس بالصيحات ننقذ فرنسا. إن نِصْف أقبية القطاع لم تُفتَش بعد ، وكثير من المواطنين لا يزالون يحتفظون بكميات هائلة من البرونز. ونُذَكِّر الأغنياء بأن الهبات الوطنية هى أفضل وسائل الضمان. وأوصيكم بأن تكونوا كرامًا نحو بنات وزوجات جنودنا البواسل على جبهة نهر اللوار . أحدهم جندى خياله «يوميبه» (أوجيستان)، الذى كان مختصًّا بالمؤن بشارع أورشليم سابقًا، وفى اليوم العاشر من الشهر الماضى – أمام كونديه – كان يقود بعض الخيول للشرب، فهاجمه ستة من الفُرسان النمساويين : فَقَتَلَ منهم اثنين، وأَسَرَ الآخرين، وأطلب من القِطاع أن يُعلن أن «يوميبه» (أوجيستان) قد قام بواجبه ».

وصفق الحاضرون لهذا الخطاب ، وتفرقوا وهم يهتفون : «تحيا الجمهورية !».

وظل بمفرده فى القاعة مع « تروبير »، فصافحه « جاميلان » وشَدَّ على يده قائلا :

– أشكرك . كيف حالك ؟

أجاب «تروبير» وهو يُسعل فى منديله بصاقًا مع بقع مع الدم : أنا على خير ما يرام ! الجمهورية لها أعداء كثيرون فى الخارج والداخل، وقطاعنا يضم نصيبًا لا بأس به، ليس بالهتافات ولكن بالسلاح والقوانين تُقام الإمبراطوريات... عِمْتَ مساء يا «جاميلان» فَلَدَىَّ بعض الخطابات أريد كتابتها .

وينصرف ومنديله على شفتيه ويذهب إلى مخزن الأمتعة المقدسة الأمامى .

وتُقَوِّم المواطنة الأرملة «جاميلان» شارتها الوطنية ، فهى من الآن فصاعدًا أصبحت فى وضع صحيح، وتضع غطاءً على رأسها، لقد اتخذت لنفسها بين عشية وضحاها وقارًا بورجوازيًّا، وفخرًا جمهوريًّا، ومظهرًا جديرًا بأُم مواطن مُحلِّف . إن احترام العدالة التى نشأت عليه، وما كانت تشعر به منذ طفولتها، قد ألهمها أن ترتدى الرداء والسيمار (ثوب فضفاض)، والرهبة المقدسة التى تحس بها دائمًا عندما ترى هؤلاء الرجال الذين يمثلون العدل على الأرض، ويطبقون قانون الحياة وقانون الموت .

هذه الإحساسات جعلتها عظيمة محترمة، وتقدس هذا الابن الذى لاتزال تعتبره حتى الآن طفلًا . وببساطتها، كانت تدرك استمرارية العدالة من خلال الثورة بنفس القوة التى يدرك بها مشرعو الجمعية الوطنية استمرارية الدولة فى تغيير الأنظمة، والمحكمة الثورية تبدو لها متساوية فى العظمة لجميع السلطات القضائية القديمة التى تعلمت أن تحترمها .

أوضح المواطن «بروتو» للقاضى الشاب المصلحة الممزوجة بالمفاجأة، وبالاحترام اللازم . وكان مِثْلَ المواطنة الأرملة «جاميلان» – يعتبر أن استمرارية العدالة تكون من خلال الأنظمة، ولكنه كان على عكس هذه السيدة، فهو يزدرى المحاكم الثورية كمحاكم النظام القديم . وبما أنه لم يجرؤ على أن يُعبِّر عن رأيه هذا بصراحة، ولم يستطع أن

يلتزم بالصمت، فإنه أخذ يخوض فى متناقضات جعلت «جاميلان» يَشُكُّ فى عدم وطنيته، وقال له :

– المحكمة العظيمة التى سوف تذهب إليها كان مؤسسها عضوًا فى مجلس الشيوخ الفرنسى من أجل خلاص الجمهورية، وكانت تلك بكل تأكيد فكرة فاضلة من مُشرعينا أن يُعَيِّنوا قضاةً لأعدائهم. إننى أدرك ذلك الكرم، ولكنى لا أعتقد أن ذلك أمر سياسى . وكان من الحِذْق بالنسبة لهم – كما يبدو لى – أن يضربوا فى الظلام خصومهم الذين لا يقبلون المصالحة، وأن يكسبوا الآخرين بالهِبَات أو بالوعود ، فالمحكمة تضرب بهدوء، وتُسبب ضررًا أقلَّ مما تسبب الخوف، وذلك مثالى. أما العقبة عندك فهى مصالحة جميع هؤلاء الذين تخيفهم المحكمة، وأن تصنع من هذه الجمهرة – من المصالح والعواطف المعاكسة – حزبًا كبيرًا قادرًا على عمل مشترك وقوى. إنكم ستبذرون الخوف، إنه الخوف أكثر من الشجاعة، وهو الذى يجعل الأبطال أطفالًا .. هل فى وسعك أيها المواطن « جاميلان » أن ترى ذات يوم معجزات من الخوف تنفجر ضدك؟!

كان النَّحَّات «ديماهيس» مُحِبًّا فى هذا الأسبوع لفتاة من «باليه – ايجاليتيه» (قصر المساواة)، وهى «فلورا السمراء» الطويلة، ومع ذلك كانت قد وجدت خمس دقائق لتهنئة صديقها، وقالت له : إن أى تعيين كهذا يُشَرِّف الفنون الجميلة إلى درجة كبيرة .

و «إيلودى» بنفسها – بالرغم من عدم معرفتها – تبغض أى شىء

ينتمى إلى الثـورة، وهى تخشى الأعمال العـامـة وتعـدُّها أخطر منافس يستطيع أن ينازعها قلـبَ حبيبها. ومع ذلك فإن «إيلودى» الرقيقـة كانت خـاضعة لنفـوذ أو سطوة أحد القضـاه، دُعى ليُبين مـوقفه فى القضـايا الرئيسية.

وبالإضافـة إلى ذلك فإن تعيين «إيفاريست» فى أعمال المحلـف كان له أثر طيب حولها، ونتائج سعيدة قَرَّت بها عينًا، ومن ذلك أن المواطن «جان بلين» جاء إلى مرسم ميدان ثيونفيل وقَبَّلَ المُحَلف تقبيلًا حارًّا.

ومِثل جميع المناهضين للثـورة، أبدى «بليـن» بعض التقدير لقـدرات الجمهـوريـة، ومنذ أن تعـرض للاستـدعـاء بسبـب الغش فى توريدات الجيش، فكانت محكمة الثورة توحـى له بخوف لا يذوق معه طعم النوم، فهـو يرى نفسه شخصيـة مظهرية، ومختلطة بكثير من القضـايا، ولكى يتمتع بالأمن التـام عليـه أن يراعى المواطن «جـاميـلان»، الذى يبـدو له كرجل يستحق أن يُرَاعَى جانبه، فهو مواطن صالح ، وصديق القوانين.

مَـدَّ يده إلى الـرسـام القـاضـى، وأَظْهَـرَ أنه ودود، ووطنى، يميل إلى الفنون والحرية. وكان «جـاميلان» كريمًا،فصافحه ، وشَـدَّ على هذه اليد الممتدة له.

قال «جـان بلين» : أيها المواطن «إيفاريست جاميـلان»، إننى أستدعى صـداقتك ومواهبك، وسـوف أصطحبك غدًا إلى الريف حيث نقضـى معًـا ثمانيًا وأربعين ساعة، وهناك تَرْسُم ونتحادث.

مرات عديدة – فى كل عام – كان يقوم تاجر الرسم بعمل نزهات لمدة يومين أو ثلاثة، بصحبة رسامين كانوا يرسمون – حسب إرشاداته – مناظر طبيعية، ومناظر للأطلال . وكان يحدد بمهارة ما يعجب الجمهور، ويحصل من هذه الدورات على قطع تنتهى إلى المرسم، وكانت محفورة بفن، ويصنع من هذه القطع طبعات ملونة بالحجر القانى، أو بالألوان والزخارف، والتى تُدِر عليه ربحًا وفيرًا .

وبعد هذه الرسومات التخطيطية يطلب تنفيذ تيجان الأبواب ودعائم أو زخارف الأبواب، والتى تجد رواجًا أفضل من أعمال الديكور «لهيبير روبير»[1].

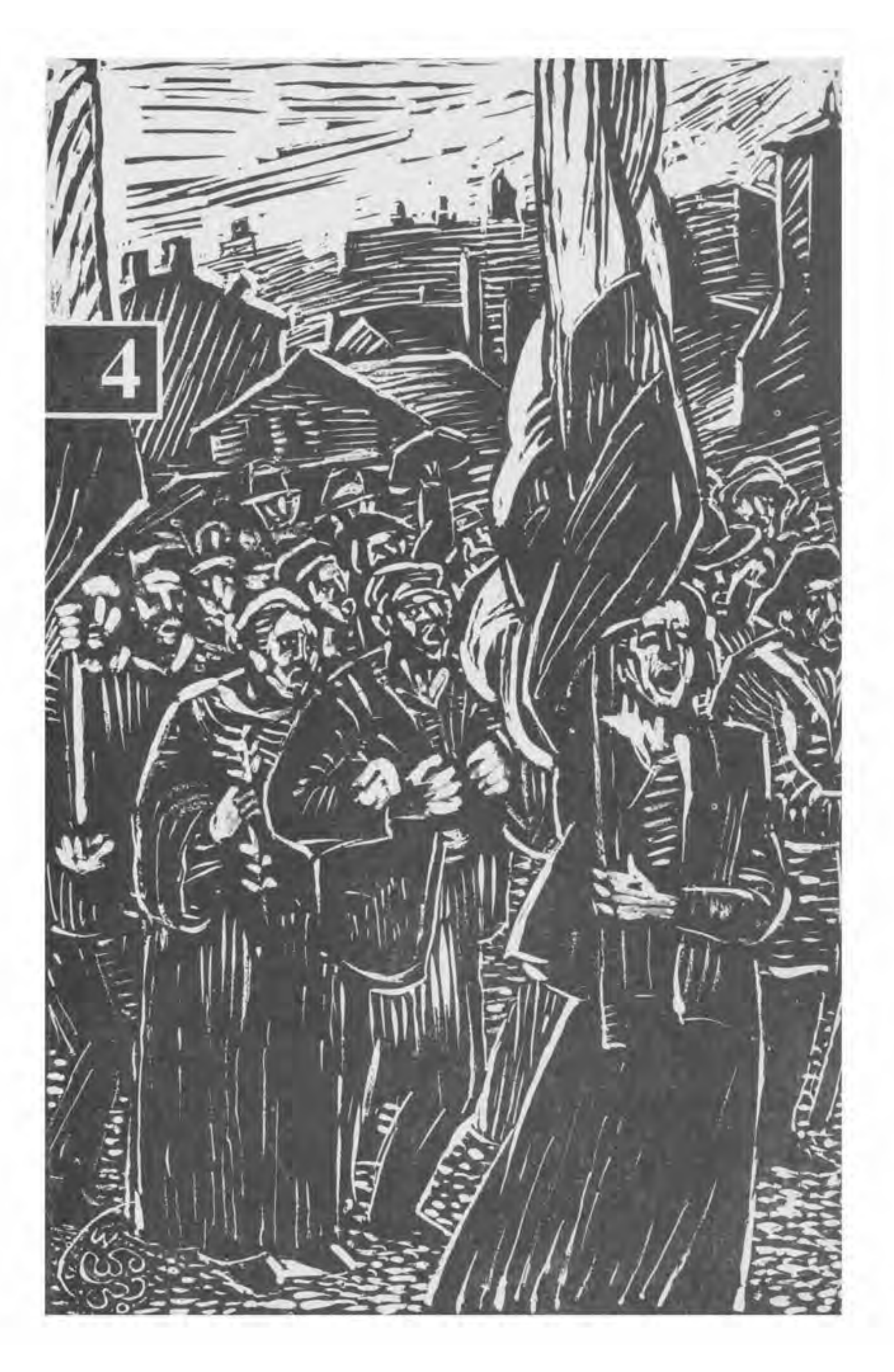
وفى هذه المرة كان يريد أن يصطحب «جاميلان» ليرسم رسمًا تخطيطيًّا لبناء لوحات بالحجم الطبيعى، طالما أن شخصية المحلِّف بالنسبة إليه قد عظَّمت من شخصية الرسام. وكان من ضمن المجموعة، الحفار «ديماهيس»، وكان يرسم جيدًا، و «فيليب دى بوا» الخامل الذكر، والذى يشتغل بمهارة فى نوعية عمل «روبير»، ووفقًا للعادات المواطنة «إيلودى»، مع صديقتها المواطنة «هازارد» ليصحبا الفنانين .

أمَّا « جان بليز » الذى يجيد المزج بين هموم مصالحه والاهتمام بملذاته ، فقد دَعَا أيضًا إلى هذه النزهة المواطنة « تيفينان » ممثلة «الفودفيل»[2]، والتى أصبحت صديقة حميمة له .

---

(١) مصور فرنسى ولد سنة ١٧٢٣ ، ومات سنة ١٨٠٨ .

(٢) فودفيل : دار تمثيل بباريس .


4

4

فى الساعة السابعة من صباح يوم السبت، المواطن «بليز» بقبعته المقرنة السوداء، وصديرى قرمزى اللون، وسروال من الجلد، وحذاء أصفر بطيات، طرق باب المرسم بمقبض سوطه. المواطنة الأرملة «جاميلان» كانت موجودة فيه، تتبادل مع المواطن «بروتو» محادثة مهذبة، فى حين كان «إيفاريست» يقف أمام مرآة صغيرة يعقد رباط عنقه الأبيض.

قالت المواطنة : رحلة سعيدة يا سيد «بليز» ! بما أنك سوف ترسم مناظر من الطبيعة، إذن فاصطحبْ معك السيد «بروتو»، وهو أيضًا رسام.

قال «جان بليز» : حسنا ! أيها المواطن «بروتو»، تعال معنا.

وعندما اطمأن «بروتو» إلى أنه لن يكون ثقيلًا وافق بروح اجتماعية، وخاصة أنه محبٌّ للمسرات.

وصعدت المواطنة «إيلودى» الطوابق الأربعة من أجل أن تُقَبِّلَ المواطنة

الأرملة «جاميـلان»، والتى تدعوها أمهـا الطيبة، وكانت تـرتدى ملابس كلها بيضاء، وتتطيب بعطر اللافاند .

كـانت توجـد عربة سفـر قـديمة يجرها حصـانان، كـانت تنتظر فى الميـدان، مُسْـدَلَةَ الستـائـر. وكـانت «روز تيفينان» تجلس فى الخلف مع «جــوليــان هازارد» واتخذت «إيلـودى» مـجلسهــا على يســار الممثلة الكوميدية، وجلست «جوليان» النحيفة بينهن فى الوسط.

ويجلس «بروتو» فى الخلف، وفى مـواجهته «تيفينان»، ويجلس فيليب دى بوا، منتصبًا بجذعــه الرياضـى على المقعد على يسار « الحُوذىِّ » الذى اندهش عندما قص عليه أنه فى بعض بلاد أمـريكا، تطرح الأشجار سجقا ونقانقَ ناضـجة .

المواطن «بليـز» فارس ممتاز، كـان يقطع الطريق على صـهـوة جواد، وكان يسبق العـربة حتى يتجنب التراب الذى تثيره العـربة، وبمجرد أن ابتعـدت العـربة عن الضـاحيـة نسـى المســافـرون همومهم، وعند رؤية الحقـول والأشجـــار والسماء طابت نفـوسـهم وانشرحـت صـــدورهـم. وتخيلت «إيلودى» أنها وُلدت من أجل تربيـة دجاج بجـوار «إيفاريست» قاضـى السلام فى إحدى القرى على شاطئ أحد الأنهار، بالقرب من غابة.. وعند مدخل القرى كانت كلاب الحراسة تندفع نحو العربة عند المنحنيات وتنبح على سيقان الخيـول ، فى حين ينام أحد كلاب الصيـد الضـخمة على قارعة الطريق وينهض على مضض، والدجــاج يقفز ويطير مشتتًا ليهرب مجاوزًا الطريق ، والإوز يبتعـد ببطء فى مجموعـات متلاصقــة . الأطفال

يشـاهدون الركب يمـر ، ويظهرون بمظهـر قـذر . كـان الصباح حـارًّا، والسماء مشرقة ، والأرض كانت مشققة تنتظر المطر .

توقفوا بالقـرب من «فيلوجويف»[1]. وعندما كـانوا يعبرون البلدة ، دخل «ديماهيس» عند إحـدى بائعـات الفـاكهـة ليشترى بعض الكريز لينعش به المواطنات . كـانت البـائعـة جميلة ، لم يظهـر «ديماهيس»، وينادى عليه «فيليب ديبوا» باسمه الذى يدعوه به أصدقاؤه .

– هيه ! باربارو !... باربارووا !

وبعـد النداء بهذا الاسم المستعمل، أرهف المارة سمعهم، وظهـرت الوجوه فى النوافذ . وعندما رَأَوْا شابًّا جميلًا خارجًا من عند بائعة الفواكه والجاكت مفتوح، والصديرى يرفـرف على صـدرٍ رياضىٍّ، ويحمل على كتفيـه سلة مملوءة بالكريز، ومـلابسـه على طرف عصـا، ظنَّ أُناسٌ أنه الجيراوندان المحظور، فقبضوا عليه، ولولا أن العجـوز «بروتو» والثلاثة السيدات الشابات قـد شهدن بأن هذا المواطن يسمى «فيليب ديماهيس» وأنه رياضى جميل الجسم، ويعقوبى طيب ، لاعتقله بعض اللامتسرولين ولاقتادوه إلى مقر البلدية .

وكان من الضرورى أن المشتبه فيه يُقدم بطاقته الوطنية التى يحملها لإثبـات شخصيتـه، وكـان ذلك الإهمال فى مثل هذه الأمـور بمحض المصـادفـة . وكـان الثمن أنه أفلت من أيدى القـرويين الوطنيين بدون

---

(١) مدينة فرنسية صغيرة .

خسائر أخرى، فيما عدا أحد أكمام قميصه الذى نزع عنه، ولكن الخسارة كانت خفيفة. وأنه تلقى أيضًا اعتذارَ الحرس الوطنى الذين كانوا قد أحاطوا به بعنف، وكانوا يريدون تسليمه إلى مقر البلدية.

والآن، يقف مطلق السراح ، تحيط به كل من « إيلودى »، و « روز »، و«جوليان». واتَّهَمَ «ديماهيس» «فيليب ديبوا» بأنه لا يحبه، واتهمه أيضًا بالنذالة، وابتسم ابتسامة مُرة لاذعة ، وقال :

– «ديبوا»، إذا ناديتنى مرة أخرى باسم «باربارو» فسوف أناديك باسم «بريسو»، وهو رجل قصير وضخم، ومضحك، شعره مجعد، وبشرته زيتية، ويداه لزجتان .ولن يكون هناك شك فى أنك «بريسو» الدَّنىء عدو الشعب، وأن الجمهوريين عند رؤيتك من الرعب والاشمئزاز سوف يأخذونك إلى أقرب مشنقة ... هل تفهم ؟

وكان المواطن «بليز» يسقى جواده ، فلما جاء أكد أنه قد أنهى الموضوع ، مع أن الظاهر للجميع أن الموضوع قد تمت تسويته بدونه .

صعد الجميع إلى العربة، وفى الطريق أخبر «ديماهيس» الحُوذىَّ أن فى هذا الوادى (وادى لونجيمو) سقط كثير من سكان القمر فى سالف الزمان، وكانوا يشبهون الضِّفْدَعَ شكلاً ولوناً ، ولكن قامتهم كانت أكثر ارتفاعاً . وكان « فيليب دى بوا » و «جاميلان» يتحدثان عن فنهما . «ديبوا» تلميذ «رينيو» سافر إلى روما . وقد شاهد لويحات «رافائيل» والتى كان يضعها على جميع أعماله الفنية الرئيسية . وكان معجبًا بالألوان التى يختارها «كوريج»، واختراع «هانيبال كاراش»، ورَسْم

«دومينيكان»، ولكنه لم يجد شيئًا يمكن مقارنته بالنسبة للأسلوب فى لوحات «بومبيو باتونى».

وفى روما ، كان يتردد على السيد «ميناجو» ومدام «لوبران» اللَّذَيْن أعلنا مناهضتهما للثورة، ولم يتحدث عنهما ، ولكنه مدح «أنجيليكا كوفمان »(١)، وكانت رفيعة الذوق ، وكانت تعرف اللون القديم .

وكان «جاميلان» يرثى لحال الرسم الفرنسى وتأخره ، حيث كان فى قمته يرجع إلى «ليزيور»، و «كلود»، و «بوسان»، ويوافق انحلال المدارس الإيطالية والفلمندية، حيث تبعها أُفول سريع وعميق، وقد أرجع أسباب ذلك إلى التقاليد العامة، وإلى الأكاديمية التى كانت تعبيرًا عنه .

ولكن الأكاديمية لحُسن الحظ قد أُلغيت، وتحت تأثير المبادئ الجديدة ابتكر «دافيد» ومدرسته فنًّا جديرًا بشعب حر . وبين الرسامين الشبان . أَدْرَجَ «جاميلان» - غير حاسدٍ - فى المرتبة الأولى «هينيكان » و «توبينو - لوبران »".

و « فيليب دى بوا » كان يفضل «رينيو» أُستاذَه ، على « دافيد »، وكان يُعَلِّقَ الأمَلَ على « جيرار » الشاب بالنسبة إلى الرسم .

وكانت «إيلودى» تجامل «تيفينان» وتمتدح قلنسوتها القطيفة حمراء اللون، وثوبها الأبيض . والممثلة الكوميدية تجامل صديقتيها وتمتدح

---

(١) أنجيليكا كوفمان : كانت ذائعة الصيت فى عام ١٧٧٠، ١٧٨٠ . نشرت فى أوروبا أسلوباً نيوكلاسيكى أقل جفاءً من أسلوب دافيد . وتعرفت على صفوة الفنانين والكُتَّاب فى أوروبا (جوته)، وفى أوروبا أصبحت عشيقة لمارات لفترة من الزمن .

زينتهما، وتشير عليهما بطرق أفضل لعملهما حسب رأيها، وذلك بالتخفيف من الزينات. وقالت :

– لم نكن نُبدى أى زينة، تعلمنا ذلك فى المسرح، حيث كانت لابد أن تكشف كثيرًا من المواضع، ومن ثم يبدو جمالها، ولا شىء غير ذلك .

أجابت «إيلودى» قائلة : أَصَبْتِ القول يا جميلتى، ولكن لا شىءَ أجمل من البساطة فى عمل الزينة. ليس دائمًا بذوق غير سليم تتزين، ولكن أحيانًا على سبيل التوفير .

وتحدثن باهتمام عن موضة الخريف، والثياب البسيطة، والتفصيل القصير.

قالت «تيفينان» : إن كثيرًا من النساء يتشوهن عندما يتبعن الموضة الجديدة، فيجب على المرء أن يختار ما يناسبه .

قال «جاميلان» : لا يوجد أجمل من الأقمشة التى تلتف بالجسد ، وكل ما هو مقصوص ومخيط يكون بشعًا . كل هذه الأفكار وُضعت بطريقة طيبة فى كتاب لفينكيلمان خير من أن يتحدث بها رجل إلى بعض الباريسيات.

قالت «إيلودى» : من أجل الشتاء كانت تُصْنَع معاطف مبطنة على طريقة «لايون» فى فلورنسا، وفى صقلية، ومعاطف طويلة على طريقة «زوليم» بهيئة مستديرة، ويقفل بصديرى على الطريقة التركية .

قالت «تيفينان»: تلك أغطية رَثَّة ، وذلك يباع جاهزًا . إننى أعرف

خياطة صغيرة تعمل كالملاك وليست غالية الأجر ، سوف أرسلها لَكِ ياعزيزتى .

وكانت الكلمات تتناقل بينهم خفيفة وسريعة، منتشرة، وتتناول الأقمشة الجميلة، فلورنسية مضلَّعة، وصينية موحدة، وصقلية و...

وكان العجوز «بروتو» يستمع إليهن وهو يفكر بشهوة كئيبة سوداوية فى ستائر ذلك الفصل التى تضم أشكالاً فاتنة ساخرة، والتى تستمر لسنوات قليلة، ثم تُبعث مثل زهور الحقول . وَتَحوَّلَ بنظرته عن النسوة الثلاث إلى زهور الترنجان ، وزهور الخشخاش فى الأراضى الزراعية، تلك النظرة الباسمة المبللة بالدموع .

وفى حوالى الساعة التاسعة وصلوا إلى «أورانجيس»، وتوقفوا عند فندق «لاكلوش» حيث يُؤوى الزوجان «بواترين» كُلَّ رَاجلٍ وراكبٍ .

ويمدُّ المواطن «بليز» – الذى جدد زينته – يده إلى المواطنات، بعد أن طلب إعداد طعام الغداء لهم، وبعد أن سبقتهم صناديقهم وكراتينهم وخيولهم ومظلاتهم، التى يحملها غلام صغير من القرية، ذهبوا سيرًا على الأقدام عن طريق الحقول نحو الرافد، حيث اكتشفوا السهل المملوء بالخضرة فى «لونجيمو»، والذى يحد نهر السين، وغابات «سانت جينيفيف».

وتبادل «جان بليز» الذى يقود المجموعة الفنية ، مع الممول السابق حديثًا ظريفًا، حيث كان يمر – بدون نظام أورزانة – كُلٌّ من «فيربوكيه لوجينيرو»، و «كاترين كويسو» التى كانت تتجول، والآنسات

«شودرون» والساحر «جاليشيه»، والوجوه الجديدة والأكثر حداثة «لكاديه – روسيل» ومدام «أنجو».

ويُولَعُ «إيفاريست» بحبٍّ مفاجئ للطبيعة عندما رأى الحصَّادين يربطون حُزَمًا من القش ، فتفيض عيناه دمعًا ، وكانت أحلام الوئام والحب تملأ قلبه . وكان «ديماهيس» ينفخ فى شعر المواطنات حبوب الهندباء البرية العالقة به. لما كان الثلاث عندهن مَيْل بنات المُدُن بالنسبة إلى صُحْبات الورد، فقد قطفن زهور البوصير التى تتجمع حول ساق النبات فى سنابل، ونبات الجُريس، يحمل الزهور الليلاك متدلية، والغصون الرقيقة لزهر «رَعْى الحمام» ذى الرائحة الجميلة، والبيلسان الصغير، والنعناع، والبُلَيحاء ، وجميع زهور الحقل للصيف المنتهى .

ونظرًا إلى أن جان جاك كان قد جعل علم النبات حسب الموضة بين فتيات المدن، فإن أولئك الفتيات الثلاث يعرفن أسماء الزهور وأسماء المعاشق منها . وبما أن تويجات الزهور الرقيقة أوهنها الذبول ، فقد انفرطت إلى أوراق بين ذراعيها، وتساقطت كالمطر عند قدميها ، وتنهدت المواطنة «إيلودى» مُتحسِّرة وقالت :

– هكذا تزول الأزهار !

الجميع بدءوا العمل ، واجتهدوا فى التعبير عن الطبيعة كما يرونها، ولكن كل واحد منهم كان يراها بطريقة الأستاذ. ولم يمض وقت قصير حتى كان «فيليب دى بوا» يقتفى أثر مزرعة مهجورة، وأشجار مقطوعة، وسيل ناضبٍ، على طريقة «هوبير».. أمَّا «إيفاريست جاميلان» فقد وجد

على شاطئ«الإيفيت» مناظر «بوسان» الطبيعية. ويعمل «ديماهيس» أمام (بُرج حَمام)، على طريقة «كاللو» و «دوبليسيس» التشردية . و «بروتو» العجوز يجتهد فى تقليد الفلمنديين، كان يرسم بقرة بكل دقة. و «إيلودى» كانت تخطط لكوخ من القش، وصديقتها «جوليان» التى كانت ابنة أحد تجار الألوان كانت تصنع لها «الباليتة» الخاصة بها. وكان بعض الأطفال متجمعين حولها، يشاهدونها وهى ترسم. كانت تبعدهم لئلا يحجبوا عنها الضوء، وتسميهم الذباب الصغير، وتعطيهم حلوى من السكر المعطر .

وعندما وجدت المواطنة «تيفينان» من بينهم أطفالِ جِمَالٌ، نظفتْ لهم وجوههم، وقَبَّلتهم، ووضعت لهم أزهارًا فى شعرهم. ولاطفتهم برِقَّة بها كآبة، لأنها لم تكن عندها بهجة الأمومة حتى تتجمل بالتعبير عن شعور رقيق ، ولأنها تريد أن تمارس فنها فى الموقف والتجمع .

وهى الوحيدة التى لم تكن ترسم أو تصور . بل كانت تهتم فقط بالقيام بدورها، وكذلك على تحسين موضعها . كانت تحمل كراستها فى يدها ، وتنتقل من واحدٍ إلى الآخر ، إنه أمر سهل وجميل : «لا صبغة ، ولاوجه ، ولا جسد ، ولا صوت ». كانت النسوة يَقُلْنَ ذلك ، وهى تملأ المكان بالحركة، والألوان ، والانسجام .

وكانت تبدو ذابلة متعبة، جميلة . كانت لاتكلّ بهجة السفر ، وتتصف بمزاج متغير، علاوة على أنها كانت دائمًا مبتهجة، ومتجاوبة، وعُرضة للغضب ، ومع ذلك فهى سهلة المراس ، ذات لسان لاذعٍ مع لهجة أكثر

أدبًا، مبهمــة ومتواضعــة، حقيقيــة ومزيفــة، ولذيذة . وإذا كــانت «روز تيفينان» لم تكن تؤدى أعمالها على خير مــا يــرام ، وإذا كــانت لم تصبح إلٰهة قط ، فذلك لأن الأوقــات كانت سيئة ، ولم يكن يوجــد فى باريس ، لا بخور ولا هياكل المَلَاحَة .

وكانت المواطنة «بليــز» عند التحدث عنهــا تُبدى الاستيــاء، وتسميها «حماتى»، ولا تستطيع أن تراها دون أن تذعن لمثل ذلك الجمال والسحر.

وفى «فايدو»[1] كان يتكرر عرض «الــراهبات الزائرات»[2]، و «روز» تتباهى بأنها قــامت فيها بدور يعتمد على الموهبة . وذلك مــا كانت تبحث عنه وتنتظره ، وحصلت عليه .

قال « ديماهيس » الجميل : إذَنْ لن نرى «باميلا » مطلقًا ؟

كــان مسرح الأمة مغلقًــا ، وأرسل ممثلو الكوميديا إلى «مــاديلونيت» وإلى «بيلاجى» .

صـــاحت «تيفينان» وهى تــرفع عينيهـــا الجميلتين إلى السماء وهى تستنكر ذلك قائلة :

– هل هذه هى الحرية ؟

قـــال «جــاميـــلان» : إن الممثلين الذيــن يعملون للمسرح القـــومى أرستقــراطيــون، ومسرحيــة المواطــن « فــرانســوا » تهدف إلى الندم على امتيازات النبلاء .

---

(١) فايدو : مسرح مشهور بباريس أيام الثورة الفرنسية .

(٢) الراهبات الزائرات : أوبرا كوميدية كتبها فرانسوا ديفين (١٧٥٩ – ١٨٠٣) .

قالت «تيفينان» : سادتى ، أليس فى وسعكم أن تفهموا مَنْ يريدون أن يداهنوكم؟....

وفى الظهر تقريبًا شعر كل منهم بجوع شديد ، فعادت الفرقة الصغيرة إلى الفندق .

كان «إيفاريسبت» بجانب «إيلودى» يُذَكِّرها – وهو يبتسم– بذكريات أول مقابلات بينهما ويقول لها :

– طائران صغيران سقطا من أعلى السقف ، حيث كان عشهما على إفريز نافذتك . وكنتِ تغذيهما عن طريق مناقيرهما ، أحدهما عاش وتعلَّم الطيران، والآخر مات فى العش الذى صَنَعْتِه له من القطن : «إننى أحبه أكثر من الآخر».. وقد قلتِ هذا فى ذلك اليوم ، وكُنتِ تضعين فى شعرك «فيونكة» حمراء .

كان «فيليب ديبوا» و «بروتو» يسيران متقهقرين إلى الخلف قليلاً عن بقية المجموعة، ويتحدثان عن روما ، حيث ذهبا إليها هما الاثنان، وذلك كان فى عام ١٧٧٢، وأخرى عند أواخر أيام الأكاديمية . وذَكَر أيضًا العجوز «بروتو» الأميرة «موندراجون» التى كان مغرمًا بها، والتى لم يكن «الكونت ألتييرى» يلازمها كظلها ، وَلَمْ يَنْسَ «فيليب دى بوا» أن يتحدث عن «الكاردينال دى بيرنيس»(١) الذى وجه إليه دعوة للعشاء عنده ، وكان أكثر المضيفين التزامًا .

قال «بروتو» : أنا أعرفه، وأستطيع أن أقول دون مباهاة : إننى كنت

---

(١) حَبْرٌ وشاعر فرنسى، ولد سنة ١٧١٥ ، وتوفى سنة ١٧٩٤ .

طوال فترة من الزمن من المقــربين إليه ، كــان يحب التردد على السُّوقَــةِ . وقد كان رجــلًا محبوبًا ، مع أنه كان مبتدئًــا فى كتابة الحكايات ونشرها، وكان يحمل فى أصبعــه الصغير فلسفة صحيحة أكثر مما هو مــوجود فى رءوس اليعقوبيين[1] الذين يريدون نشر الفضيلة بيننا ، وكذلك الصياح بالتأليه . ومــن المؤكد حقًّا أننى أحب أَكَلَةَ الرَّبِّ البسطــاء الذين لايعلمون مــا يقولون ولا مــا يفعلون ، أكثــر من هؤلاء الساخطين الذين يلطخــون سمعة القانون، والذين يجتهدون فى توصيلنا إلى المقصلة ليجعلونا عقلاء وفاضلين، ويحملونا على عبادة الله الذى خلقهم على صورته .

فى الزمن الماضــى، كنتُ أقضــى الصــلاة فى كنيســة «الإيليت» بواسطة رجل مسكين من رجال الدين، والذى كان يقول بعد أن يشرب : «لانغتاب الآثمين أبدًا : نحن نعيش فيهم، مــا نحن إلا رهبــانٌ على غير استحقــاق !» «فــوافقنى » يا سيــدى، أن هذا الذى يلتهم الصلاة كــانت عنده مبــادىء أساسية صحيحة عن الحكومــة، كان يجب الرجوع إليها هنا ، وأن يحكم بين الناس وفقًا لما هم عليه، وليس وفقًا لما تريدهم أن يكونوا عليه .

كــانت المواطنة «تيفينان» متقــربة إلى العجــوز «بروتو»، فهى كــانت تعرف أن هذا الرجل قد عــاش عيشة بَذَخٍ فيما مضــى ، وأن تصورها عن هذه الذكرى البراقــة التى تُظهر الفقر الحالى لهذا الممــول السابق ، والذى تراه أقل خزيًا، وفقرًا عامًّا، وسببه الخراب العام .

---

(١) اليعقــوبيون : نسبــة إلى الراهب الدومينيكى يعقــوب. كــان عضوًا فى نــادٍ جمهورى إبَّان الثــورة الفرنسية . وهو مذهب ديموقراطى متطور .

كانت تتأمل فيه بإعجاب وباحترام ، فهو من فلول هؤلاء الكرام الذين كانت الممثلات الكوميديات اللاتى يكبرنها سنًا يُعَظِّمْنَهُم وهن يتنهدن . وكذلك كانت تصرفات هذا الرجل الطيب « بالريدينجوت الأحمر » المائل إلى السواد – ولكنه نقى ونظيف – كانت تحوز إعجابها .

قالت له : يا سيد «بروتو»، معروفٌ من زمنٍ مَضَى أنكَ كنتَ تنساب فى حديقة جميلة ، فى ليالى مضيئة، فى أيكات من الريحان . أنت وراقصات وكوميديانات على نغمات هادئة صادرة من المزامير والقيثارات.... وأسفاه ! لقد كُنَّ غاية فى الجمال، أليس كذلك ؟ ألم تكن إلَٰهاتُكَ بالأوبرا والمسرح الفرنسى، أجمل منا نحن الممثلات القوميات الصغيرات ؟

أجاب بروتو : لا تصدقى يا آنستى واعلمى أنه إذا كانت هناك فى ذلك الوقت فتاة تشبهك لكانت تنزهت بمفردها دون مُنافِسَة فى الأيكة التى تريدين أن تجعلى منها فكرة إطراء .

كان فندق «لاكلوش» فندقًا ريفيًّا. وكان فرع من شجر الآس معلقًا على باب يُفتح على ساحة أو فناء رطب دائمًا ، حيث يسعى الدجاج لالتقاط رزقه . وفى نهاية الفناء يرتفع السكن، ويتكون من دور أرضى وطابق واحد ، ومُعَمَّم بسقف من الآجر تغطيه الطحالب، وتكتسى حوائطه بشجيرات ورد كبيرة، مزدهرة جميعها بالورد . وعلى اليمين يوجد نبات العيهوم يُظهر أشواكه فوق الحائط المنخفض للحديقة . وعلى اليسار كانت الحظيرة بمِعْلَفٍ خارجى ، ومخزن ببناء مفرغ، وسلم مسنود إلى الحائط . ومن هذا الجانب أيضًا، تحت إحدى المظلات المكتظة

بالأدوات الزراعيـة، وعلى أرومات من أعلى عـربة قـديمة كـان يقف ديك أبيض يحرس دجاجاته .

كان البناء مقفـولا فى هذا الاتجاه بحظائر يرتفع أمـامها «الزِّبْل» كأنه ربوة عظيمة، وفى هذا الوقـت كانت فتاة عـريضة أكثر منهـا طويلة تُقَلِّب شعـرها الذى فى مثل لون التبن . كـان مـاء المزابل يملأ نعليهـا، وكـانت تغسل قدميها العاريتين وترفع كعبيها الأصفرين كالزعفران على فترات، وقـد ظهـرت من تحت تنورتها المرفـوعـة رَبَلَاتُ سـاقيهـا(١) ضخمـة وقصيرة .

وبينما كان «فيليب ديماهيس» يشاهدها مبهـوتًا، لاهيًا بلعبة الطبيعة الغريبة التى كونت هذه الفتاة العريضـة، نَادَى صـاحبُ الفندق قائلًا :

– هيه أيتها القُزْمة ! اذهبى وأحضرى بعض الماء !

التفتت، وأبدت وجهًـا قرمـزيًّا ، وفمًا عـريضًّـا حيث تنقصه إحـدى الأسنان . كـان لابـد من قـرن أحـد الثيران لفتح ثغـــرة فى هذه الأسنان القوية. وتضحك وهى حاملة مِذْراتها على كتفهـا. كانت ذراعاها تشبهان – فى حجمهما – فخذين تلمعان تحت أشعة الشمس .

أعدت المائدة فى القاعة السفلية، حيث كان الدجاج يُشْوَى تحت حجارة الموقد المزدان ببنادق قديمة . وكانت الصالة طولها أكثر من عشرين قدمًا، ومنقـوشة بالجير، ولم تكن مضـاءة إلَّا بالنوافذ الزجـاجية التى توجـد

(١) الرَّبَلات ، جَمْع رَبْلَة ، وهى : كل لحمة غليظة ، أو باطن الفخذ .

بالبا، ولونها أخضرَ باهتًا ، ونافذة واحدة محاطة بالورود ، والتى بقربها تجلس الجدة تدير دولابَ مَغْزَلها. وكانت تضع فوق رأسها منديلًا مُخَرَّمًا من عهد وصاية «دوق أورليانز». وكانت عقد أصابع يدها متسخه بالتراب، تُمسك بها المِغْزَل. وكان الذباب يحط على أطراف جفنيها، ولكنها لا تطرده. وهى كانت بين ذراعى والدتها حين شاهدتْ لويس الرابع عشر يمر فى عربته .

ومنذ ستين عامًا سافرت إلى باريس . وقد قصّت على النسوة الثلاث الواقفات أمامها بصوت ضعيف أنها رأت مبنى البلدية، والتويليرى، والسامرى، وأنها عندما كانت تعبر «لوبون رويال»(١)، كان يوجد قارب يحمل تفاحًا إل السوق، وكان به ثقوب، فانساب التفاح منها إلى الماء ، وتحوَّلَ سطح النهر إلى اللون الأحمر القانى .

وكانت قد علمت بالتغييرات الجديدة التى حدثت فى المملكة، وخاصة عن الشقاق الذى وقع بين «الأكليروس» المحلف، وغير المحلف. وكانت تعرف أيضًا أنه كانت توجد حروب ومجاعات، وظهور علامات فى السماء. ولم تصدق قط أن الملك قد مات، كانت تقول : لقد هربوه عن طريق أحد الأنفاق ، وسلموا للجلّاد رجلًا من العامة بدلًا منه .

وعند قدمى الجدة يوجد مهد به آخر مولود من عائلة «بواترين، جانو»، وكانت أسنانه فى طور النمو . رفعت «تيفينان» المهد وابتسمت للطفل الذى يتحرك بصعوبة، فقد أنهكته الحمى والمرض ، ولاشك أن

---

(١) الكوبرى الملكى .

مرضه شديد، لأنهم استدعوا له الطبيب، المواطن «بيلليبور» الذى كان فى الحقيقة نائبًا احتياطيًّا فى الجمعية الوطنية ، ولم يكن يدفع مطلقًا كشف الطبيب .

كانت المواطنة «تيفينان» – المدربة على أبيها – فى كل مكان، كانت متكدرة من الطريقة التى تغسل بها «الأورمة» الأوانى المنزلية، كانت تجفف الأقداح والشوك . وبينما كانت المواطنة «بواترين» تنضج الحساء وتتذوقه كمضيفة ماهرة، كانت «إيلودى» تقطع رغيف خبز وزنه أربعة أرطال إلى شرائح، وهو ما زال ساخنًا من الفرن ، وعندما رآها «جاميلان» تفعل ذلك ، قال لها :

– قرأتُ منذ بضعة أيام كتابًا كتبه شاب ألمانى لا أتذكر اسمه ، والذى تُرجم إلى الفرنسية ترجمة ممتازة، نقرأ فيها عن فتاة اسمها «شارلوت» التى – مثلك يا «إيلودى» – كانت تقطع فطائر – ومثلك –تقطعها بنعومة، وبطريقة جميلة جدًّا ، حتى أنه عندما رآها «ويرزير» الشاب[1] وقع فى حبها .

سألته « إيلودى » : وهل انتهى ذلك بالزواج ؟

– أجاب «إيفاريست» : لا ، انتهى ذلك بموت «ويرزير» الأليم .

تناولوا عشاءهم بشهية لأنهم كانوا جائعين، ولكن الطعام كان متوسطًا. واشتكى «جان بليز» من ذلك، لقد كان نَهِمًا جدًّا، ويرى أن

---

(١) آلام ويرزير الشاب أو آلام فرتر (١٧٧٤) . لها ثلاث ترجمات فرنسية .

الطعـام الجيد سُنَّة الحيـاة، ولا مراء فى أن من يخضع لنظام معين فـذلك يكون المجاعة بعينها . والثورة قلبت آنية الطهى فى جميع المنازل، والعامة من المواطنين ليس لديهم شىء يقتاتون به . أمَّـا الناس المهرة – مثل جان بليز – فهم يتكسبون كثيرًا من شقـاء الناس ، حيث يذهبون عند صاحب المطعم ويوضحون فكرهم وهم يتخمون بالطعام .

أمَّا بالنسبة إلى «بروتو» الذى – فى العـام الثانى للحرية – كان يعيش على القسطل ، وعلى فتات الخبـز، فقد ذكره بأنه كـان يتناول عشاءه عند «جـريمـو دى لارينيير» عند مدخل «الشـانزيليـزيه»، ورغبـة منه فى أن يحصل على لقب «ذَوَّاقـة» – أمام طعام الكرنب المطبـوخ بودك الخنزير ، والذى تطهـوه السيـدة «بواترين» – كـان يشـارك فى الآراء عن طرق الطهى، والقواعد التى تتعلق بالذوق .

ولما صَرَّح «جـاميلان» بأن أحـد الجمهـوريين يحتقر ملذات المائدة، أعطى المعالجُ العجوزُ ، هَاوِى الآثار القـديمة، الإسبارطىَّ الصغيرَ الصفة الحقيقية للطعام السائل الأسود (١).

وبعـد العشاء، يحمل «جـان بليـز» – الذى لم ينس الأعمال الجدية – أدواته ليعمل فى أكاديميتـه المتنقلة رسومـات تخطيطية للفندق الذى رأى أنه غاية فى الرومانسية فى تلفه . وبينما كان «فيليب ديماهيس» و «فيليب ديبـوا» يرسمان الحظائـر جـاءت «الأورمـة» تقـدم الطعـام للخنازير . ويقترب المواطن «بيلليبور» ضـابط الصحة، الذى خرج فى نفس الوقت من

(١) نوع من الطعام السائل ، مثل العصيدة .

الصالة السفلية حيث كان يعالج بواترين الصغير ، يقترب من الفنانين، وبعد أن قدم لهم إطراءه لمواهبهم التى شرفت الأمة كلها ، أشار إلى «الأورمة» وهى وسط خنازيرها وقال :

– « هل تَرَوْنَ هذه المخلوقة ؟ إنها ليست فتاة كما تعتقدون، بل هى فتاتين. أقول ذلك صراحة، لقد أدهشنى هيكلها العظمى ففحصتها، ولاحظت أن معظم عظام هيكلها مزدوجة : لكل فخذ عظمتان ملتحمتان معاً ، ولكل كتف ، عَظْمَتَا عضد . وكذلك لها عضلات مزدوجة. وفى رأيى أنها تَوْءَمٌ ملتصقتان بشدة، أو بتعبير أفضل : منصهرتان معًا .

هذه الحالة مهمة، وقد عرضتها على الأستاذ «سان هبلير» الذى عبر لى عن امتنانه. إن هذا الذى ترون عبارة عن وحش أيها المواطنون، وهؤلاء الناس يسمونها «الأورمة»، فكان أولى بهم أن يسمونها «الأورمتين»، لأنهما اثنتان. والطبيعة فيها كثير من هذه العجائب... عمتم مساء أيها الرسامون !. هذه الليلة ستهب عاصفة ...

وبعد تناول العشاء على ضوء الشموع، كَوَّن جَمْعُ «بليز» فى فناء الفندق – يصحبه الابن والابنة بواترين – فريقًا للعبة «الاستغماية» يعبر فيها السيدات الصغيرات والرجال الشباب عن حيوية يفسرها سِنُّهم بما فيه الكفاية، حتى لا نبحث عَمَّا إذا كان العنف وتقلبات الزمن قد نبهت حماسهم .

وعندما أسدل الليل ستاره تمامًا اقترح «جان بليز» أن يلعبوا فى الصالة السفلية ألعاب الأطفال. وطلبت «إيلودى» لعبة «صيد القلب» التى

لقيت قبـولا من المجموعــة. وبإرشادات الفتــاة رسـم «فيليب ديماهيس» بالطبـاشير على الأثاثات والأبواب والحوائـط سبعــة قلوب، بناقص قلب عن عدد الــلاعبين، لأن «بروتو» العجوز اتخذ مكانه بالمعــروف بين أفراد الفرقة.

كـانوا يرقصـــون فى حلقــة «الدائــرة تــأخــذ حــذرها» وبإشــارة من «إيلودى» جرى كل واحــد منهم ووضـع يده على أحد القلوب المرســومة. «جاميـلان» كان مشتتًــا، ووجد أن كل القلــوب قد تم الاستيـلاء عليها، وأعطى رهــانه المُدْيَــةَ الصغيرة التى اشتراهــا من ســـــوق «ســـــان جيرمان»بستة أَفْلُس، والذى كان قد قطع الخبز بها من أجل الأم الفقيرة. وأعـادوا اللفَّات من جــديد ، ولم يجد « بليز »، و « إيلودى »، و« بروتو »، و «تيفينان» قلوبًا ، وكُل منهم أعطى رهانه، خاتمًا، أو شبكة للشعر، أو كتابًا صغيرًا مجلدًا بجلد الماعز، أو سِوارًا، ثم بعد ذلك أجرى السحب على الرهونات فى حجر «إيلودى»، وكل فــرد لكى يسترد رهانه ينبغى عليه أن يبين مواهبه الاجتماعية، إمَّا أن يشدوَ بأغنية، أو يُقْرِضَ بعض الأشعار .

« بروتو » ألقى خطابَ رئيس فرنسا ، فى أول أغنية عن « جان دارك »:

« إننى دينيس[1] وقديس مهنتى

أحب الغال ... » .

---

(١) دينيس : مُبَشِّر إنجيلى فى بلاد الغال ، وأول أسقف بباريس فى القرن الأول أو الثانى ، وقُتل فى سان دينيس .

ومع أن المواطن « بليز » أقل علمًا بـالأدب فإنه قد سرد – دون تردد – إجابة « ريشموند »:

« سيدى القديس ، لم يكن من العناء
أن نهجر مجال السماء .... » .

وحينئذ قـرأ الجميع بمتعة العمل الفنــى لأريوست الفرنسى ، وكــان أكثر الرجال وقارًا يبتسمون من غـراميات «جان» و «دينوا»، والمغامرات العاطفية لآنيبيس و «مونرون»، ومغـامرات الحِمَار المجنَّح.. وكان جميع المثقفين يعرفون عن ظهر قلب أجمل ما فى هذه القصيدة الفلسفية المسلية.

و «إيفاريست جـاميلان» نفسه – بالرغـم من شِدَّةِ طبعه عندمـا كان يأخذ من حجــر «إيلودى» مديته الــرخيصة كان ينشــد عن طيب خاطر ، دخول «جــريسبوردون» إلى الجحيم والمواطنة «تيفينــان» شَدَتْ – دون صحبة – أغنية «نينا » : « عندما يعود المحبوب ». و «ديماهيس» غَنَّى على لحن « الفريدوندين » :

« البعض قد أخذوا خنزير أنطوان ،
هذا الراهب الطيب ،
وألبسوه عباءة
وجعلوه راهبًا ،
ولم يكلفه ذلك سوى اليسير ... » .

كــان «ديماهيس» حينئذ مشغـول البــال ، ففى هذا الوقت كــان يحب

النسـوة الثلاث بشـدة ، واللائى لعب معهن «لعبة الرهان»، وكـان يرمق كل واحدة منهن بنظرات هادئـة ومُحْرِقة . كـان يحب «تيفينان» لرقتها، وليونتهـا، وفنها الراقى ، وغمـزاتها ، وصوتها الذى يمس نيـاط القلب. وكان يحب «جوليـان هازارد»، بالرغم من شعرها عديم اللون، وأهدابها البيضـاء، وقـوامهـا النحيل، لأنه كـان مثـل «دينوا» الذى تحدث عنه «فولتير» فى العذراء «جان دارك»، كان دائمًا مستعدًّا بكرمه أن يمنح الأقل جمالا علامة حب بقدر ما تبدو له، حتى لا تشغل نفسها بأى شىء ، ومن ثم الأكثر قبولا .

كان خاليًا من أى زَهْوٍ ، ولم يتأكد مطلقًا أنه سيلاقى قبولًا ، ولم يكن متأكـدًا أن يناله قط . وكـذلك كـان يهب نفسـه لكل مُصادفـة ، منتهـزًا اللقـاءات السعيـدة والمرحـة فى لعبـة « الرهان المطلوب »، فتبـادل بعض الحديث الودِّى مـع «تيفينان» التى لم تغضب منـه ، ولكنهـا لم تستطع مطلقًا أن تُجيبه بسبب نظرات الغيرة فى عيون المواطن « جان بليز » .

وتحدَّثَ أيضًا مع المواطنة «إيلودى» بحديث أكثر عاطفة ، وهو يعرف أنها مرتبطة بجاميلان ، ولكن لم يكن الوضـع مُلِحًّا لأن يمتلك قلبًا لنفسه فقط ، و «إيلودى» لا تستطيع أن تحبه، ولكنهـا ترى أنه ظريفٌ ، وهى لم تنجح فى أن تخفى ذلك عنه . وأخيرًا حمل رغبـاته الجامحة كلها ليقـدمها إلى أذن المواطنة «هازارد» التى كـانت ترد عليـه وهى فى حيرة يمكن أن تعبر عن إذعان إجبارى، كما أنها عبر عن لامبـالاة عابسة وعدم اكتراث ، و «ديماهيس» لا يعتقد أبدًا أنها لا تبالى .

ولا يوجد فى «الفندق» سوى غرفتين للنوم فى الطابق الأول، وعلى نفس المشى، والغرفة التى توجد على اليسار كانت مزينة بأوراق الزهور، وبمرآة فى حجم اليد ، وقد تعرض إطارها المُذَهَّب إلى إساءة الذباب منذ طفولة لويس الخامس عشر . هنا - تحت قبة سرير بنسيج هندى مشجر - ينتصب سريران تزينهما وسائد محشوة بريش الطيور، ولحاف محشو بالريش، وأغطية سراير . هذه الغرفة كانت محجوزة للمواطنات الثلاث .

وعندما حان وقت الانصراف حَمَلَ كلٌّ من «ديماهيس» و المواطنة «هازارد» شمعدانه، وتبادلا تحية المساء فى الردهة . أَمَّا النَّحَّات العاشق فأعطى ابنة بائع الألوان ورقة، راجيًا فيها أن تلحق به عندما يكون الجمعُ نائمًا، وذلك فى المخزن الذى يقع بأعلى غرفة المواطنات الثلاث .

وكان متبصرًا وعاقلًا، فقد تفقَّدَ مداخل وقسمات الفندق ، وتفقد المخزن الممتلئ بحزم البصل ، وفاكهة مجففة ، وصناديق ، وحقائب قديمة. وَرَأى أيضًا سريرًا تالفًا وغيرَ صالح للاستعمال ، ومرتبة من القش مبقورة ، حيث كانت تتقافز منها البراغيت .

وفى مواجهة غرفة المواطنات كانت توجد غرفة بها ثلاثة أَسِرَّة، صغيرة نوعًا ما ، حيث لابد أن ينام المواطنون المسافرون حسب راحتهم. ولكن «بروتو» الذى كان سيباريتى (أى : محبًا للملذات) ذهب إلى المخزن لينام على حشائش العلف المجففة .

أمَّا بالنسبة إلى «جان بليز» فقد اختفى . ولم يلبث «ديبوا» و«جاميلان» أَنَ ناما . ويرقد «ديماهيس» على السرير، ولكن عندما خيم

سكون الليل على الفندق كأنه صفحة المياه النائمة، نَهَضَ النَّحَّات وارتقى الدرج الخشبى الذى كانت درجاته تطقطق تحت أقدامه العارية.

كان باب المخـزن مُوارَبًا، وكـانت تنبعث منه حرارة خـانقة، وروائح نَفَّاذة من فـاكهة عفنة. وعلى السرير التالف كانت تنام «الأورمـة» فاتحة فَـاهَا، وقيمصهـا منحسر ، وسـاقـاهـا مبتعـدتان عن بعضهما . كـانت ضخمـة، وشعـاع من القمـر يتسلل من المَنْـوَر ، مختلطًا بلون السماء واللون الفضى على بشرتها التى تبـدو بين القشور والقـاذورات الملطخة بماء المزابل بَضَّةً ، وتضوى بالشباب .

ألقى «ديماهيس» بنفسه عليها ، فاستيقظت مـذعورة ، كانت خائفة ، وصاحت ، ولكن بمجرد أن أدركت ما هو المراد منها اطمأنت ، ولم تُقاوم أو تعترض ، وتظاهرت بأنها غـارقة فى سُبـات شبه عميق ، يحرمهـا من الوعى بالأمور، ولكن يسمح لها ببعض الإحساس ....

وعاد «ديماهيس» أدراجـه إلى غرفتـه ، حيث نام حتى أشرقت شمس النهار نومًـا هادئًا وعميقًـا . وفى اليوم التالى – بعـد آخر نهار فى العمل – واصلت المجموعة الطريق إلى باريس .

وعندما دفع «جان بلين» إلى صـاحب الفندق بحوالة حكومية، اشتكى المواطن «بواترين» من أنه لم يكن يرى إلا «النقود المربعة»، ووعد بشمعة جميلة إلى الشخص الذى سوف يُعيد القطع الذهبية .

وقَـدَّمَ أزهارًا إلى المواطنات ، وذلك أنه أَمَـرَ «الأورمـة» فصعـدت على سلم ، لابسـةً خُفًّا ، وترفع ثوبها عن سـاقيها ، وتظهـر رَبَلات ساقيهـا

اللامعتين ، وقطفت – بدون ملل – الورود المتسلقــة التى تغطى الحـائط .
ومن يديها العـــــريضتين سقط وابِلٌ من الورود كـــــالسيل على تنورات
«إيلودى» المنبسطة ، و « جــوليــان » ، و « تيفينان » . وتُمْلَأُ العـربة منه،
ويعـود الجميع إلى منازلهم يحملون باقــات منه بين أحضــانهم ، فيعطّر
شذاه سباتهم ويقظتهم .

* * *

فى صباح السـابع من سبتمبر توجهت المواطنة «روشيمور» إلى المُحَلِّف
«جاميـلان»، حيث إنها تريده أن يهتم ببعض المشتبه فيهم من معـارفها،
وفى الردهة قابلت «بروتو ديزيليت» الذى كانت تحبه فى أيام يُسره . وكان
«بروتو» يحمل اثنتـى عشرة دستــة من الدُّمَى التى يصنعهـــا بطريقتــه
ليسلمها إلى تاجر اللعب فى شـارع «لالوا». كان مضطرًّا أنِ يحملها بطريقة
سهلة، بأن يعلقها على طرف عصًا، مثل الباعة الجائلين .

وقـد كان يتصرف بظرف مع جميع السيـدات، حتى مع هؤلاء اللائى
أنهكنه بجاذبيتهن، كما هى الحالة بالنسبة إلى السيدة «روشيمور» ، فهى
على الأقل مُوَجِّهةٌ إليها اللوم بالخيانة، والغفلة، وعدم الإخلاص، والبدانة،
وهو لم ير أنها جذابة .

وعلى كل حــال فقـد قابلهــا على «بَسْطَة السلم» القـذرة، ذات البــلاط
المفكك، مثلما كان سـابقًــا على سلالم مدخل ديزيليت، ورَحَّبَ بها ، وطلب
منهـا أن تشرفه بزيارة مخزنه. صعـدت السلم بخفــة، ووجدت نفسهــا

تحت « صقالة » تحمل أعمدتها المنحنية سقفًا من القرميد به كُوَّة .

ولا يستطيع المرء أن يظل واقفًا فى هذا المكان، فجلست على المقعد الوحيد الموجود فى هذا المكان، وجالت ببصرها للحظة على القرميد المفكك، وسألت، مندهشة وحزينة :

- هل تعيش هنا يا «موريس» ؟ ألم تَخْشَ المزعجين ؟ لابد أن يكون المرء عفريتًا أو قطة ليصل إليك .

أجابها قائلًا : أنا لا أمكث فيه كثيرًا ، ولا أُخفى عليكِ أن المطر يسقط أحيانًا على سريرى الحقير ، وذلك مانع ضعيف . وفى الليالى الهادئة أرى منها القمر الذى هو صورة وشهادة لغراميات البشر . لأن القمر ياسيدتى ، جُعِل فى كل وقت ليشاهده المحبون، وفى اكتماله أصفرَ شاحبًا ومستديرًا ، يُلهم العاشق بجوهر رغباته وأمانيه .

أجابته المواطنة قائلة : فهمت .

وقال «بروتو» مستطردًا : تصدر عن القطط ضوضاء جميلة من هذا المزراب، ولكن يجب أن نستميح عذرًا للحب، فلها أن تموء وأن تتواعد على الأسقف، فقد امتلأت حياة البشر بالآلام والجرائم .

كان الاثنان من التعقل بحيث أنهما تلاقيا كأصدقاء افترقا فى اليوم السابق ليذهب كل منهما لينام، وعندما صارا غريبين ، كل منهما عن الآخر، تبادلا الحديث معًا بودٍّ، ودون كلفة .

كانت مدام «روشيمور» تبدو مهمومة بسبب الثورة، التى كانت دائمًا مبتسمة لها ومثمرة، الآن تحمل إليها الهموم والقلق، وحفلات عشائها

أصبحت أقل تألقًا، وأقل بهجة . وفقدت نغمات قيثارتها تأثيرها المتألق على الوجوه الحزينة، وهجر موائد اللعب عندها أغنى أغنياء من الشخصيات الهامة. والكثير من معارفها المقربين الآن أصبحوا مشبوهين وقد اختفوا، وقُبِضَ على صديقها المول «مورهاردت» وتم اعتقاله، ومن أجله جاءت إلى المحلف «جميلان» لتترجاه، بل هى نفسها كانت مشتبه فيها. بعض الحرس الوطنى قد قاموا بتفتيش مسكها، قلبوا أدراج خزائنها، ورفعوا بعض رقائق «الباركيه»، كما بقروا بعض المراتب بضربات من «السُّنْكى». ولم يجدوا أىَّ شىء، وقدموا لها اعتذارهم، وشربوا نبيذها . وقد كادوا أن يمروا بالقرب من رسائلها مع أحد المهاجرين يدعى «م. ديكسبيلى» وقد أنبأها بعض أصدقائها من اليعقوبيين بأن «هنرى» الجميل حبيب قلبها، أصبح معرضًا للشبهة بسبب عنفه الذى يتجاوز حدوده ليظهر بمظهر المخلص .

كانت جالسة متكئة بمرفقيها على ركبتيها ، وتسند خديها بكَفَّيْها وهى واجمة . وتسأل صديقها القديم ، الجالس على الحشية :

– ما رأيك ؟ مَنْ وَرَاء كل ذلك يا « موريس » ؟

●أعتقد أن هؤلاء الناس أعطوا أحد الفلاسفة وهواة العروض مادة دسمة للتأمل واللهو، ولكن من الأفضل بالنسبة لكِ يا عزيزتى أن تكونى خارج فرنسا .

– موريس ، إلى أين سيؤدى بنا ذلك ؟

● هذا يا «لويز» ما سألتينيه ذات يوم حينما كنا فى عربة على شاطئ «الشير»، على طريق ليزيليت، عندما كان جوادنا الذى كان ملجمًا قد جمح بنا جموحًا مخيفًا.. فما أشَدَّ حُبَّ النساء للاطِّلاع !

والآن أيضًا تريدين معرفة إلى أين نحن ذاهبون ؟ فاسألى العرَّافين عن ذلك، فأنا لستُ كاهنًا أو عرَّافًا يا صديقتى . وحتى الفلسفة الأكثر صلاحًا ما هى إلا معونة ضعيفة لمعرفة المستقبل . هذه الأمور سوف تنتهى ، لأن كل شىء ينتهى، ويمكن التكهن فيها بمنافذ متعددة: انتصارالتكتل، ودخول الحلفاء باريس، فهم ليسوا بمنأى عنها، ومع ذلك فإنى أشك فى وصولهم إليها .

هؤلاء الجنود - جنود الجمهورية - يقاتلون بحمية لا يستطيع أحد أن يخمدها . وقد يتزوج «روبسبير» من مدام «رويال» ويطلق على نفسه اسم حامى المملكة أثناء القصور الشرعى للويس السابع عشر .

صاحت المواطنة وقد نفد صبرها لتنغمس فى هذه المغامرة الجميلة : هل تعتقد ذلك ؟

واستطرد «بروتو» قائلا : إن «الفاندية» قد تتغلب عليه، وأن جمهورية الكهنة قد تتأسس ثانية على أكوام من الأطلال، وتكدسات من الجثث. لن تستطيعى يا صديقتى العزيزة أن تدركى أن الإمبراطورية التى يحرسها الأكليروس بكثرة الحمير ، عفوًا أقصد بكثرة «الأنفس»، زلَّة لسان. إن الأكثر احتمالًا - فى اعتقادى - أن المحكمة الثورية سوف تؤدى إلى تدمير النظام الذى أسسته، فهى تهدد العديد من الرءوس،

وهؤلاء الذين تخيفهم لا يُحْصَى عددهم، إنهم سيجتمعون، ومن أجل تدميره سوف يدمرون النظام. وأعتقد أنكِ قد سَعَيْتِ لتعيين «جاميلان» فى هذا المنصب ، فهو رجل فاضل، وسوف يصبح مخيفًا . وعلاوة على ذلك فأعتقد أن هذه المحكمة التى أُنشئت لإنقاذ الجمهورية هى التى سوف تفقدها .

كانت الجمعية الوطنية تريد – مثل المَلَكيّة – تريد أن يكون لها أيام أعياد خاصة هبا ، وكذلك تكون لها محكمتها الخاصة بها، وتتوفر أمنها عن طريق قضاة مُعَيَّنين عن طريقها، ومُلْزَمين بتبعيتها. ولكن أعياد الجمعية الوطنية تبدو أدنى من أعياد الملكية، وأن محكمتها الثورية أدنى سياسة من محكمة لويس الرابع عشر المحرقة !

كان يسود محكمة الثورة شعور بعدالة وضيعة، ومساواة سطحية تجعلها فى الحال مضحكة وممقوتة، ومثيرة لنفور الناس أجمعين.

هل تعلمين يا «لويز» أن هذه المحكمة التي سوف تدعو ملكة فرنسا وواحد وعشرين من مُشَرِّعيها للمثول أمامها، قد أدانت بالأمس خادمة مذنبة لأنها هتفت: «يعيش الملك !» بنية سيئة، وبفكرة هدم الجمهورية ؟ إن قضاتنا جميعًا المتشحين بالسواد المزين بالريش يسيرون على نهج «وليم شكسبير»، العزيز جدًّا على الإنجليز، والذى أدخل على المسرحيات التراجيدية لمسرحه، هزليات غير مُتقنة .

سألته المواطنة : حسنًا يا موريس .. هل أنت دائمًا سعيد بالحب ؟

أجـاب بروتو : يا للأسف ! الحمام يحط على البرج الأبيض، ولا يحط مطلقًا على برج مُقَوَّض .

قالت له : إنكَ لم تتغير .... إلى اللقاء يا صديقى !

فى هذا المســاء ، كان «هنرى» جندى الخَيَّـالة (الفارس)، متوجهًـا عند مدام «دى روشيمـور» من غير أن يُطْلَبَ منه ذلك، فوجـدها تختم خطابًا قرأ عليه عنوانَ المواطن «رولين» فى «فيرنون» .

كان ذلك – كما يعرف – خطابًـا إلى إنجلترا . و «رولين» كان قد تسلَّم بريد مـــدام «دى روشيمـــور» عن طريق حـــوذى البريد وأرسله إلى «دييب»(١) عن طريق بائع سمك. ثم سلمه قائد أحد القوارب – ليلًا – إلى سفينة بريطانية كانت تطوف بالساحل، وتسلَّمــه أحد المهاجرين (م. دى اكسبيلى» فى لندن، وعندما رآه مُهِمًّا، سلمه إلى مكتب «سان جيمس» .

«هنرى» كان شابًّا وسيمًا، و «آخيل» لم يكن جامعًا لمثل تلك الوسامة ومثل تلك القـوة عندمـا تقلَّدَ أسلحتـــه التى قـدمهـا له «أوليس»، ولكن المواطنة «روشيمور» التى كانت فيما مضـى متأثرة بسحر جمال الشاب بطل مجلس العمـوم تحولت عنه فكـرًا وروحًـا، منذ أن أُخطرت بأن هذا الجندى الشاب يمكن أن يتسبب فى شبهتها وتدميرها .

«هنرى» كـان يشعر أنه ربما لن يستطيع التحكم فى قُـواه ، وألَّا يحب مدام «روشيمور»، ولكن الذى كان يـؤلمه أنها لا تخصه مطلقًا بأى ميزة،

---

(١) دييب : مدينة فرنسية .

وقد كان يعتمد عليها لاستيفاء بعض النفقات التى كانت المخابرات الجمهورية قد كلفته بها .

وأخيرًا، عندما فكر فى أقصى ما يمكن أن تُوضع فيه النساء، وكيف يتغيرن بسرعة من الحنان الشديد إلى أقصى درجات الجمود والبرود، وكم من اليسير عليهن أن يُضَحِّين بأعز ما لديهن، وأن يُدَمِّرْنَ من يُحببن إلى درجة العبادة، وقد رواده الشك فى أن هذه المرأة «لويز» يمكنها فى يوم الأيام أن تزج به إلى السجن لتتخلص منه. وقد رأى أن من الحكمة أنْ يغزو هذا الجمال المفقود مرة أأخرى، ولهذا فقد جاء مسلحًا بكل وسائل سِحْرِه .

كان يقترب منها ، ثم يبتعد ، ثم يقترب مرة أخرى، يمسها ، ثم يبتعد عنها، حسب قواعد الإغراء فى رقصات الباليه، ثم ألقى بنفسه على المقعد، وبصوته الذى لا يُقهر، والذى يصل إلى قلوب النساء، امتدح لها طبيعة الوحدة، واقترح عليها - وهو يتنهد - نزهةً فى «إيرمينوفيل»(١) .

حينئذٍ ضربت على قيثارتها بعض الأنغام، وصوبت حولها بعض النظرات، التى تنم عن الضيق ونفاد الصبر .

وفجأة نهض «هنرى» وانتصب عابسًا وحانقًا، وأخبرها أنه سيذهب إلى الجيش، وبعد بضعة أيام سيكون أمام مدينة «موبيج». ودون أن تبدى أى دهشة أو ارتياح أجابته بإشارة من رأسها .

---

(١) إيرمينوفيل : قرية فرنسية مدفون فيها جان جاك روسو .

فقال «هنرى» : ألن تهنئيننى على هذا القرار ؟

- أُهنئك على ذلك .

كانت تنتظر صديقًا جديدًا أُعجبت به إلى أقصى درجات الإعجاب، وكانت تعتقد أنها ستحصل منه على مكاسب كثيرة، كانت تنتظر «ميرابو» المبعوث من جديد ، أو «دانتون» المهذب، والذى صار مُمولًا، أو أحد السباع الذى كان يتحدث عن إلقاء جميع الوطنيين فى نهر السين. و فى كل لحظة كانت تنتظر أن تسمع رنين الجرس، فتسرى فى جسدها رعشة.

وحتى تجعل «هنرى» ينصرف تظاهرت بالتثاؤب، والتزمت الصمت، وتصفحت نوتة موسيقية كانت معها، ثم تثاءبت مرة أخرى، وعندما رأت أنه لا يريد الانصراف قالت له إنها يجب أن تخرج . وانصرفت ودخلت غرفة زينتها .

صاح عليها بصوت متأثر :

- وداعًا يا «لوين» !.... ربما لا أركِ إلى الأبد ؟ وعبث بيديه فى درج المكتب المفتوح يتصفح ما يجده .

وبمجرد أن وجد نفسه فى الشارع فض الرسالة المرسلة إلى المواطن «رولين» وقرأها باهتمام. فى الحقيقة كانت الرسالة تحتوى على لوحة عجيبة عن حالة الفكر العام فى فرنسا . تتحدث عن الملكة وعن «تيفينان»، وعن المحكمة الثورية، وأحاديث كثيرة ودية عن «بروتو ديزيليت» الطيب.

وبعد أن أنهى قراءة الرسالة ووضعها فى جيبه تردد للحظات، ثم اتخذ قراره، وحَدَّثَ نفسه قائلًا : إن خير البر عاجله. وتوجه إلى قصر «التويليرى»، وتسلل إلى غرفة الانتظار للجنة الأمن العام .

فى هذا اليوم، فى الساعة الثالثة بعد الظهر، كان «إيفاريست جاميلان» يجلس على مقعد المحلفين بصحبة أربعة عشر زميلًا يعرف معظمهم، إنهم أناس بسطاء، أشرافٌ ووطنيون، وعلماء وفنانون، وحرفيون، أحد الرسامين كان مثله، ومصورٌ آخر، الاثنان يتمتعان بالموهبة. وهناك جراح، وإسكافى، وماركيز سابق، قَدَّمَ العديد من الأمثلة على وطنيته، وطبَّاعٌ، ومن صغار التجار ، وعيِّنة من عيِّنات سكان باريس كانوا يجلسون هناك، كل منهم بزيِّه الخاص، عاملًا كان أو من البورجوازيين، شعرهم مقصوص على طريقة تيتوس (قصير من الأمام ومن الخلف على طريقة الإمبراطور تيتوس)، أو يرتدون الكاتوجان (وهو عبارة عن ضفائر مجدولة ومنسدلة على الرقبة والصدر)، والقبعة المقرنة ساقطة على رءوسهم حتى العيون، أو القبعة المستديرة موضوعة على مؤخرة الرأس، أو القلنسوة الحمراء التى تُخفى الأذنين .

البعض كانوا يرتدون «الجاكت» ورداءً وسروالا، كما فى العهد السابق، وآخرون يرتدون سُتْرَةً قصيرة وسروالًا مخططًا على طريقة اللامتسرولين. وفى أقدامهم أحذية (بوت) أو أحذية (بالإبزيم)، أو خِفَاف، فكانت شخصياتهم تمثل جميع نوعيات الملابس الرجالى السائدة حينئذ . ونظرًا إلى أنهم جميعًا قد جلسوا على مقاعدهم كثيرًا وتعودوا على ذلك،

فإنهم يبدون فى راحة تامة على مقاعدهم، فى حين كان «جاميلان» يحسدهم على هدوئهم. ويخفق قلبه، ويشعر بطنين فى أُذنيه، وعيناه تختلجان، وكل ما يحيط به يبدو له فى لون داكن .

وعندما صاح الحاجب قائلًا : «محكمة »، اتخذ ثلاثة من القضاة مقاعدهم على منبر صغير أمام منضدة خضراء ، مُرتدين قبعة بإشارة وطنية، تعلوها ريشات سوداء، وروب الجلسة بشريط ثلاثى الألوان، وتتدلى على صدروهم ميدالية فضية ثقيلة . ويجلس أمامهم – أسفل المنبر – نائب المدعى العام مرتديًا بدلة مماثلة. وكان الكاتب يجلس بين هيئة المحكمة، وكان مقعد المتهم شاغرًا. كان «جاميلان» يرى هؤلاء الناس مختلفين عَمَّا كان يراهم من قبل، كان يراهم أكثر جمالًا ، وأكثر وقارًا، وأكثر مهابةً، بالرغم من أنهم يتناولون حالات شائعة، ويتصفحون أوراقًا ، وينادون على الحاجب ، أو يميل الواحد منهم إلى الخلف ليستمع إلى بعض البيانات من مُحلِّف ، أو ضابط فى الخدمة . وخلف القضاة كانت ألواح حقوق الإنسان معلقة، وعلى يمينهم وعلى يسارهم – على الحوائط الإقطاعية القديمة – تمثالان نصفيان لكلٍّ من «لوبيلتييه دو سان فارجو»، و «مارات». وفى مواجهة مقعد المتهمين – فى نهاية القاعة – تنتصب المنصة العامة . وبعض النسوة يُزَيِّنَّ الصف الأول، منهن الشقراوات، ومنهن السمراوات، أو الشهباوات، كُنَّ يرتدين على رءوسهن غطاءَ رأسٍ يُغطيه خِمارٌ ، كما يظلل أيضًا خدودهن، وعلى صدورهن – حسب الموضة للصدور الممتلئة – ينعقد منديلٌ أبيض حيث تنحرف «ياقته» على المريلة الزرقاء . كن يرتكزن بأذرُعِهِنَّ معقودة على

حـافـة المنصـــة. ومن خلفهن كـان يوجـد بعض المواطنين المتناثرين على المقاعد، يرتدون أزياءً مختلفة ومتنوعـة، تضفى على الدهماء طبعًا غريبًا ومثيرًا للإعجاب. وعلى اليمين – عند المدخل تقـريبا، خلف أحـد الحواجز الثابتـة – يمتد مكان يقـف فيه الجمهـور. كان العدد هـذه المرة قليلًا. إن القضيـــة التى يتناولها قطاع المحكمـــة لا تهم ســـوى عـــدد صغير من الحاضرين، ولاشك أن القطاعـــات الأخـرى التى تجتمـع فى نفس الوقت تستدعى قضايا تهم كثيرًا من الناس .

ذلك ما كـان يُطمئن «جاميلان» قليـلا، والذى يوشك قلبه أن يضعف ولن يتحمل جو الجلسات الكبيرة الملتهبة . عيناه تتعلقان بأدق التفاصيل، كـان يلاحظ وجـود القطـن فى أُذن المُوَثِّق، ووجـود بقعـة حبر على ملف النائب. وكان يرمق بكل دقة تيجان الأعمـدة المنحوتة فى زمن ضاعت فيه كل معرفة بأصول الفن القديم، فتعلو الأعمدة القوطية باقاتٌ من الزهور ونبـات الآس والشـوك. غير أن نظراته كـانت تعـود دون انقطاع إلى هذا المقعـد العتيق، المزين بالقطيفة الحمـراء المتآكلة ، والمسـودة فى المسندين. وكان يوجد أفراد من الحرس الوطنى بأسلحتهم يسدون جميع المنافذ .

وأخيرًا ظهـر المتهم يحرسه رمـاة القنابل اليدوية، ومع ذلك كـان غير مقيد الأعضاء كما حدد القانون . كان رجلًا فى حوالى الخمسين من عمره، نحيفًـا، ضـــامـرًا، أسمـرَ اللون، أصلعَ الرأس، أجـوفَ الخَدَّيْن، رقيق الشفتين، ولونهما بنفسجى، وكـــان يـرتدى مـــلابس حسب الموضـــة القديمة.

كـانت عيناه تتألقـان كأنهما من الأحجـار الكريمة، وتظهـر خـدوده لامعة، وذلك لأنه كان مصابًا بالحُمَّى . وجلس. كـانت ساقاه المشتبكتان نحيلتين إلى درجـة كبيرة، ويداه الكبيرتان المعقـوتان يلفهما معًا . وكـان يُسَمَّى «ماري أدولف جيليرج» وكان متهمًا بتبديدٍ فى أعلاف الجمهورية .

أدانه قــرار الاتهام بتهم كثيرة وخطيرة، ولم تكن أى واحـدة منهـا مـؤكدةً. وبسـؤاله، عنهـا نَفَى معظم هذه التهم، وفسر الأُخـرى تفسيرًا مـلائمًا له. كـانت لهجته مختصرة وباردة، وبصفـة خـاصـة كان لبقًـا، ويوحى بأنه رجل لا تـأمل أن تحصل منه على شىء. كـانت عنده إجـابة لكل سـؤال . وعندما يـوجه إليـه القـاضى سؤالًا محرجًـا تظل قسماتُ وجهـه هادئةً، وثابت القـول، مع إسناد يديه على صـدره، متقلصتين من القلق.

لاحَظَ «جاميلان» ذلك ، وهمس فى أُذن جاره، وهو رسام مثله :

-أُنْظُرْ إلى إبهاميه !

ويأتى الشـاهد الأول ببعض الاتهامـات المُفْحِمَة. وعليهـا تُبنى جميع الاتهامـات، وهؤلاء الذين نُـودى عليهم فيما بعـد، أوضـحـوا العكس، فى صـالح المتهم. كـان نائب المدعى العـام محتـدًّا، ولكنه التـزم الصمت، وتحدث الدفاع بلهجـة حقيقية، والتى كانـت تعنى بالنسبة للمتهم بعض التعاطف الذى لم يعرفه من قبل .

رُفعت الجلسة، واجتمع القضاة فى غرفـة المداولات. وفى الغرفة – بعد مناقشات غـامضة ومشـوشة – انقسموا إلى مجمـوعتين متساويتين فى

العـدد تقـريبـًـا، فَنَرى من جهــة، غير المتحيـزين، والخاملين، وأصحــاب البراهين، لا تحركهم أى عــاطفــة، ومن جهــة أخــرى، نجــد هؤلاء الذين ينقادون خلف إحســاسـهم، فلا تؤثر البراهين فيهم إلّا قليــلًا ، ويحكمون بقلوبهم، أى بعواطفهم، وهؤلاء كانوا يُدينون دائمًا. هؤلاء كانوا الطيبين، والمُصْطَفِين، لا يفكرون إلا فى إنقــاذ الجمهــورية، ولا يهتمــون بغير ذلك، وكان لموقفهم تأثير كبير على «جاميلان» الذى أحس أنه مُتَّحِدٌ معهم.

إن «جيليرج» هذا – كما يتصـور – مــا هو إلا محتالٌ حــاذق ، نَصَّاب، ضَــارَبَ على علف الخيــول فى سلاح فرســاننا، وتبرئته تُعتبر إفــلات أحد الخائنين، وبذلك تُعَدُّ خيانة للوطــن، وتدفع بالجيش إلى الهزيمة ». وكان «جاميــلان» يتصـور خَيَّالة الجمهــورية على مطاياهم التى تتعثر ، وتعمل فيهم سيـــوف فـــرســـان الأعـــداء .... «ولكن إذا كــان «جيليرج» هذا بريئًا؟....».

ويفكر فى الحال فى أمــر «جــان بليز» وهو مشكوك فيــه أيضًــا بالغش وعدم الأمــانة فى التوريدات. وآخــرون كثيرون يتصرفون مثل «جيليرج» و«بليز»، يتسببــون فى الهزيمة وضياع الجمهــورية ! لابد من عمل يكون قدوة وعبرة.. ولكن إذا كان «جيليرج» بريئًا ؟...

قال «جاميلان» بصوت عالٍ :

– « لا توجد أدلة ».

قــال رئيس المحلفين وهو يرفع كتفيــه تهكمًا : لا توجــد أدلةٌ مطلقًــا ! طيب ، وآمين.

وأخيرًا حصل على سبعة أصوات للإدانة، وثمانية أصوات للبراءة. وعادت هيئة المحلفين إلى القاعة، واستُؤْنِفَتِ الجلسة. كان المحلفون ملتزمين بإصدار حكمهم، كُلٌّ تحدث بدوره أمام المقعد الخالى . البعض كانوا مُطنبين، والآخرون كانوا يكتفون بكلمة، وكان من بينهم من ينطق بكلماتٍ بلهاء. وعندما جاء دور «جاميلان» نهض وقال :

– أمام جريمة كبيرة مثل هذه – تجاه المدافعين عن الوطن – لابد من وسائل الإقناع. نريد أدلة دامغة لم تتوفر لدينا، وبأغلبية الأصوات. وأعلن أن المتهم غير مذنب .

بعد ذلك مَثُل «جيليرج» أمام القضاة، تصحبه همهمة من المشاهدين يُنبئونه ببراءته. لقد أصبح رجلًا آخَرَ، انفردت قسمات وجهه بعد انكماشها، وابتلت شفتيه الجافتين، كان مظهره يوحى بالاحترام، ويعبر وجهه عن البراءة .

قرأ رئيس الجلسة بصوت متأثر قرار براءة المتهم، وضجت القاعة بالتصفيق، والحارس الذى كان يصطحب «جيليرج» ارتمى فى أحضانه، والرئيس ناداه وعانقه معانقة الإخوة، والمحلفون قَبَّلُوهُ ، و «جاميلان» بكى بكاءً حارًّا .

وفى فناء القصر الذى تضيئه آخر أضواء النهار كانت هناك معمعة مهتاجة. وفى اليوم التالى أعلنت القطاعات الأربعة فى المحكمة ثلاثين حكمًا بالإعدام. وعلى دَرَجِ السُّلم الكبير كانت بعض الحائكات يجلسن

القرفصــاء ينتظرن رحيل العربات. أمــا «جاميــلان» فكان ينزل الدرجْ فى وســط المحلفين والحاضرين، لا يسمــع أى شىء إلا حكـم العـــــدالــة والإنسانية، والتهانى التى هنأ بها نفسه لأنه عثر على البرءاة .

وفى الفناء كانت «إيلودى» متشحة بالبياض، دامعةً مبتسمة، وارتمت بين أحضانه، وظلت صامتة، وعندما استردت نبرات صوتها ، قالت له :

– أنت جميل يا «إيفاريست»، وطيب، وكريم ! فى هذه القاعة كانت رنة صوتك كلهـا رجولة وهدوء، وقد نفـذت فى كيانى موجـاتها المغناطيسية وكهربتنى. كنت أتأملك فى مقعدك. لم أَرَ سواك. ولكنك يا صديقى لم تكن تكهنت بحضورى ؟ ألم يدلك شىء على أنى كنتُ موجودة ؟ كنتُ جالسة فى المنصة، فى الصف الثانى على اليمين. يا إلٰهى ! كم هو جميل فعل الخير! لقد أنقذت هذا البـائس ، ولولاك لَانْتَهَى أمره وأصبح من الهالكين. وأنت رددته إلى الحياة، وإلى حب ذويه .

فى هذا الوقت كـان عليـه أن يباركك . يا «إيفـاريست»، كَمْ أنا سعيـدة وفخـورة بأننــى أحببتك ! وسَــارَا معًــا متــلاصقين تتشـــابك أيديهما، ويجوبان الشوارع، ويشعران بأنهما خفيفان، كأنهما طائران .

ذهبا إلى متجر «لامور بانتر»، ووصــلا حتى الكنيسة الصغيرة، قالت «إيلودى» :

– دعك من المتجر أرَى ألَّا نَمُرَّ به .

وأدخلتــه من باب العـربات، وصعد معهــا إلى الشقــة. وعلى «بسطة» الدَّرَج أخرجت من حقيبتها الصغيرة مفتاحًا كبيرًا من الحديد ، وقالت :

– «إيفــاريست»، هذا المفتــاح يشبــه مفتــاح السجن ، ستكون أنتَ سجينى.

عبرا غرفة الطعام، وأصبحا فى غرفــة الفتاة . كان «إيفاريست» يشعر بأن على شفتيه النضارة الحارَّة لشفتى «إيلودى». اعتصرها بين ذراعيه. مالت برأسها ، وتسبلت عيناها، وانسدل شعرها، ومال قَدُّها، شبه مُغمًى عليها ، وانفلتت منه وجرت، وأغلقت مزلاج الباب ....

كان الليل قد أسدل عندمــا فتحت «إيلودى» الباب لعشيقها، وقالت له بصوت خافت فى الظلام :

– وداعًا يا حبى ! حان وقــت عودة والدى ، إذا سمعت أى صوت على السلم فَـاصْعَــدْ بسرعــة إلى الطابق العلوى، ولا تنــزل إلا بعــد أن يزول الخطر، خــوفًا من أن يراك أحــد . ولكى يُفتح لك باب الطريق انقُرْ نافــذة البوَّاب ثلاث مرات. وداعا يا حياتى ، وداعًا يا روحى !

وعندما وَجَدَ نفســه فى الشارع شَاهَدَ نافذة غرفــة «إيلودى» منفرجة قليلا، وامتدت يَدٌ صغيرة وقطفت زهرة قرنفل حمراء سقطت عند قدميه كأنها قطرة دم .

* * *

ذات مساء كان «بروتو» العجــوز يحمل اثنتى عشرة دستة من الدُّمَى التى يصنعهــا إلى المواطن «كــايو»، بشــارع «لالــوا». بائع اللعب، هادىء ولطيف عادة، وهو قــابع فى وسط عرائســه وصوره المضحكة، ومع ذلك استقبله البائع بغلظة ، وقال له :

– احـــذر أيها المواطن « بروتو » وانتبـــه ! ليس هـذا وقتَ الضحك ، وليست كل مـداعبـة مقبـولة ، فقـد زارنـى بالأمس عضــو فى لجنة أمن القطاع فى متجرى، وشاهد عرائسك ، ورأَى أنها ضد الثورة .

قال بروتو : كان يسخر !

– أبدًا أيها المواطـن ، أبدًا . إنه رجل لا يسخــــر أبدًا . قــــال إن هذه الشخصيـات الصغيرة فيهـا الصورة القـوميـة مُنَفَّـذَةٌ بخيـانة، ويمكن التعـرف فيهـا على «كاريكاتير» لكل مـن «كوثون»، و «ســان جـوست»، و«روبسبير»، واستـولى عليها . وفى ذلك خســارة كبيرة لى ، هذا بخـلاف الخطر الذى أتعرض له .

– ماذا ؟! هؤلاء «الكولان»، و «الجيـل»، و «الاسكاراموش»، وهؤلاء «الأرلوكان»، وهؤلاء «الكوليت»[1] الذين رسمتهم كما رسمهم «بوشيه» منذ خمسين عامًـا، يتحولون إلى «كوثون»، و «ســان جوست» مُقَلَّدِين ؟ لايوجد رجل عاقل يَدَّعِى ذلك .

واستطرد المواطن «كايو»: من الممكن أن تكون فعلت ذلك دون قصد ، ومع ذلك فـلابد دائمًا من الشــك فى رجل ذكى مثلك، ولكن الأمـرَ خطير . هل تـريد مثــــالًا على ذلك ؟ «نـاتوال» الذى يـدير مسرحًـــــا صغيرًا فى «الشانزيليـزيه» أُلقى عليه القبـض أول أمس بتهمة اللاوطنيـة، لأنه قدم تمثيلَ الجمعية الوطنية بالعرائس .

---

(١) أسماء شخصيات كوميدية من فرقة الكوميديا الإيطالية، ونماذج فلاحين فى الأوبرا الكوميدية .

قال «بروتو»: وهـذه لطمة أخرى. واستأنف وهو يـرفع الحجاب عن دميـاته الصغيرة : انظر إلى هذه الأقنعـة وهذه الوجـوه ! هل يعبرون عن شىءٍ آخر سوى شخصيات كـوميدية ورعوية ؟ كيف تسمح لنفسك أن تقول – أيها المواطن «كايو» – أننى أُمثل الجمعية الوطنية ؟

كان «بروتو» مندهشًا ، ومع أنه ينسب كل شىء إلى كثير من الحماقة البشرية، فإنه لم يكن يتصـور قط أنها تصل إلى حد الاشتبـاه فى عرائس «الاسكاراموش» و «الكولينيت». فكان يعترض لبراءته وبراءتهم . غير أن الوطنى «كايو» لم يُصْغِ إليه ، وقال :

– أيها المواطن «بروتـو»، احملْ عـرائسك، وأنا أُقَـدِّرك وأحترمك، ولكننى لا أريد أن يُـوبخنى أحـد أو يُسبب لى القلق بسببـك، فأنا أحترم القـانون، وأريد أن أظل مـواطنًا صالحًا ، وأن أُعَـامَل بهذه الصفـة . عِمْ مساءً أيها المواطن «بروتو» وارجع بعرائسك .

عَادَ العجوز «بروتو» أدراجه قاصـدًا مسكنه، وحاملًا معه مشبوهيه على كتفه على طرف عصـاه ، ويسخر منه الأطفال الذين كـانوا يعتقدون أنه بائع «مبيـد الجرذان». كانت أفكاره حـزينة، ولاشك أنه لا يعيش من دخل هذه العـرائس فقط، فهـو يرسم صـورًا بعشرين فلسًـا للصـورة الواحدة عند أبواب العربات، أو فى أحـد براميل الأسواق بصحبة مُرقعى الثيـاب، وكثير من الشبـاب الذين يرحلون من أجـل الجيش يريدون أن يتركوا صورًا لعشيقاتهم الصغيرات. ولكن هذه القطع الفنية الصغيرة قد سببت له ألمًا عظيمًا، وكـان يجب عليه أن يصنـع منها الكثير من الصـور

بمقدار ما يصنع من عرائسه. وأحيانًا كان يخدم سيدات السوق كسكرتير، ولكن ذلك يعنى الانغماس فى مؤامرات ملكية، والمخاطرات كانت ضخمة. تذكر أنه كان يوجد فى شارع «نيف – دى بيتى – شان» القريب من ميدان «فاندوم» سابقًا، بائع لعب آخر يسمى «جولى»، وقرر أن يذهب إليه من اليوم التالى ليعرض عليه ما رفضه «كايو» الرعديد.

هطل مطر خفيف، ويسرع «بروتو» الذى كان يخشى تلف عرائسه، فى السير، ولما كان مَعْبرُ « لوبون – نوف » مظلمًا وموحشًا انعطف فى ركن ميدان «نيونفيل»، وشاهد على ضوء شمعة على أحد الحواجز، رجلًا عجوزًا ونحيفًا يبدو عليه الإرهاق الشديد من التعب والجوع، ومع ذلك كان يحتفظ بمظهره المحترم.

كان يرتدى لاوية ممزقة، ولم يكن معه قبعة، ويبدو عليه أنه يبلغ أكثر من ستين عامًا، عندما اقترب من هذا البائس تعرف عليه «بروتو»، إنه الأب «لونيجمار»، الذى أنقذه من حبل المشنقة، منذ ستة أشهر، عندما كانا يقفان هما الاثنان فى الطابور أمام المخبز فى شارع أورشليم.

ويرى «بروتو» عَرْضَ خدمةٍ على هذا الراهب، فاقترب منه «بروتو» وأفهمه أنه رجل الأعمال الذى كان يقف بجانبه فى وسط السوقة، يوم المجاعة الكبيرة، وطلب منه أن يكون معينًا له، فقال له « بروتو » :

– يبدو عليك الإرهاق يا أبى، خُذْ قطرة من المشروب المنعش.

وأخرج «بروتو» من جيب سترته الحمراء المائلة للسواد قارورة صغيرة بها مشروب «العرقى»، والذى كان مع كتابه عن «لوكريس».

– اشرب ، وسأُعينك على الوصول إلى مسكنك .

أَبْعَدَ الأب «لونجيمار» بيده القـارورة وحاول أن ينهض، ولكنه سقط ثانية على الحاجز، وقال بصوت ضعيف :

– سيدى ، تأكد أننى منذ ثلاثة أشهر كنت أقيم فى «بيكبوس»، وعلمت أنهم جـاءوا ليعتقلونى أمس، فى السـاعـة الخامسة صبـاحًا، فلم أَعُـدْ إلى مسكنى، ولا يوجـد لى أى مأوى حـاليًا، وهِمْتُ على وجهى فى الطرقـات، وأنا الآن قد نَالَ منى التعب والإرهاق .

قال بروتو : حسنًا يا أبى، شرفنى بأن تشاطرنى منزلى .

قال البرنابى : إنك تدرك جيدًا بأننى مشبوه يا سيدى .

– وأنا أيضًا مشبوه، وكذلك الدُّمَــى التى أصنعها ، وذلك ما هو أسوأ من أى شىء، وأنت تراها معـروضــة تحت هذه الغُلالة الرقيقـة، فى المطر الخفيف الذى نعانى منه. واعلمْ يا أبى أنى بعد أن كنتُ رجلَ أعمالٍ ، أقوم الآن بصنع العرايس لكى أتعيَّش منها .

أمسك الأب «لونجيمار» باليد التى مدها إليه هذا الممول السابق، وقَبِلَ الضيافة التى قَدَّمَها له . وقـدَّم «بروتو» له فى بيته الخبز والجبن والنبيذ الذى وضعه فى المزراب لكى يبرده، لأنه مُتْرَفًا .

وبعد أن خفف من جوعه ، قال الأب « لونجيمار » :

– سيدى ، واجب علىَّ أن أحيطك بالظروف التى جعلتنى أهرب ، حتى وجـدتنى إلى جانب هذا الحاجـز . إننى طُردت من ديرى ، وصرتُ أعيش

من الدخل الضعيف الذى تصرفه لى الجمعية، وكنت أعطى دروسًا خاصة فى اللغة اللاتينية والرياضيات، وكنت أكتب عن اضطهاد الكنيسة الفرنسية . وألفت أيضًا كتابًا أُوضح فيه أن قَسَمَ ولاء الكهنة الدستورى يتعارض مع الانضباط الكنسى. وتطورات الثورة قد انتزعت منى تلاميذى، ولم أستطع أن أحصل على إعانتى لعدم توافر شهادة الوطنية التى يتطلبها القانون. وتلك هى الشهادة التى سوف أطلب من البلدية، استحقاقى لها، وبما أننى عضو فى المنظمة التى أسسها المبشر «سان بول» بنفسه ، والذى استحق لقب مواطن رومانى ، فإننى أحببت أن أتأَسَّى خطاه كمواطن فرنسى صالح، يحترم جميع الشرائع البشرية، والتى لا تتعارض مع الشرائع الإلٰهية. وتقدمت بطلبى للسيد «كولان» الجزار الذى يبيع لحم الخنازير، وضابط البلدية المكلف بتخليص البطاقات التى من هذا النوع . فسألنى عن حالتى، وأجبته بأننى كنت راهبًا. وسألنى عَمَّا إذا كنت متزوجاً ، وبإجابتى بأننى لم أكن متزوِّجًا، قال لى : إن ذلك أسوأ بالنسبة لى . وأخيراً ،وبعد أسئلة متنوعة، سألنى عَمَّا إذا كنت أثبت وطنيتى فى ١٠ أغسطس ، أو ٢ سبتمبر، أو ٣١ مايو . وأضاف: «لا يمكن إعطاء شهادات إلا إلى هؤلاء الذين أثبتوا وطنيتهم بسلوكهم فى هذه المناسبات الثلاث ».

لم أستطع أن أجيبه إجابة شافية، ومع ذلك أخذ اسمى وعنوانى، ووعدنى بأنه سيجرى تحقيقًا فى حالتى بأقصى سرعة، ولقد أوفى بوعده، وكانت النتيجةأن اثنين من مفتشى لجنة الأمن العام فى «بكبوس»، حضرا

بقوة مسلحة، وزاروا سكنى وأنا غائب عنه ليقتادونى إلى السجن، ولم أعرف الجُرْم الذى أُتَّهَمُ به. ولكن، أعلم أنه يجب أن يُرْثَى للسيد «كولان»، حيث إن عقله مضطرب لأنه يُوبِّخ أحد رجال الكنيسة بأنه لم يثبت وطنيته فى العاشر من أغسطس، أو الثانى من سبتمبر، أو الحادى والثلاثين من مايو. إن أى رجل يفكر هذا التفكير يستحق الإشفاق عليه .

قال «بروتو» : أَمَّا أنا فلا أملك أى شهادة ، ونحن الاثنان مشبوهان. ولكنك مُنْهَك القوى. اخلد أنت إلى النوم يا أبى، وغدًا سوف نتبادل الرأى فى مسألة أمانك .

وَأعطى ضيفه المرتبة الصوفية لينام عليها، واحتفظ هو بالمرتبة القش. وأصر الراهب أن يأخذها هو لينام عليها، وإلا فسوف ينام على البلاط. وبعد أن انتهيا من ترتيباتهما أطفأ «بروتو» الشمعة، اقتصادًا وحذرًا .

قال له الراهب : سيدى ، إننى أُقَدِّرُ ما تفعله من أجلى، ولكن وأسفاه ! مهما عبّرت لك عن امتنانى فلن أستطيع أن أوفيك حقك ! وليكافئك الله على ذلك ! وسيكون ثوابك عظيمًا . ولكن الله لا يُثيب على ما نفعله من أجله سبحانه إلَّا ما يكون عن فضيلة طاهرة وطبيعية . لذلك أرجوك يا سيدى أن تفعل فى سبيله ما أنت قائم بعمله من أجلى.

أجابه بروتو : يا أبى، لا تحمل أى هَمٍّ، فأنا لا أنتظر أى عرفان. إن ما أفعله لم أفعله من أجل حبك، فمهما تكن تستحق الحب يا أبى فأنا معرفتى بك محدودة جدًّا حتى أحبك، وأنا لا أفعله إلا من أجل حب

الإنسانيــة لا أكثر ، بالرغم من أننى لست بسيطًــا مثل « دون جوان »[1] لأُصَدِّقَ مثله أن الإنسانية لها حقوق، وهذا الاعتقاد فى أحد العقول الحرة مثل عقلى يُحزننى .

إننى أصنع ذلك بدافع الأنانية التى توحى للإنســان بجميع تصرفات الكرم والإخــلاص وذلك يجعل الإنســان يندب ســوء حظه فى ســوء حظ الغير، وذلك بِحَثِّــه على مــد العــون لإنســان مُشرفٍ على الموت يشبهــه فى الطبيعــة والمصير، فيعتقد أنه ينقــذ نفســه بإنقــاذه. كما أفعله عن بِطَالَةٍ أيضا ، لأن الحيــاة تكون حتى هذه الدرجة غَثَّــة، ويجب أن ينصرف عنها بأى ثمن، وأن العمل الطيب يكون متعــة تافهــة نُقبل عليهــا لعدم وجــود غيرها أطيب منها .

كما أنى فعلت ذلك أيضًــا بكبرياء، ولأتميز عنك، وفعلتــه أخيرًا بروح تنظيمية، ولأوضح لك إلى أى درجة يمكن أن يكون أحد الملحدين قادرًا .

أجاب الأب «لونجيمار» قائــلًا : لاتَمُنَّ علىَّ يا سيدى ، فإن الله أعطانى الكثير من النِّعَمِ ولم يمنحك مثلا حتى هذه الساعة، ولكنى لستُ أقل منك قدرًا، وأدنى منك فى الاستحقاقات الطبيعية. اسمح لى فوق ذلك أن أتفوق عليك بميــزة، لأنك لا تعــرفنى فأنت لا تحبنــى، وأنا يا ســيــدى بدون معرفتك أحبك أكثر من نفسى، فإن الله يأمرنى بذلك .

هكذا تبــادلا الحديث، وجثا الأب «لونجيمار» على ركبتيــه على البلاط، وبعد أن تلا صلاته تمدَّدَ على المرتبة القش ونام فى هدوء .

---

(١) دون جوان : رجل أسطورى .


5

5

كان «إيفاريست جاميلان» يتخذ مقعده فى المحكمة للمرة الثانية، وقبل افتتاح الجلسة تبادل الحديث مع زملائه من المحلفين حول ما وصلت إليه أنباء الصباح، ومن هذه الأخبار ما هو كاذب ، ومنها ما هو غير مؤكَّد ، ولكن ما يمكن الاحتفاظ به كان صعبًا، وهو أن الجيوش المتحالفة، تُهيمن على جميع الطرقات، وتسير معًا ، وأن «الفانديه» منتصرة، وأن «ليون» ثائرة، و «طولون» سُلِّمت للإنجليز الذين أنزلوا فيها أربعة عشر ألف رجل. وكان ذلك بالنسبة للقضاة أحداثًا عائلية، بقدر ما هى أحداث تهم العالم أجمع. وهم على يقين بالهلاك إذا هلك الوطن، فهم يعملون لصالح الشعب، وهو عملهم الخاص. ومصلحة الأمة مختلطة بمصلحتهم، تُملى شعورهم وعواطفهم وسلوكهم.

تَسَلَّمَ «جاميلان» وهو فى مقعده رسالة من «تروبير»، سكرتير لجنة الدفاع، كانت الرسالة عبارة عن إعلان تعيينه عضوَ لجنة المتفجرات وملح البارود :

«عليك أن تُنَقِّب فى جميع كهـوف القطاع لتستخرج منهـا جميع المواد الضرورية لصناعـة البارود . ربما يكون العـدو غـدًا على أبواب باريس، ويجب على أرض الوطن أن تمدنا بـالبـارود الذى سنقـــذفـــه على الذين يعتدون عليها. أبعث إليك بتعليمات الجمعية الوطنية التى تتعلق بمعالجة ملح البارود ، مع السلام والإخاء ».

فى هذه اللحظة أُدْخِل المتهم، وكـــان من آخِـرِ القـواد الذيـن هُزمـوا، وسلمتهم الجمعية الوطنية إلى المحكمة، وكـان أكثر غموضًـا . وعندما رآه «جـاميلان» أصـــابته رعشـــة، كان يعتقـد أنه يرى هذا الرجل العسكرى للمـرة الثـانية، والذى كـان مختلطًا بالجمهـور، كـان قـد رآه منذ ثلاثة أسابيع خلت يُحاكَم ويُرسَل إلى المقصلة. كان نفس الرجل بمظهره العنيد وقِصَر نظره، وكانت نفـس القضية، كان يجيب بطريقـة ماكـرة وعنيفة، كانت تُفسِد أفضل إجاباته .

إن مماحكاته وجـدله التـافه والاتهامـات التى نسبهـا إلى مرءوسيـه جعلته ينسى أنه يضطلع بمهمة تستحق الاحترام، وهى الدفاع عن شرفه وحياته . وفى هذه القضية كل شىء كـان غير مؤكد، ومُتنازَع فيه : وضـع الجيوش ، عـدد الجنود ، الذخائـر، الأوامر الصـادرة ، الأوامر الواردة ، تحركات الفـرق ... لم يكن أى شىء معروفًـا ، ولم يعرف أحـدٌ شيئا عن هذه التصرفـات المشـوشـــة العقيمـة، والبعيـدة الهدف والتى انتهت إلى كارثة. ومن الغريب أن كل واحـدٍ ممنِ هنالك - ومنهم المحامى، والمتهم، والقضـاة والمحلفون - لم يعترف أى أحـد على غيره ولا على نفســه، فكلٌّ كان لا يعرف شيئا .

كان القضاة يفضلون وضع خطط ، وأن يبحثوا أمر التكتيك والخطة ، المتهم أهمل تأهباته الطبيعيــة من أجل المر . باللَّجاج، وكــانت المناقشات تدور دون هدف، و «جــاميلان» – طوال هذه المناقشــات – كان يرى على طُرقــات الشمال الوعــرة عــربات الذخيرة المتــوحلة، والمدافع المقلوبة فى الأخاديد، وعَبْرَ جميع الطرقات تنسابُ فى فــوضَى فِرَقُ الجنود المهزومة، فى حين فرسان العدو ينفذون من كل مكان عن طريق الممرات المهملة .

وكــان يُسمع من هذا الجيش المهــزوم صيحــاتٌ هائلة تتهم الجنرال. وفى ختام المناقشات، كان الظل يعم القاعة، ووجه «مارات» غير المميز كان يبدو كأنه شبح على رأس الرئيس .

وهيئة المحلفين التى كانت مكلفة بنطــق الحكم كانت منقسمة ، وأعلن «جاميلان » بصوت أجش يكاد يختنق فى حلقــه – ولكن بلهجة حاسمة – أن المتهم مذنبٌ بخيانة الجمهورية. وسَرَتْ همهمة استحسان مرتفعة بين أفراد الجماهير، وجاءت تمتدح فضيلته الفتيَّة .

وعند الخروج على درجـــــات السلم كـــان يتجمهـــــر جمع غفير من الثرثارات، المَوْسومات بالشارات الوطنية، وكان «جاميلان» يسمع اسمه الذى بدأ المترددون على المحكمـــة يعـــرفــونه. وهجمــت بعض الحائكات يُلَوِّحن فى وجهه بقبضات أيديهن ويطالبن برأس النمساوية.

وفى اليــوم التــالى كان على «إيفــاريست» أن يُصـــدر حكمًا على سيــدة مسكينة، الأرملة «مــا بريون»، حاملة الخبــز، كانت تتجــول فى الطرقات

تدفع أمـــامهـا عـربة صغيرة، وتُعَلِّق مِحزَّة (قطعـــة خشب تحز عليهـا بالسكين حساب الخبز الذى توزعه). كانت تكسب يوميًّا ثمانية فَلْسَات .

كان مظهر نائب المدعى العام ينم عن عنف غـريب حيال هذه البائسة، والتى يبـدو أنها صــاحت قـائلة : «عاش الملـك !» عِدَّة مـرات، وتفـوهت بكلمات ضــد الثـورة فى المنازل التى تـوزع عليهـا الخبـز كل يوم، وأنها شريكة فى مؤامرة تهدف إلى تهريب المرأة «كابيه». وعندما سـألها القاضـى اعترفت بالأعمال المنسوبة إليهـا، سـواء ببســاطة أو بتعصيب، وجاهرت بإحسـاساتها الملكية بحماس شديد ، وَأَوْدَتْ بنفسـها.

كانت المحكمة الثورية تنصر مبدأ المســاواة، وكانت توضـح أن موقفها حيـال الحَمَّالين والشغالات متسـاوٍ مع مـوقفهـا حيال الأرستقـراطيين والماليين، و «جاميـلان» لم يخطر بباله قط أنه يستطيع أن يكون غير ذلك فى عهد نظام حكم شعبى، وكان قد ارتأى أن استثناء الشعب من التعذيب ازدراء وغطرسة، واعتباره هكذا يعنى أنه غير جـدير بالعقاب. واقتصـار المقصلة على الارستقراطيين فقط كان يبدو له نوعًا من الامتياز الجائر .

بَدَا لجاميـلان أن يجعل من العقاب فكـرة دينية إيمانيـة، بأن يُضفى عليهـا فضيلة واستحقـاقـات خاصــة . وكـان يعتقـد أنه ينبغى إعـدام المجرمين، وأنه يُعَدُّ ظُلْمًا لهم حرمانهم منه. وأعلن أن السيدة «مايريون» مذنبة، وتستحق العقـاب السامى، ويأسف فقط على أن المتعصبين الذين تسببوا فى هلاكهـا مذنبون أكثـر منها، وأنهم ليسوا هنا حتى يتقـاسموا معها مصيرها .

كان «إيفاريست» يتـوجه كل مساء تقريبًـا إلى اليعقوبيين الذين كانوا يجتمعـون فى الكنيســة القـديمـة للدومينيكان، والمعـروفين عند العـوَّام باليعاقبة بشـارع هونوريه .

وفى أحـد الأفنية، حيـث ترتفع شجرة الحريـة (شـجرة صفصــاف)، حيث حفيف أوراقهـا مثل التمتمـة ، والكنيســة قــائمـة على طراز هزيل وكئيب، مُثقَلة بالقرميد بأعـلاها، وتبدو جبهتها من «الـجمالون» العارى، وبها ثقب على شكل كُـوَّة بيضــاوية، وباب مقـوس يعلوه العَلَم بالألوان الوطنية، ومُعمَّمة بغطاء الحرية.

اليعقـوبيون – وكـذلك الرهبان الفـرنسيسكان (لى كورديلييـه)[1]، والرهبان (لى فويان)[2] اتخذوا مَقَرًّ واسمَ «الرهبـان المشتتين»، وَعَدُّوا «جـاميلان» مـواظبًا منذ زمن قصير على حضـور جلسات الكورديلييـه (الرهبـان الفـرنسيسكـان) لَمْ يجد عند اليعقـوبيين لا خِفَـافٍ ولا سُتَرٍ، ولاصيحـاتٍ كأتبـاع دانتـــون. فى نادى «روبسبير» كـان يســود الحذر الإدارى، والوقــار البــورجـوازى . ومنذ أن ذهــب صـديق الشعب كـان «إيفاريست» يتـابع دروس «ماكسميليـان» الذى يهيمن فكره على جميع

---

(١) لى كورديلييه : رُهبـان. جمعية أصدقاء حقوق الإنســان والمواطن . تأسست فى أحد أديرة الرهبان الفـرنسيسكان ١٧٩٠. أكثر راديكاليـة عن اليعقوبيين. وفى ١٧٩٤ تم تصفيـة النادى ، وأُلغى فى ١٧٩٥.

(٢) لى فويان : جمعية أصدقاء الدستـور، مقرها دير سـابق للرهبان فى الخامس عشر من يوليو ١٧٩١ بانشقاق اليعقـوبيين . وهم ملكيون معتدلون، كـان يرأسها لافاييـت، وبايى ، وبارنان ، واختفوا بعد العاشر من أغسطس ١٧٩٢ .

اليعقوبيين، ومن هنا - عن طريق الكثير من الشركات الفرعية - امتدت إلى جميع أنحاء فرنسا .

وأثناء قراءة المحضر كان يجول ببصره على الحوائط الجرداء، التى - بعد أن آوَتْ إليها الأبناء الروحيين لأعظم محقق فى محكمة التفتيش فى الهرطقة - ترى المتحمسين من المحققين فى الجرائم ضد الوطن .

هنا - ودون فخر - كانت تجرى وتُمارَس أكبر سلطات الدولة ، وكانت تُحْكَم العاصمة والإمبراطورية، وتُمْلَى المراسِم والقرارات على الجمعية الوطنية .

هؤلاء الحرفيون فى النظام الجديد للأحداث ، والقائمون باحترام القانون، ظلوا ملكيين فى عام ١٧٩١، ويريدونه أيضًا أن يظل عند عودة «فارين»[١]، باتصال مباشر بالدستور. وأصدقاء النظام القائم - حتى بعد مذبحة «شان دى مارس»، ثوريون ضد الثورة، وأغراب عن الحركات الشعبية، يُغذون فى نفوسهم العميقة والقوية حُبَّ الوطن، والذى كان قد أَوْجَدَ أربعة عشر جيشًا، وأقام المقصلة .

إن ما يعجب «إيفاريست» فيهم يقظتهم، وروح الشك، والفكر العقائدى، وحب النظام، وفن الهيمنة، وحكمة إمبيريالية . والجمهور الذى كانت تتكون منه القاعة لم يصدر عنه سوى غمغمة جماعية ومنتظمة، مثل حفيف أوراق شجرة الحرية الى ترتفع عند المدخل .

---

(١) فارين : مدينة فرنسية .

وفى هذا اليوم الموافـق أحد عشر فنديمير (١)، صعد إلى المنصـة ببطء شـاب صغير، منحـدر الجبهـة، ثاقب النظر، مـدبب الأنف، حـاد الذقن، مجدور الوجه، بارد المظهـر، وكانت تنتشـر عليه ذرات الصقيع، ويرتدى زيًّا أزرق اللون يُظهر قـامته. كان متكلفًا فى مظهـره، ويتصرف بحساب، كأنه يريد أن يقول للبعض - ساخـرًا - بأنه كأحد أساتذة الرقص الذى تُقَدَّمُ إليه تحية من الآخرين باسم «أورفيه الفرنسى» (٢).

ألقى «روبسبير» خطابًا بليغًا بصوت واضح ضـد أعداء الجمهورية، وطعن ببراهين لاهوتيـة هائلة «بريسو» ومـؤامراته. تحدث وقتًـا طويلا بغزارة، وبانسجـام، وألقى بالصاعقة على المتآمـرين الذين يزحفون على الأرض.

سَمِعَ «إيفاريست» وَفَهِمَ، وكان - حتى ذلك الحين - يتهم «الجيروند» بالإعـداد لإعـادة تأسيس الملكيـة، أو بنصرة حـزب «أورليـانز»، وتأمل خراب المدينة البطولية التى خلَّصت فرنسـا، والتى سوف تُنقِذ العالم فى يوم من الأيام.

والآن وقد اطَّلع على حقائق سامية ونقية بعين الحكيم، فَسَمَتْ بروحه فـوق الأحداث الشـائنة معصـومة من أخطاء الحواس، فى منطقـة اليقين المطلق، فالأحـداث بذاتها ممزوجة ومملوءة بالتشوش، والأمـور المعقدة هى التى يحار فيها المرء، وبَسَّطهـا له «روبسبير»، وقدم له الخير والشر

---

(١) فنديمير: الشهر الأول من السنة الجمهورية فى فرنسا.

(٢) أورفيه: شاعر وموسيقى.

فى صيغ بسيطة وواضحـــة. يعـرضـهـــا فى الكلمتين : فيـدراليـــة ، ولا انقســامية، ففى الوحـدة واللا انقســام يكمن الخلاص ، وفى الفيدراليـة يكمن الهلاك الأبدى . كـان «جـاميـــلان» يُحِسُّ بالبهجـة العميقـة التى يحسّها المؤمن الذى يعرف الكلمة التى تُنقِذ، والكلمة التى تُهلِك .

ومن بعـد ذلك ستعرف محكمـة الثورة – مثل المحـاكم فيما مضـى – الجريمة المطلقة والجريمة الشفهيـة، ولأن «إيفاريست» كان متدينًا فكان يتلقى هذه الـرُّؤَى بحماس كئيب، وكـــان قلبـه يتحمـس ويتمتع بفكرة مستقبلية من أجل التمييز بين الجريمة والبراءة، أى أنه سوف يكون لديه رمز يميز به بينهما . أيا كنوز الإيمان ، إنكِ تحلين محل كل شىء ! .

أمَّا الحكيم «ماكسميليان» فقد أنار له الطريق للأهداف الخبيثة لهؤلاء الذين يريدون أن يســاووا بين الأمـوال، وأن يُقسِّموا الأراضى، ويُلغـوا الغِنَى والفقر، ويُقيموا حياةَ كفافٍ موفق للجميع .

كان مُنخدعًا بِحكَمِهِمْ، وفى بداية الأمر أقرَّ أهدافهم التى رأى أنها تتفق ومبادئ الجمهورىِّ الحقيقى، ولكن «روبسبير» بأحـاديثه إلى اليعقوبيين كَشَفَ له عن دســائسهم، واكتشف أن هؤلاء الناس الذين تبـدو أهدافهم صــافيـة، يرمـون إلى قلب نظام الجمهـورية، ولا يُنذرون الأثرياء إلا من أجل أن يوجدوا للسلطة الشرعية أعداءً قادرين وشرسين .

وفى الواقع، أنَّ مبدأ التملُّك إذا ما هُدِّدَ فإن الشعب بأسره ، بقدر ما هو مرتبط بما يمتلك – حتى ولو كـان قليلا – ينقلب على الجمهـورية فى التوِّ والحين . وإنذار المصــالح بـالخطر يعنى التـآمـر، فَتَحْتَ ستـــار إعـداد

السعادة العالميـة، وسيادة العدالة يتآمـر هؤلاء الذين يقترحون – كهدف جـدير بمجهود المواطنين – تسـاوى الناس فى المال والأمـلاك والأرزاق، كانوا خونة ونصابين، وخطورتهم أكبر من خطورة الفيدراليين.

ولكن أهم مـا كَشَفَتْـهُ حكمـة «روبسبير» من أجل «إيفـارست» هو جـرائم وفضائح الإلحاد . جـاميـلان لم يُنكر قط وجود الله، وإنما كـان مؤمنا بالله، وكان يؤمن بالعناية الإلٰهيـة التى ترعى البشر ، وكان معترفًا بأنه لم يدرك الخالق إلا مُبْهَمًا . وكان متمسكًا جـدًّا بحرية الوعى، فسَلَّم عن طيب خـاطر بأن بعض الشرفـاء فى وسعهم أن يسيروا على نهج ذوى الصـلاح مثل : «لاميترى»، و «بـولانجيـه»، و «البـارون دولبـاك»، و«لالاند»، و «هيلفيتيـوس»، والمواطن «ديبـوى» بأن يؤسسـوا أخلاقًـا طبيعية، وأن يجدوا فى أنفسهم مصادر للعدالة، وقواعد لحياةٍ فاضلة .

وشَعَـرَ أيضًـا بالتعـاطف مع الملحـدين، عنـدمـا رآهم يُهانون ويُضطهدون. وقد أضاء له «ماكسميليان» فكره، وأزال ل غشاوته .

وببـلاغته الفـاضلة (هذا الرجـل العظيم) أماطَ له اللثـام عن حقيقـة الإلحاد وطبيعتـه، وأهدافـه وآثـاره، وأوضح له أن هذه العقيـدة التى تكونت فى الصـالونات الصغيرة الأرستقراطية هى مـن أحط الاختراعات التى تخيلهـا أعـداء الشعب ، لكى يُثبطوا عـزيمتـه ويُسخِّـروه، وأنه من الإجرام أن تنزع من قلوب البؤسـاء الفكر الذى يواسيهم بخلاصٍ مُجزٍ، ويُسلِّمهم إلى عـواطف مدمـرة – دون مُرشـد ، ودون ضوابط – تدمـر الإنسـان وتجعل منه عبدًا حقيرًا، وأخيرًا ، فإن الأبيقـورية (الانغماس فى

الملذات) المَلَكية لهيلفيتيوس تـؤدى إلى الخلاعةً ، وإلى القسوة، وإلى جميع الجرائم والآثام .

ومنذ أن تلقى المواطن العظيـم هذه الدروس صـار يمقت الملحـدين، خاصة عندما يكونون صرحاء ومبتهجين، مثل «بروتو» العجوز .

وفى الأيام التـالية كـان على «إيفـاريست» أن يحكم – بلا انقطاع – فى أمر أحـد أهل الثقة سابقًـا ، بأنه قد دمر غـلالًا ليُجَوِّع الشعب، ثلاثة من المهـاجرين الذين عـادوا ليشعلوا نار الحرب المدنية فى فـرنسا، وفى أَمْـرِ فتـاتين من باليـه إيجاليتيـه (قصر المساواة)، وأربعـة عشر متـآمـرًا من بريتون، وفى أَمْرِ نساء ، وشيوخ، وشباب، سادة وخدم .

الجناية معترف بها، والقـانـون صريح . ومن بين المذنبين امـرأة فى العشرين من عمرها ، يُزَيِّنهـا رونق الشباب تحت ظلال نهايتها القـريبة، وجمالها الساحر. كانت تربط شعرها الذهبى بفيونكة زرقاء ، ووشاحها الخفيف يكشف عن رقبة بيضـاء وبضّـة . كان «إيفـاريست» يوافق دومًا على الموت . وجميع المتهمين – بـاستثناء جناينـى عجـوز – أُرسلوا إلى منصة الإعدام (المِقْصَلة) .

وفى الأسبـوع التـالى حصد «إيفـاريست» وقطاعـه خمسـة وأربعين رجلًا، وثمانِىَ عشرة سيدة .

وكـان قضـاة محكمـة الثـورة لا يُميـزون بين الرجـال والنسـاء ، مستـوحين ذلك من مبدأ قـديم قِـدَم العدالـة نفسها . وإذا كـان الرئيس

«مونتانيه» قد تأثر بشجاعة وجمال «شارلوت كورداى»[1] وحاول أن يُنقذها بإفساد القضية، وفَقَدَ مقعده لهذا السبب، فإن النساء كُنَّ يُسْتَجْوَبْن دون مُحاباة، وفقًا للقاعدة العامة لجميع المحاكم .

وكان المحلفون يخشونهم ، ويحترسون من كيدهن، وما تعوَّدْنَ عليه من الخداع، ووسائل الإغراء لديهن . ولما كانت شجاعتهن لا تقل عن شجاعة الرجال ، فإنهن طالبن المحكمة بمعاملتهن مثل الرجال . وكان معظم هؤلاء الذين يحاكمونهن قليلى الافتتان أوذوى افتتان مؤقت، لا يتأثرون مطلقًا بهن .

كانوا يصدرون أحكامهم - سواء بالإدانة أو البراءة - على هؤلاء النسوة وفقًا لما يُمليه عليهم ضميرهم، ومعتقداتهم ، وحماسهم، ووفقًا لحبهم المَرن أو العنيف للجمهورية . وكانت هؤلاء النسوة يُبدِين تأنقًا فى تسريحات شعورهن حسبا تسمح لهن حالتهن البائسة . ولكن كان من بينهن عدد صغير من الفتيات، وكذلك عدد صغير من الجميلات، أَذْبَلَهُنَّ السجن والهموم ، وأجهدهن ضوء القاعة الساطع ، وحالات القلق التى تستولى عليهن آلمتْ جفونهن الذابلة، وبشرتهن الوردية، وشفاههن البيضاء المتوترة .

ومع ذلك فإن هذا المقعد المشئوم قد استقبل أكثر من مرة سيدةً شابةً جميلةً برغم شحوبها ، على حين تغشى عينيها ظلالٌ حزينة، تشبه غُلالات اللذة الحسية . وأمام هذا المنظر يكون المخلفون إمّا مشفقين وإما

---

(١) قاتلة « مارات » .

أشِدَّاء وسواء على المحلِّف أَلآنَ أم اشتـدَّ عند هذا المنظر، وساء عليه أبحث من خلال حواسه المعطلة فى أسرار هذه المخلوقة التى تصورها فى آنٍ واحد حية وميتة ، فإنه - وهو يحرك صورًا شهوانية ودامية - كان يتلذذ بوحشية فى تسليم هذا الجسد الشهى إلى الجلاد ، وذلك ما يجب أن نكتمه، ولكن لا يمكن إنكاره إذا عرفنا الرجال .

«إيفاريست جاميلان» فنان فاتر وعالم ، لا يعترف إلَّا بالجمال القديم، والجمال يوحى إليه بقدر كبير من الاحترام، لا بالارتباك. وكان لذوقه الكلاسيكى بعض من الصرامة فى أن يعثر على امرأة حسب هواه. لم يكن حساسًا بقدر متساوٍ، لا إلى جمال الوجه وألوان «فراجونارد»، ولا إلى أشكال «بوشيه». ولم يحدث قط أن شعر بالرغبة إلا فى حب عميق.

ومثل معظم زملائه فى المحكمة، كان يصدق أن النساء أخطر من الرجال . كان يبغض الأميرات السابقات، واللائى كان يراهن فى أحلامه يملأهن الرعب يُعْدِدْنَ مع اليزابيث والنمساوية(١) رصاصات لاغتيال الوطنيين . وكان يمقت أيضًا كل الصديقات الجميلات للممولين، والفلاسفة، ورجال الأدب ، لتمتعهنَّ بملاذٍّ حِسِّيّة وفكرية، وعيشهن فى وقت كان يحلو فيه العيش .

كان يبغضهن دون أن يعترف بذلك ، وعندما كان يحاكم إحداهن، فإنه كان يدينها ، وذلك عن حقد ، معتقدًا أنه حَكَمَ عليها بالعدل ، وفى

---

(١) اليزابيث : أخت لويس السادس عشر . والنمساوية هى : مارى أنطوانيت ملكة فرنسا .

سبيل خلاص الشعب وسلامته، وشرفه وحيائه الرجالى، وحكمته الفاترة، وإخلاصه للدولة، وما يتحلى به من فضيلة، كان يدفع تحت المقصلة رُءُوسًا شَجِيَّةً .

ولكن ماذا تعنى هذه البعقرية الغريبة ؟ منذ عهد قريب كان لابد من البحث عن المذنبين، والاجتهاد فى الكشف عنهم فى مكامنهم، وانتزاع الاعتراف منهم بارتكاب الجريمة والآن ، فإن الأمر لم يَعُدْ صيدًا بمجموعة من كلاب الصيد الضخمةَ، لمطاردة فريسة فزعة.. هكذا ، من كل جهة تُقَدِّمُ الضحايا نفسها . فهؤلاء نبلاء ، وعذارى ، وجنود ، وعاهرات يُقَدَّمون إلى المحكمة، وينتزعون من القضاة إداناتهم البطيئة، يطالبون بالموت كحق يتلهفون عليه للتمتع به. وكأنه لم يُكْتَفَ بهذه الكثرة التى مُلِئَتْ بها السجون بسبب حماسة الواشين، واجتهاد المدعى العام ومعاونيه فى أن يزجوا بهم إلى المحكمة، بل صار من الواجب أيضًا تدبير أمر التعذيب لهؤلاء الذين لا يريدون الانتظار .

وآخرون كثيرون متعجلون أكثر، بل أكثر تسرعًا ، يحسدون القضاة والجلادين على قتلهم، فيقتلون أنفسهم بأيديهم ! وتعدل صَوْلة الحب الجنونى للقتل، صولة الحب الجنونى للموت .

وعند البوابة عسكرى شاب ، جميل ، قوى، عاشق ، تَرَكَ فى السجن معشوقةً يحبها لدرجة العبادة ، قالت له : «عِشْ من أجلى !»، لكنه لم يُرِدْ أن يعيش، لا من أجلها، ولا من أجل الحب ، ولا من أجل المجد. وأشعل غليونه بورقة اتهامه. وكان جمهوريًّا، لأنه يستنشق الحرية بكل كيانه،

وقد جعـل من نفسـه ملكيًّا قبـل أن يموت. المحكمة تجتهـد فى تبرءته، لكن المتهم أقوى ، ويضطر القضـاةُ والمحلفون إلى الإذعان .

وكـان فِكْر «إيفـاريست» يمتلىء بالقَلَق ، فقـد كان شكاكًـا بطبيعتـه، يمتلىء بالأوهام والشكوك من دروس اليعقـوبيين، ولدى رؤية الحيـاة . وفى جنح الليل خـرج وهو يتـابع طريقـه ليتـوجـه إلى «إيلودى»، كـانت الطرقات سيئة الإضـاءة، وكان يعتقد أنه فى كل منفذ يرى فى القبـو لوحة الحوالات الحكوميـة المزيفـة، وفى نهاية دُكَّان الخبَّـاز أو البقـال يكشف مَحَالًّ تكتظ بتخـزين المُؤَن المحتكرة من خـلال الزجـاج اللامع للمطاعم، ويُخَيَّل إليه أنه يستمع إلى محادثات المضـاربين الذين يتسببون فى خراب البلد بإفراغهم زجاجات نبيـذ «بون» أو «كابليس»، وفى الشوارع الضيقة التى تفـوح منها الروائح الكهـريهة كان يلمح السـاقطـات مستعدات لأن يطأن بأقـدامهن الشعار الوطنى بتهيللات من الشبـاب الأنيق . ويرى فى كل مكان، متآمـرين وخونة . وكـان يقول فى نفسه : «أيتهـا الجمهورية ! ليس لكِ غيرُ مُعينٍ واحد فى السِّرِّ والعـلانية : المقصلة المقـدسة ، فهى التى تُنقذ الوطن !....».

كانت «إيلودى» تنتظره فى غرفتهـا الزرقاء الصغيرة، التى تعلو متجر «لامور بانتر»، وحتى يعرف أنه يستطيع الدخـول كانت تضـع على إفريز نافذتها رشـاشتها الصغيرة الخضراء، بالقرب من أصِّيص القرنفل .

إنه الآن يُسبب لها الفـزع، فهو يبـدو لها كأنه وحش ، ولكنها كـانت تخشاه وتحبه حتى العبادة . وفى كل ليلة كان يعتصر كُلٌّ منهما الآخر بلا

وعى : العاشق الدمـوى والفتاة الشبقة ، كانا يتبـادلان القبلات المتأججة فى صمت .

* * *

مع بزوغ الفجـر ينهض الأب «لونجمار»، بعـد أن نَظَّفَ الغـرفـة، ثم يذهب إلى كنيســة صغيرة بشــارع «دانفيرا»، كان يخدم فيهـا كـاهن غير محلف . كــان يـوجــد فى باريس آلاف من الخلـوات المتشـــابهة، حيث «الأكليروس» المتمرد يجتمع سريًّا فى مجموعـات مؤمنة صغيرة، ومع أن شرطة القطاعات كـانت حِذِرَةً وكثيرة الشكوك فإنها كـانت تغضُّ طَرْفَهَا عن أحضان الكنيســة المتخفية، خوفًـا من الرعايا الغاضبين، ومـراعاةً لما تبقى من احترام للأشياء المقدسة .

وَدَّعَ الراهب البارنابيتى مُضَيِّفَهُ الذى وجد صعوبة بالغة فى حَمْلِهِ على العودة لتناول العشــاء، ووعده أخيـرًا بـأن الطعــام لـن يكـون وافـرًا ولا ناعمًا.

بَقِىَ «بروتو» وحيدًا ، فأوقد فرنًا صغيرًا من الطين ليُعِدَّ عشاء الراهب والأبيقورى (الذَّواقة).. كان يُعيد قراءة «لوكريس»، ويتأمل حالة البشر .

هذا الحكيم لَمْ يُفـاجَأْ بوجود أُناس بـؤساء كـانوا عبيدًا لا قيمـة لهم لقوى الطبيعـة، وفى حالات لا معقـولة وصعبة، ولكنه كـان من الضعف بحيث كان يعتقد أن الثوريين كانوا أكثـر خُبثًا وأكثر حماقة من الآخرين فى خيالهم . باختصــار، لم يعرف التشاؤم طريقه إليـه قط ، ولا يعتقد أن

الحياة سيئة بوجه عام، فهو مُعجب بالعديد من جوانب الطبيعة، وخاصة الآليـة السماوية (علم حركـات الكواكب)، والحب الطبيعى، ويتكيف مع مشاغـــل الحيـاة منتظـرًا يوم القيـامــة ، حيث لن يشعـر أبدًا بالمخاوف ولا بالرغبات.

لَوَّن «بروتو» بعض العـرائس بعناية، وصنع «زيرلين» دميـة تشبـه «تيفينان»، وكانـت هذه الفتاة تُعجِبُه، وكـان يُثنى بأبيقوريتـه على نظام الذَّرَّات التى كونتها .

هذه الاهتمامات شغلته حتى عـودة الراهب البارنابيتى ، فقال له وهو يفتح له الباب :

– قلت لك يا أبى إن وجبتنا ستكون خفيفة. ليس لدينا سوى القسطل. كما أنه أيضًا لابد أن يكون مُتَبَّلًا.

صاح الأب « لونجيمار » وهو يبتسم :

– لا توجد وجبه ألذ منه. يا سيـدى ، إن أبى كان رجلًا شريفًا وفقيرًا، وكان لا يملك سوى بيتٍ خرِب ، وبستـان برى ، وغابة صغيرة من شجر القسطل . كان يتغـذى هو وزوجته وأبناؤه الاثنا عشر بالقسطل الأخضر الكبير، وكنا جميعًا أقوياء وأشداء . وأنا كنت أصغرهم سنًّا، وكنت شقيًّا، فكان أبى يقول مازحًا بضرورة إرسالى إلى أمريكا لأعمل قرصانًا ....

آه يا سيـدى ! مـا أَزْكى رائحـة حســاء هــذا القسطل ! إنها تُذَكِّـرنى بمائدتنا المُتَوَّجَة بالأطفال ، حيث كانت أمى تبتسم .

وبعد أن انتهى من تناول وجبته، توجه «بروتو» إلى «جولى»، بائع لعب بشارع «نوف – دى – بيتى – شان»، والذى أخذ عرائس رفضها «كايو»، ولم يطلب منها اثنتى عشرة دستة فقط كما كان يفعل «كايو»، بل طلب أربعًا وعشرين دستة للبداية فى التعامل.

وعندما وصل «بروتو» إلى الشارع الملكى سابقًا، رأى فى ميدان «لاريفوليسيون» مثلثًا من الصُّلْب يتألق بين حاملين من الخشب ، كانت تلك هى المقصلة. كان جمع غفير وهائل ومبتهج من الناس يتجمع حول المقصلة، وينتظر العربات الممتلئة . وسيدات يحملن أطباقَ عرضِ الحلوى وينادين حلوى «نانتير» . وبائعو المنقوع يقرعون أجراسهم الصغيرة. وعند سفح تمثال الحرية، كان هناك رجل عجوز يعرض صورًا بصرية على مسرح صغير تعلوه أرجوحة، حيث يقوم قرد بعمل حركات توازن . وكان يُشَاهَدُ تحت المقصلة كلاب تلعق الدماء التى سالت فى اليوم السابق.. غَيَّرَ «بروتو» طريقه إلى شارع « هونوريه » .

ويدخل منزله حيث كان البارنابيتى يقرأ فى كتاب الصلوات، فجفف المنضدة كل عناية، ووضع عليها علبة ألوانه، وكذلك الأدوات والمواد التى يستعملها فى عمله .

قال «بروتو» مخاطبًا إياه : إذا رأيت يا أبى أن هذا الاهتمام غير جدير بالصبغة المقدسة التى أنت عليها، فأرجوك أن تساعدنى فى صناعة العرايس ، فقد أوصانى السيد «جولى» بصنع طلبية كبيرة جدًّا منها ، وأثناء قيامى بتلوين هذه الصور التى شكَّلتها الآن، أكون فى غاية

الامتنان لك إذا قُمْتَ بقص رءوس وأذرعـة وسيقـان وجـذوع وفق هذا النمـوذج، وها هو ذا ، ولن تستطيع أن تجد أفضل منهـا ، فهى مُصَمَّمَـةٌ على طريقة « فاتو » و « بوشيه ».

قال «لونجيمار» : فى الواقع يا سيدى أننى أعتقد أن «فاتو» و«بوشيه» كـانا مُخْتَصَّيْنِ بابتكار مثل هـذه النماذج، وكـان من الأجـدر – من أجل مجدهم – أن يلتزموا بعمل عرائس بريئة مثل هذه العرائس . سيكون من دواعى سرورى أن أسـاعـدك ، ولكنى أخشى أَلَّا أكـون مـاهرًا بما فيـه الكفاية من أجل ذلك العمل .

كـان الأب «لونجيمار» على حق فى أن يشك فى مهارتـه بعد العـديد من المحاولات اليائسـة. كان يجب الاعتراف بأن عبقريته لم تسـاعده لِيُقَطِّعَ بشفـرة السكين دوائر مناسبـة من كـارتون رقيق ، ولكنه عندمـا سـأل «بروتو» أن يعطيـه خيطًا ومِتَكًّا(١) أَبْدَى جدارة فى أن يزود هذه الكائنات الصغيرة بالحركة، والتى لم يكن على دراية بتشكيلهـا وتعليمها الرقص، وكـانت عنده نية طيبـة فى تجربتهـا بعد ذلك، بأن يعمل على تنفيـذ بضع خطوات لكل منها برقصة الجافوتا (الرقصة الفرنسية الريفية)، وعندما تجاوبت مع اهتمامـاته، لاحَتْ على شفتيه الغليظتين ابتسـامة عـريضة . وذات مرة عندما جذب الخيط بقدر معين لإحدى عرائس «إسكاراموش» قال :

(١) المِتك : ما تُـدْخَلُ به التِّـكَّـةُ فى السروايل (المعجم الوسيط) .

– سيدى ، هذا القناع الصغير يذكرنى بقصـــة فريدة، وقد كان فى ذلك سنة ١٧٤٦ ، وذلــك أننى أنهيـت تدريبــى الكهنوتــى، تحت إشراف الأب «ماجيتو»، وهو رجل متقدم فى السن، ذو معرفة متعمقة، وعادات قاسية.

وفى ذلك العصر ربما نتـذكر أن العرائس كـانت مخصصة فى البـداية لتسلية الأطفال، وكانت لها تأثير على النساء ، وكذلك على الرجال ، شبابًا ومُسنين، تجذبهم إليهـا بطريقـــة غير عـادية .. كـــانت تنتشر بكثـرة فى باريس. وكانت مَحَالّ البائعين تكتـظ بها، وكنا نرى منها عند الأشخاص ذوى الكفاءة، ولم يكن نادرًا أن نرى منها فى الطرقات، أو فى نزهة شخص وقور يُرَقِّص عروسته.

إن العمــر، والطبع، ومهنة الأب «مــاجيتو» لم تقــه قط من العـدوى . عندمـا كــان يرى كل فــرد مشغــولًا بتحـريك رَجُلٍ من الكرتون، كــانت أصابعه تُعَبِّر عن نفاد صبر ، وعَبَّرَ فى الحال عن تَكَدُّره .

وذات يوم – من أجل أمر مُهم – قــام بزيارة للسيد «شوفيل» (محامٍ فى البرلمان)، وَلَمَحَ دُمْيَةَ مُعَلَّقة على المدفأة، فراودته رغبة مغرية بأن يجذب الخيط ، ولم يحقق ذلك إلَّا بعـد جهـد عظيم . ولكن هذه الرغبـة العابثـة طاردته، ولم تتركه يهمد. وقد استحــوذت عليه هذه الرغبة وفى دراساته، وفى تأمــلاته، وفى صلواته فى الكنيســة، وفى مجلس الكهنة، وعلى كـرسى الاعتراف، وعلى المنبر. وبعد بضعة أيام أفناها فى اضطراب مخيف، عرض هذه الحالـة غير العـــادية على رئيـس النظام، الذى كــــان لحسن الحظ موجودًا فى باريس. وقـد كان طبيبًا مرموقًا، وأحد أمـراء كنيسة ميلانو،

فنصح الأب «ماجيتو» بأن يُشبع رغبة ساذجة فى أساسها، ومُزعجة فى نتائجها، والإفراط فيها يُهدد بالتسبب فى اضطرابات خطيرة فى النفس التى تقع فريسة لها .

ووفقًا لهذا الرأى عاد الأب «ماجيتو» إلى السيد «شوفيل»، والذى استقبله - مثل المرة الأولى - فى مكتبه ، وعندما وجد «الدمية» معلقة على المدفأة، اقترب منها بحماس، وطلب من مضيفه أن يتفضل بالسماح له بأن يجذب الخيط ولو للحظة. سمح له المحامى بذلك عن طيب خاطر ، وأَسَرَّ له بأنه أحيانًا يقوم بترقيص « اسكاراموش » (ذلك كان اسم الدمية)، وهو يُعِدُّ مرافعاته، وأنه فى اليوم السابق أيضًا قد أعد خاتمة المرافعة لصالح سيدة مُتَّهَمَة زورًا بأنها سَجنت زوجها . الأب «ماجيتو» أمسك بالخيط وهو يرتعد، ورأى تحت يده «اسكاراموش» يتحرك كأنه ممسوس مُعَزَّم عليه ضد الشيطان، وهكذا أشبع رغبته، وتخلص من حالة هذه الرغبة العابثة .

قال «بروتو» : إن قصتك هذه يا أبى لم تدهشنى، فهذه الحالات موجودة، ولكنها ليست دائمًا وجوهًا من الكرتون التى تُسبب هذه الحالات .

ومع أنَّ الأب «لونجيمار»، كان راهبًا فإنه لا يتحدث مطلقًا عن الدين، و «بروتو» يتحدث عن ذلك دون انقطاع، ولما كان يشعر بعطف نحو الراهب البارنابيتى فإنه كان يتلهى بأن يداعبه بإثارته، وأن يُكَدِّر صفوه باعتراضات فى مبادىء مختلفة من العقيدة المسيحية .

وذات مرة ، بينما كانوا يصنعـوا معًا دُمَى زيرلين واسكاراموش (١)، قال «بروتو» :

– عندمـا كنت أنظر إلى الأحـداثَ التـى وضعتنا فى الموقف الذى نحن فيه، أَحَارُ فى معرفة أىُّ الأحزاب أَجَنٌّ مِنَ الأخرى فى ميدان الجنون العام، لم أَنْأَ بنفسى عن الاعتقاد بأنها ترجع إلى البلاط .

أجـاب الراهب قـائـلًا : سيـدى ، إن جميع الرجـال يصبحـون من المعتوهين ، مثـل نَبُـوخذ نَصَّر ، إذا تركهم الرب ولم ينظر إليهم ، ولكنَّـك لا تجد فى أيامنا هذه رجلًا لم ينغمس فى الجهل والخطأ إلى أقصى حد مثل السيد الأب «فوشيه»، ولا رجـلًا لم يكن شؤمًا على المملكة مثله.. لا جَرَم أن الله كان شديد الغضب على فرنسـا من أجل أن يرسل إليها السيد الأب «فوشيه» .

● يبدو لى أننا رأينا شريرين آخرين غير هذا البائس « فوشيه » .

– السيد الأب « جريجوار » كان يبدى كثيرًا من الدهاء .

● و «بريسو»، و «دانتـون»، و «مارات»، ومئات غيرهم.. مـاذا تقول عنهم يا أبى ؟

– سيـدى، هؤلاء مـن العلمانيين.. إنّ العلمانيين لا يستطيعـون أن يتحملوا نفس مسئوليـات الرهبـان، وهم لا يفعلون الشر مـن علٍ، وجرائمهم ليست عامة.

---

(١) أسماء لعب .

● وما قولك يا أبى عن رَبِّكم وسلوكه فى الثورة الحالية ؟

– لا أفهم مقصدك يا سيدى .

● قال أبنيقور : إن الرَّبَّ يريد أن يُحَرِّم الشر ولا يستطيه، أو أنه قادر ولا يريده، أو أنه لا يقدر على ذلك ولا يريده، أو أنه يريده ويستطيعه، فإذا كان يريده ولا يستطيعه فهو غير قادر، وإذا استطاعه ولا يريده فهو ضال ، وإذا كان لا يستطيعه ولا يريده فهو غير قادر وشرير ، وإذا كان يريده ويستطيعه فلماذا لا يعمله يا سيدى ؟

ورمق « بروتو » متحدثه بنظرة قانعة .

أجاب الراهب قائلًا : سيد ى، لا شىءَ أدْعَى إلى الشقاء من المشاكل التى تثيرها أنت . إننى عندما أتحرى أسباب الجحود يُخَيَّلُ إلَىَّ أننى أرى بعض النمل يعترض بعض القشات كعائق فى مواجهة سيلٍ عَرِمْ يندفع من أعالى الجبال، اسمح لى بِأَلَّا أناقشك، فَلَدَىَّ من الأسباب الكثيرة، والمواهب القليلة ما يحملنى على ذلك ، ومع ذلك ، فإنك قد تجد ذَمَّكَ الذى توجهه عند رئيس الدير القس «جينيه»[1] وعند عشرين آخرين، وسأقول لك فقط إن كل ما ذكرته عن «أبيقور» ما هو إلا حماقة وجهالة، لأنه ذَكَرَ الرَّبَّ كأنه إنسان وله صفاته . إن هؤلاء الجاحدين، من « سيلز» وحتى «بايل» و «فولتير» قد أفسدوا الحمقى بمثل هذه التناقضات .

قال « بروتو » : انظر يا أبى إلى أين يقودك اعتقادك ؟ لست مسرورًا

---

(١) راهب كاتب ، وجدلى فرنسى ، ولد سنة ١٧١٧ ، ومات سنة ١٨٠٣ .

أن يوجـد فى لاَهُوتِك كل الحقيقة، وأيضًـا لا تريد أن تقابل أى حقيقـة فى أعمال العباقرة الذين يفكرون تفكيرًا آخر غير تفكيرك أنت .

أجـاب «لونجيمار» : أنت مخطىء تمامًـا يا سيـدى ، فأنا على العكس، أعتقد أنه لا يوجد شىءٌ فى عقل الإنســان يكون كله خطأً تمامًا ، الملحدون يحتلون الدَّرْكَ الأسفل من المعرفـة، وفى هذه الدرجة أيضًـا تُبصر شعـاعًا من العقل، وقبسًــا من الحقيقة، وحتى عندمـا يغرق الإنسان فى المتـاهات فإن له رأسًـا وضـع الله فيه الذكاء .

قـــال « بروتو » : حسنًا يا سيـــدى ، قـد لا أكـــون فى غـــاية الكرم ، وسأعترف لك بأننى لا أجد فى عمل اللاهوتيين ذَرَّةً من الفكر السليم !

ومهما يكن من أمْرٍ ، فإن «بروتو» كان ينكر أنه يريد أن يهاجم الدين، الذى يعتقـد أنه ضرورى للشعب ، كـان يتمنى فقط أن يكون وُعَّـاظُه من الفـلاسفة وليســوا من رجـال الجدل . وكان يأسف على أن اليعقـوبيين يريدون استبـداله بدين أكثر فتـوة ، وأشـد خبثًا .. أن يستبـدلوا به دينَ الحرية، والمساواة ، والجمهورية، والوطن .

وكـان قـد لاحظ أن الأديان فى عنفـوان شبابها كـانت أكثـر صَـوْلَةً وقسوة ، وأنها هدأت عندما شاخ بها العمر .

وأيضًـا يتمنى الإنســان أن نحتفظ بالكاثوليكيـة التى افترست الكثير من الضحــايا فى عهـــد قُـــوَّتها ، والتى همدت الآن تحت وطأة السنين، فصارت تقنع بشهيـة متوسطة، ترتضـى بأربع أو خمس وجبـات شواء من الهراطقة (الملاحدة) فى مائة عام .

وأضاف قائلًا : وفضلا عن ذلك ، فقد تكيفت مع كل ما هو لاهوتى ومسيحى . كان لدىَّ مرشدٌ للإيليت ، وفى كل يوم أحد تقام فيه الصلاة كان يحضرها جميع الذين أدعوهم ، وكان أغلبهم من الفلاسفة ، وفتيات الأوبرا المولعات بالعبادة . كنت حينئذ سعيدًا ، ولى أصدقاء كثيرون .

صاح الأب «لونجيمار» قائلًا : أصدقاء ! أصدقاء !.... آه ! هل تعتقد يا سيدى أن هؤلاء الفلاسفة والأخدان كانوا يحبونك ؟ لا أعتقد ذلك .. فإن أحدهم قد لا يُميز أحد المعابد التى بُنيت لتمجيد الرب .

استمر الأب «لونجيمار» فى الإقامة لمدة ثمانية أيام عند «بروتو» دون أى قلق . كان يتابع بقدر الإمكان واجب جماعته ، وينهض من فوق فراشه المصنوع من القش ليصلى وهو جاثٍ على ركبتيه على البلاط ليقيم فروض الليل . بالرغم من أن الاثنين لا يتوافر لديهما سوى فضلات من الطعام، فعزم على الصوم والتقشف . ويلاحظ الفيلسوف هذا الزاهد مبتسمًا لهذه المشقة ، فيسأله ذات يوم :

– هل تصدق حقًّا أن الرَّبَّ يرضى ويحب ما تفعله، ويُسَرّ لرؤيتك هكذا تعانى من البرد والجوع ؟

أجابه الراهب قائلًا : إن الرَّبَّ ضرب لنا مَثَلَ الألم بنفسه .

وفى اليوم التاسع من إقامة الراهب «البارنابيتى» فى مخزن الفيلسوف، خرج هذا الفيلسوف عند الشفق حاملا عرائسه إلى «جولى»، بائع اللعب ، بشارع «نوف دى بيتى شان»، وعندما عاد كان سعيدًا لأنه

باع كل العرائس ، فلما كـان فى ميدان «كاروسيل» سـابقا، اندفعت نحوه فتاة بعبـاءة من الساتان الأزرق مبطنة بِفَـرْوٍ ، وهى تعرج، وارتمت بين ذراعيه، وقبلته على طريقة المتوسلات فى كل وقت .

كانت تتحدث بصوت لاهث ومنخفض ، خشية أن يسمعها المارة :

- حنانيك ورُحماك !.... خُـذْنِى معك أيها المواطـن، وَاخْفِنِى إنهم فى غرفتى فى شـارع «فرومنتو»، فبينما كانوا يصعدون اختبأتُ عند «فلورا» جارتى، وقفزتُ إلى الطريق من النافـذة حتى التوت قدمى.... إنهم جاءوا يريـدون إيداعى فى السجـن وليقتلونى... فى الأسبـوع الماضـى، قتلوا «فيرجينى » .

أدركَ «بروتو» أنها تتحـدث عن مندوبـى اللجنة الثـورية للقطاع، أو مفتشى لجنة الأمن العـام. كـان مجلس العمـوم فى ذلك الوقت به مُـدَّعٍ فاضل، هو المواطـن« شوميت»، الذى كان يُطارد العـاهرات على أنهن من أشد أعـداء الجمهورية. كان يريد أن يبعـث من جديد العادات والتقـاليد الحميدة .

والحق أنَّ آنسات باليـه - ديجاليتيه (قصـ المسـاواة) كانت وطنيتهم محدودة، وكُنَّ يـأسفن على الحالة السـابقـة ولا يُخفين ذلك دائمًا ، والكثيرات منهن تم إعدامهن بالمقصلة كمتـآمرات، ومصيرهن المأساوى قد أثار المنافسة الشديدة بين مثيلاتهن .

وسأل المواطن «بروتو» المتضرعـة عن سبب إصدار الأمْـرِ باعتقالها، فأقسمت أنها لا تعرف شيئًا ، ولم تفعل شيئًا يستوجب ذلك . فقال لها :

– حسنًا يَا بُنَيَّتِي، أنْتِ إِذَنْ لَسْتِ مشبوهــة ، وليس هنالك ما تخشينه ، اذهبي ونامي ، ودعيني فى هدوء .

حينئذ اعترفت بكل شيء قائلة :

– لقد انتزعتُ شارتي الوطنية ، وهتفتُ : « عاش الملك ! » .

فاصطحبها متأبطًا ذراعها فى الطرقات المقفرة، قالت :

– ذلك لم يكن لأنى أُحب الملك، واعلم أننى لم أَرَهُ ولم أتعرَّف عليه قط، وربما لم يكن رجلًا كبقية الرجــال ، أو يختلف عنهم اختلافًا كبيرًا. ولكن هؤلاء أُناسٌ من الأشرار، فهم يُظهـــرون القســوة على الفتيــات اللائى لا حول لهن ولا قوة . إنهم يُضايقوننى ويؤذوننى ويوسعوننى سبًّا بشتى الطرق، وهم يريدون منى أَلَّا أُمارس مهنتى . وليست لى أى مهنة أخرى . تصـــور أننى حقًّــا لا أمتهن أى مهنة غيرها، وإذا لم أمــارس هذه .. فماذا يريدون ؟ إنهم يعاملون الصِّغَــارَ، والضعفاءَ، وباعــة اللَّبَنِ ، والفحّامين، والسَّقَّــائين، والغسَّالات بكل شــدة وضراوة ، ولن ينصلح حــالهم إلَّا إذا أثاروا ضدهم الطبقة الفقيرة .

نظر إليهــا .. كــان لها مظهــر طفلة . ويــذهب عنهــا الخوف . وكــانت مبتسمــة، وتعــرج عـــرجًــا خفيفًــا . سألها عن اسمهـــا . كــان اسمهــا «أثينابيس»، و تبلغ من العمر ستة عشر عامًا .

وعرض عليهــا «بروتو» أن يوصلها إلى حيث تريــد . هى لا تعرف أى شخص فى باريس ، ولكن لها خــالة ، تعمل شغــالة فى «باليــزو» يمكن أن تقيم عندها .

ويتخذ « بروتو » قراره ، ويقول لها :

- هلمَّ بنا يا صغيرتى .

واصطحبها متأبطًا ذراعَها .

عاد إلى منزله . ووجد الأب «لونجيمار» يقرأ فى كتاب الصلوات، فقدَّم إليه «أثينايبس»، وكان يمسكها من يدها ، وقال :

- أبى ، هذه فتاة من شارع «فرومانت»، صاحت «يحيا الملك!»، وشرطة الثورة فى إِثْرِها . ليس لها أى مناص .. هل تسمح بأن تقضى الليل هنا ؟

أغلق الأب «لونجيمار» الكتاب الذى كان يقرؤُه وقال :

- إذا صدق حَدْسى عن سؤالك فأنت تسألنى عَمَّا إذا كانت هذه الفتاة التى تُعتبر مثلى (تحت طائلة قرار اعتقال) تستطيع أن تقضى ليلتها من أجل سلامتها المؤقتة فى نفس الغرفة التى أقيم فيها .

- نعم يا أبى .

● وبأى حق أعترض على ذلك ؟ وإذا كنت تعتقد أننى مُتَكَدِّرٌ من وجودها ، فَمِن أين لى أن أدرى أننى أكثر منها قيمة ؟

واضطجعَ طوالَ الليل على مقعد بمسندين قديم ومتهالك، مؤكدًا أنه سينام عليه مستريحًا، فى حين نامت «أثينايبس» على المرتبة، وأطفأت الشمعة .

كانت أجراس الكنائس تدق كل نصف ساعة، وكل ساعة، ولم يغمض له جفن ، وكان يشعر بأنفاس الراهب والفتاة، وَيَطْلُع القمر، الذى هو صورة وشاهد على غرامياته السابقة، باعثًا بأشعته الفضية على السقف، حيث أضاء الشعر الذهبى ، والحواجب الذهبية، والأنف الدقيق ، والفم المستدير الأحمر للفتاة «أثينايس» التى كانت نائمة وهى مضمومة الأصابع .

ويقول فى نفسه :

– « ها هى ذى ، عدوة لدودة للجمهورية ! » .

عندما استيقظت «أثينايس» كان النهار قد استبان، وكان الراهب قد انصرف ، و « بروتو » كان يقرأ «لوكريس» بجوار النافذة الصغيرة. كان يتثقف بدروس الوحى اللاتينى ليعيش دون خوف، ودون رغبات ، ومع ذلك كان يفترسه الندم والأسى .

وعندما فتحت «أثينايس» عيونها شاهدت فى دهشة عوارض المنزل الخشبية فوق رأسها، ثم تذكرت ، فتبسَّمت لمُنقذها ، ومدت يديها الصغيرتين الجميلتين القذرتين لتداعبه وأشارت بأصبعها – وهى منتصبه على فراشها – إلى المقعد المتهالك ، حيث قضى الراهب ليلته عليه ، وقالت :

– هل انصرف ؟.... قُلْ، ألم يذهب للوشاية بى ؟

● لا ، يا صغيرتى . لا يوجد فى العالم رجل أشرف من هذا العجوز المجنون .

فسألته «أثينابيس» عن جنون هذا الرجل الطيب، وعندما قال لها «بروتو» إنه الدين، فوجهت إليه اللوم لِئلَّا يتحدث هكذا عنه، قائلة له : إن مَنْ لا دين له يُعَدُّ أسوأ من البهائم. وأما بالنسبة إليها ، فهى تصلى الله دائمًا ، آملة أن يعفو عنها ويغفر لها خطاياها ، وأن يتغمدها برحمته .

وعندما لاحظت أن «بروتو» يُمسك بكتاب ، اعتقدت أنه كتاب صلوات، فقالت له :

– هكذا أنت تقرأ صلواتك ! إن الله سوف يثيبك على ما قمت به معى .

أوضح لها «بروتو» أن هذا الكتاب ليس للصلوات، وأن هذا الكتاب يرجع تاريخ كتابته إلى ما قبل أن تدخل فكرة الصلاة فى الدنيا ، فاعتقدت أنه تفسير للأحلام، وسألته عَمَّا إذا كان يتضمن تفسير حُلم غير عادى رأته فى منامها .

إنها لا تعرف القراءة، ولم تكن تعرف – عن طريق السمع – إلا هذين النوعين من الكتب .

أجابها «بروتو» : إن هذا الكتاب لا يُفَسِّرُ سوى حلم الحياة !

ولما لمستْ صعوبة هذه الإجابة ، عَـدَلَتْ عن أن تفهمها وغمرت طرف أنفها فى الإناء الخزفى الذى يحل – بالنسبة إلى «بروتو» – محل الأحواض الفضية التى كان يستخدمها فيما مضى . ثم ساوت شعرها أمام المرآة بعناية فائقة .

وكانت ذراعاها البيضاوان معقودتين فوق رأسها، وكانت تتلفظ ببعض الكلمات حينًا بعد حين ، قالت :

- لقد كُنْتَ ثريًّا .

● وما الذى جَعلكِ تعتقدين ذلك ؟

- لستُ أدرى ، ولكنكَ كنتَ مترفًا ، وكنتَ أرستقراطيًّا ، إننى متيقنةٌ من ذلك .

ثم أخرجتْ من جيبها تمثالًا صغيرًا من الفضة للعذراء مريم فى كنيسة صغيرة من العاج ، كما تُخرِج قطعةَ سُكر، وخيطًا ومِقَصًّا، وقداحة، ومئبرين أو ثلاثة، وبعد أن أخذت ما يلزمها، شرعت فى ترقيع تنورتها التى كانت ممزقة فى مواضع كثيرة .

قال لها «بروتو» : من أجل سلامتك يا صغيرتى ضَعِى هذا على غطاء رأسك ! ثم ناولها شارة وطنية ثلاثية الألوان .

أجابته قائلة : سأفعل ذلك يا سيدى عن طيب خاطر ، ولكن لن أفعله محبة فى الأُمة ، بل محبة لَكَ أنت .

وعندما تهندمتْ وَبَدَتْ بأفضل هيئة ، أمسكت بطرفى تنورتها، وانحنت باحترام - كما تعلمت فى القرية - وقالت لبروتو :

- سيدى ، إننى خادمتك المتواضعة .

كانت على أتم استعداد أن تُرضى مُضيفها فاعِلَ الخير بأى طريقة، ولكنها وجدت أنه من اللائق ألَّا يطلب شيئًا ، وأنها لا تعرض شيئًا .. كما بَدَا لها أن من اللائق أيضًا أن يفترقا هكذا وفقًا لأصول الذوق .

وضع «بروتو» فى يدها بضعة حوالات حكومية من أجل أن تستقل العربة إلى « باليزو ». كان ما أعطاه يساوى نصف النقود التى معه، وبالرغم من أنه معروف بإسرافه على النساء، فهو لم يتقاسم ماله مع أى سيدة من قبل .

سألته عن اسمه .

– اسمى « موريس » .

فتح لها الباب آسِفًا :

– الوداع يا « أثينابيس » .

فقبّلته قائلة :

– سيدى «موريس»، عندما تُفكر فىَّ، سَمِّنِى «مارت»، فذلك هو اسمى الأول، والاسم الذى يطلقونه علىَّ فى القرية... الوداع ، وشكرًا.... إننى خادمتك المطيعة يا سيدى «موريس» .

* * *

كان لابد من تفريغ السجون المكتظة، وكان لابد من إصدار الأحكام دون هدنة، وبلا هوادة. كان القضاة – مثل أسلافهم الملكيين – يجلسون فى هدوء مخيف ، ويحتفظون بوقارهم أمام حوائط مغطاة بشعارات فاشستية، وأغطية رأس حمراء اللون – مثل أقرانهم – على زهور الزنبق (كانت زهرة الزنبق رمزًا للملكية فى فرنسا) .

المدعى العـــام ونوابه مُنْهَكُون من الإرهــاق ، وبحــالة سيئــة من أثر السـهر ومعــاقرة العرقى (مشروب كحولى)، لا ينفضــون عن كاهلهم هذا الإرهاق إلا بمجهــود عنيف، وســوء حــالتهم الصحيـــة جعلت منهم شخصيات مأساوية .

المحلفون، من أصــول وطباع مختلفــة، جبناء أو كرمــاء، منافقون أو مخلصـــــون، ولكن جميعهم – حيـــــال الخطـر الذى يُحدِق بالـوطن والجمهـورية – إما يشعــرون أو يتظاهرون بأنهم يشعــرون بنفس الغمِّ والجَزَع، وأنهم يحترفون بنفس اللهيب، وجميعهم قُسَاةٌ، إمَّا عن فضيلة، وإمَّـا عن خوف. وهم جميعـا يُشكلون مخلوقًا واحـدًا ، أو رأسًا واحـدًا غاضبًا أَصَمَّ، أو نفسًا واحدة، أو دابَّة غـامضة إذا قامت بأعمالها بطريقة طبيعية، تسفر عن فيض من حالات الموت.

وسواءً كانوا قساةً أو بواسِلَ بـالإحساس فإنهم تهزهم فجأة حركة شفقــة مباغتــة، فقد بَرَّءُوا، أحــد المتهمين، وكانوا منذ ســاعة قـد أدانوه بسخرية. كلما تقــدموا فى مهمتهم كـانوا يتبعون – بلا رحمة – دوافعهم العاطفية .

إنهم يُصدرون أحكامهم وهم محمومــون، وفى غفوة، نتيجة للإفراط فى العمل، وتحت تحريضٍ مِمَّنْ هم بالخارج، وبأوامر من الحاكم، وتحت تهديد اللامتسرولين لهم، والحائكات المندفعــات فى المنصــات، وفى الحرم العمومى ، وفقًا لشواهد دامغة عن قــرارات اتهام هذيانية، وفى جو فاسد

يثقل على العقول، ويسبب طنينَ الآذان وضربًا للأصداغ، ويغشى العيون بغلالة من الدماء .

وتسرى إشاعات غامضة بين أفراد الشعب عن بعض المحلفين المُرتشين بأموالٍ من المتهمين، ولكن هيئة المحلفين ردت على هذه الشائعات باعتراضات ساخطة، وإدانات صارمة .

وأخيرًا ، هؤلاء كانوا رجالًا ، لا هم أسوأ ولا أفضل من الآخرين. والبراءة – فى معظم الأحيان – سعادة وليست فضيلة، وأى فرد قَبِلَ أن يضع نفسه مكانهم يتصرف مثلهم، ويقوم بهذه المهام الخانقة بروح متواضعة .

و«أنطوانيت» التى طال انتظارها. جاءت أخيرًا لتجلس بثوبها الأسود على المقعد المشئوم، فى وسط جوقة حقدٍ وكراهية، وأن المصير المحتوم الذى سوف يتضمنه الحكم كان معروفًا مقدمًا، وهو الذى أدى إلى احترام الشكليات.

وكانت المتهمة تجيب على الأسئلة القاتلة تارة بتحفظ غريزى، وأخرى باستعلائها الذى جُبِلَتْ عليه، ومرة – بفضل فضيحة من أحد وشاتها – تُجيب بعظمة أُمٍّ من الأمهات . كانت الوشاية أو الإهانة فقط هى الشيء الوحيد المسموح به للشهود ، والدفاع يَجْمُد من الخوف.

كانت المحكمة مجبرة على أن تحكم حسب القواعد والأصول، كانت تنتظر حتى ينتهى كل ذلك، لكى تلقى برأس النمساوية إلى أوروبا .

وبعــد ثلاثة أيام من إعــدام «مــارى – أنطـوانيت»، تم استــدعـــاء «جاميــلان» تلبية لرغبــة المواطن «فورتينيــه تروبير»، الذى كان يحتضر على بُعْـد ثلاثين خطوة من المكتب العسكرى، حيث كان يُسْلِم روحــه على سرير من السُّيُور فى خَلْوَة أحــد البارنابيين المُبعدين، ورأســه الأدكن كان غاطسًــا بين طيات الوســادة، وعيناه – اللتــان لم يعد يرى بهما – كــانتا تدوران فى مُقْلتِيهما الزجاجيتين نحو «إيفاريست»، وأمسكت يده الهزيلة بيد الصديق وضغطت عليها بطريقة غير مُنتظرة. وكان قد تَقَيَّأَ دمًا ثلاث مــرات فى يومين. حـــاول أن يتكلم، كــان صــوته فى البــداية واهنًا وغير واضـح، كأنه همهمة ، ثم علا وتضـخم :

– فاتينيى[1] ! فاتينيــى !... جوردان[2] هاجم العدو فى معسكره... وفك حصـــار «موبوج»، واستـولينا على «مارسيــان»[3] واستردناها... وكل شىء سيكون على ما يرام ... وابتسم .

لم تكن تلك أحلاَم مريضٍ أو تهيـؤات المرض، بل كانت رؤية واضحة للحقيقة التى أنارت هذا العقل الذى حلت عليــه الدياجير الأزلية. ومن بعد ذلك، كان يبدو أن الغزو قــد توقف : الجنرالات كانوا مرهوبين، فَرَأَوْا أنه ليس هناك أفضل من الانتصار، وذلــك ما يحققه التجنيـد التطوعى، فقد أَمَدَّهُ بجيــش كبير العدد مُدَرَّبٌ ومنضبط، وإذا مــا بُذِلَ مجهودٌ آخَــر فإن الجمهورية يمكن أن تُنْقَذ .

---

(١) بلدة فى شمال فرنسا .
(٢) قائد فرنسى .
(٣) مدينة فى شمال فرنسا .

وبعد نصف ساعة من الإنهاك اضْمَحَـلَّ وجه «فورتينيه تروبير»، ثم عادت إليـه الحيوية مرة أخـرى، وارتفعت يده وأشار بأصبعـه إلى قطعة الأثاث الوحيـدة البـاقيـة فى الغـرفـة، مكتب صغير من خشب الجوز، وبصوته اللاهث الضعيف، الذى يتحكم فيه فِكْرٌ جَلِىٌّ قال :

– أَىْ صـديقى ، إننـى مثل «أوداميـداس» أُوصِيكَ بديـونى، وهى ثلاثمائة وعشرون جنيهًا، ستجـد حسابها فى هذا الدفتر الأحمر... الوداع يا «جـاميلان»، لا تغفل عنهـا، واسهـر على سلامـة الجمهوية. الأحـوال ستكون مُرضية.

وأسدل الليل ستاره على الخَلْوَة، وكانت أنفاس المحتضر تتردد ، ويداه تفرك الملاءة. وعند منتصف الليل نطق بكلمات متقطعة :

– المزيد من ملح البـارود.... سَلِّم البنادق.... الصحَـةُ ؟ جيدة جـدًّا... أَنْزِلُوا هذه الأجراس ....

وَلَفَظَ أنفـاسه الأخيرة فى الساعـة الخامسة صبـاحًا. وبأمـر القطاع عُرِضَ جسـده فى الكنيسة السـابقة للبـارنابيت، عند سفح هيكل الوطن، على سرير ميدان، وجسده ملفـوف فى عَلَمٍ ثلاثى الألوان، ويحيط بجبهته إكليل من البلوط .

ويحيط بسريره اثنا عشر عجـوزًا يرتدون التـوج (ثوب رومـانى فضفـاض)، وحاملين سعفًـا (جـريد نخل) فى أيديهم، واثنتا عشرة فتـاة يسحبن غـلالات طويلة ويحملن زهورًا، ويُحِطْنَ بالفِرَاش. وعند قـدمى الميت طفـلان يمسك كل منهما مَشْعَلًا مُنكسًـا. تَعرَّف «إيفـاريست» على

أحـدهما ، كانت ابنـة بوابته «جـوزيفين» التى – بجـاذبيتهـا الطفوليـة، وجمالها السـاحـر – كـانت تُذَكِّره بجِنيَّـات الحب والموت اللائى كـان الرومان ينحتونها على توابيتهم .

توجه الموكب إلى جبانة «ســان – أندريه – ديزار» بالأناشيد الوطنية، وكـانت الأحوال مـرضيـة. وبعد أن طبع «إيفـاريست» قبلة الوداع على جبين «فورتينيـه تروبير» انخرط فى البكاء. وبكى على نفسه هو، حـاسدًا هذا الذى يرقد للراحة الأبدية لاكتمال مهمته .

وعندما عـاد إلى منزله، تسلم إعلانًا بأنه عُيِّن عضـوًا فى المجلس العام لمجلس العمـوم. وقد رُشح لهذا المنصب منذ أربعـة أشهـر، وكان قـد تم انتخابه دون منافس، وبعـد اقتراعات عديدة بما يقـرب من ثلاثين صوتًا انتخابيًـا. لم يكن هناك تصويت، كـانت الإدارات مقفرة، وكـان الأثرياء والفقراء لا يبحثون إلَّا عن التخلُّص من المهام العمومية.

أعظـم الأحـداث لم تكن تحثُّ على حماسٍ أو تطـلُّـع ، وأصبح النـاس لا يُطالعون صُحُفًا، وكـان «إيفاريست» يشك فى أن من بين سبعمائة ألف نسمة (هم سكان العاصمة) ثلاثة أو أربعة آلاف فقط هم الذين لهم روح جمهورية.

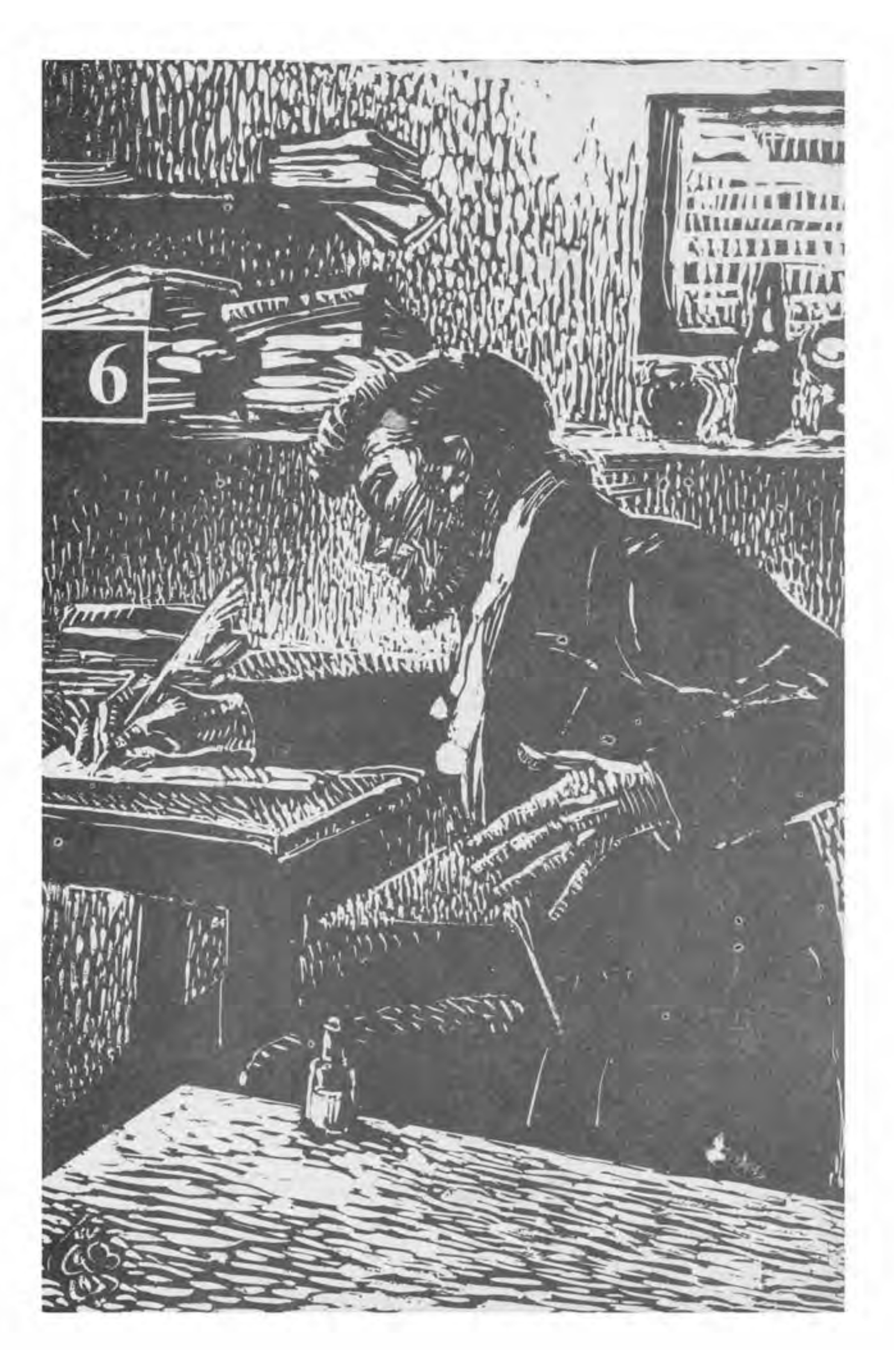
فى هذا اليـوم، الواحد والعشرون مَثُلُوا أمـام القاضى. هم مـذنبون أو أبرياء من بؤس وجرائم الجمهورية.. هم واهمون، طائشـون، طموحون وخَطَّاءون، معتـدلون وقسـاة، فى آن واحد، ضعفـاء فى القسـوة والحلم،

متعجلون لإعلان الحرب، ومتباطئون فى إدارتها، هم زاحفون إلى المحكمة بالقدوة التى ضربوا مثالًا لها .

لم يكن لديهم شباب الثورة المتدفق ، كان لديهم منها الجمال والمجد . هذا القاضى الذى سوف يسألهم بتحيز واضح، هذا المدعى ممتقع الوجه، يجلس هناك خلف طاولته الصغيرة يُجهِّز لموتهم وإذلالهم، هؤلاء المحلفون الذين يريدون فى الحال أن يخنقوا دفاعهم ، وهذا الجمهور - جمهور المنصات - يُمطرهم بوابل من السَّبِّ والسخرية. قاضٍ ، ومحلفون ، وشعب ، منذ عهد قريب صفقوا لبلاغتهم، وهتفوا لمواهبهم وفضائلهم، ولكنهم نسوا كل شىء .

كان «إيفاريست» يجعل من «فرجينو» رجل الدين الذى يستشيره ، ومن «بريسو» وسيطه ، ولكن «إيفاريست» نسى تمامًا ، وإذا كانت هناك بعض آثارٍ من إعجابه القديم، فذلك لكى يدرك أن هؤلاء الوحوش قد خدعوا أفضل المواطنين .

وفى عودته إلى منزله - بعد الجلسة - سمع «إيفاريست» صرخات ممزقة صادرة من الصغيرة «جوزيفين» التى كانت أمها تضربها لأنها لعبت فى الميدان مع أطفال الشوارع السوقية، واتسخ ثوبها الأبيض الجميل الذى ارتدته من أجل جنازة المواطن « ترويير » .


6

6

كان «إيفاريست» طوال ثلاثة أشهر يقدم كل يوم للوطن ضحايا من المشاهير أو من المغمورين، ثم تكون عنده قضية خاصة به عن متهمٍ أصبح مُتَّهَمَهُ الخاص .

منذ أن اتخذ مقعده فى المحكمة تَرَصَّد بلهفة – من بين جموع المتهمين التى تمر أمام عينيه – الشخص الذى غَرَّرَ بإيلودى ، والذى رسم له صورة – فى مخيلته الخصبة – ذات قسمات محددة . تخيله شابًّا جميلًا ، وقحًا، وكان على يقين أنه كان مُهاجرًا فى إنجلترا . وقد اعتقد أنه اكتشفه فى شاب مهاجر اسمه «موببيل»، والذى عند عودته إلى فرنسا كان مضيفه قد وَشَى به ، وتم اعتقاله فى أحد فنادق «باسى»[1]، وأن نيابة «فوكييه – تانفيل» العامة أُحيطت علمًا بهذه القضية مع ألف قضية أخرى .

عُثر على خطابات عنده اعتبرها الاتهام أدلة على تآمره بالاشتراك مع أعوان «بيت»، ولم تكن فى الحقيقة سوى رسائل مرسلة إلى المهاجر من بعض رجال البنوك من لندن، والذى كان يودع عندهم أموالًا .

---

(١) باسى : أحد أحياء باريس .

«موبيل» كان شابًّا، وجميلًا ، وكان يبدو مشغولا بالمغامرات العاطفية خاصة. ووجد فى بطاقته أثر علاقات مع إسبانية، وكانت إسبانيا فى ذلك الوقت فى حرب مع فرنسا، مع أن هذه الرسائل كانت – فى الحقيقة – شخصية ، وإذا كانت النيابة العامة لم تُصدِر قرارًا بأنه لا وجه لإقامة الدعوى، فقد كان ذلك بموجب هذا المبدأ بأن العدالة لا يجب مطلقًا أن تتسرع فى إطلاق سراح أى سجين .

اطَّلع «جاميلان» على التحقيق الذى أُجْرِىَ مع «موبيل» فى غرفة المجلس، وفوجىء بأوصاف الشاب الذى تخيَّله فيما سبق تنطبق على الرجل الذى غَرّر بإيلودى، ومنذ ذلك الوقت وهو لم يبرح مكتب كاتب المحكمة ساعات طويلة ليدرس الملف بدقة. وتزايدت شكوكه بطريقة غريبة عندما وجد فى مفكرة قديمة تخص المهاجر عنوان محل «لامور بانتر» مرفقة بعنوان محل «لوسانج فير»، وصورة للدروفينة سابقًا، وكذلك كثير من محلات الصور واللوحات، ولكن، عندما علم أنه كان يوجد فى نفس هذه المفكرة بعض تويجيات زهرة قرنفل حمراء، مغطاة بعناية فائقة بورقة حرير، فكر فى أن القرنفل الأحمر هو الزهرة المفضلة عند «إيلودى»، والتى تزرع منها على إفريز نافذتها، وتضع منها فى شعرها، وتهديها (وهو يعرف ذلك) كدليل على الحب. «إيفاريست» لم يُساوره شك حينئذ لكى يتأكد بنفسه، فقرر أن يستفهم من «إيلودى»، ومع ذلك فقد كان يخفى عنها ظروف اكتشاف المجرم.

ولما كان يصعد الدَّرَج فى منزله شم من بداية السلالم رائحة فاكهة،

ووجـد «إيلودى» فى المرسم، كانت تسـاعـد المواطنة «جاميـلان» فى عمل مـربى السفرجل. وبينما كـانت ربة البيت العجـوز تُشعل الفرن كـانت تقـدح زناد فكرها فى وسائل توفير الفحم والسكر الأسمـر دون أن تضر بجـودة المربى. وكـانت المواطنة «بليـن» على مقعـدها المصنوع من القش متمنطقة بمـريلة من الكتان الأسمـر، وأمامهـا فواكه ذهبيـة اللون ملء حجـرها، تقشرها وتقطعها إلى قطع وتلقى بـه فى قِدْرٍ نُحـاسية. وكـانت أطراف غطاء رأسها منسدلة إلى الخلف، وخصلات شعرها الأسود تتثنى على جبهتها الندية، وكـان ينبعث منها سحر أليف ورِقَّة طبيعيـة توحيان بالأفكار الحلوة والشهوة الهادئة .

رفعتْ عيونها الجميلة – دون أن تتحـرك – إلى حبيبها بنظرات جميلة كالذهب السائل ، وقالت :

– انظر يا «إيفـاريست»، نحن نعمل من أجلك، وسـوف تأكل طوال الشتاء مربى السفرجل اللذيذة التى تقوِّى معدتك، وتُبهج قلبك .

اقترب منها «جاميلان» ونَطَقَ بهذا الاسم فى أذنها :

– « جاك موبيل ... ».

وفى هذه اللحظة وصل «كـومبالو» الإسكافى، وأطل بأنفـه الأحمر من الباب المُوَارَب، وأحضر معـه – مع الأحذية التى رَكَّب لها كعبًـا – حسابَ تركيب النعال الجديدة . وخوفًا من أن يـؤخذ على أنه مواطن غير صالح، فقد استخدم التقويم الجديد .

حَارَت المواطنة «جاميلان»، – التى كانت تحب أن تتأكد من حسابتها – حارت فى «الفريكتيدور» (الشهر الثانى عشر من التقويم الجمهورى، ويبدأ يوم ١٨ أو ١٩ أغسطس)، وفى «الفينديميير» (أول شهر فى التقويم الجمهورى).

وتنهدت قائلة :

– يا يسوع المسيح ! يريدون أن يُغيروا كل شىء : الأيام ، والشهور ، والفصول، والشمس والقمر ! يا إلٰهى.. يا سيد «كومبالو»، ما هذا؟ زوج من الجُرْمُوق (واقٍ للحذاء) فى ٨ من «فينديميير» ؟

● أيتها المواطنة، أَلْقِ نظرةً على نتيجتك لتعملى حساباتك .

انصرفت عنه ، ورمقته بنظراتها، ثم استدذرات فى الحال ، وتمتمت وهى مكفهرة :

– لا يبدو عليها مَسْحَةٌ نصرانية .

قال : ليس هذا فقط أيتها المواطنة ، بل لا يوجد عندنا سوى ثلاثة آحادٍ فقط بدلًا من أربعة، وليس هذا كل شىء، فلابد من تغيير طريقتنا فى الحسابات، لن يكون هناك فَلْس أو دُنَيْر (أسماء عملة قديمة ضئيلة القيمة)، كل شىء سيكون كالماء المُقَطَّر .

وعقب هذه الكلمات رَفعت المواطنة «جاميلان» عينيها إلى السقف، مرتجفة الشفتين، وقالت بِحَسْرَةٍ :

– ماذا سيفعلون أكثر من ذلك !

وبينما كانت تشكو بأنين ، مثل قديسات الصُّلْبان الريفيات، حدث أثناء غيابها أن انتشرت «دخانة» من جمر الفرن وملأت المرسم، وأصبح الجو غير صالح للتنفس بعد أن اختلطت رائحة السفرجل مع هذه الأدخنة.

واشتكت «إيلودى» بحشرجة فى زورها، وطلبت فتح النافذة . وبمجرد أن انصرف المواطن الإسكافى والمواطنة «جاميلان» عادت إلى فرنها . ويكرر «إيفاريست» اسم «جاك موبيل» فى أُذن المواطنة «بلين». فنظرت إليه بشىءٍ من الدهشة، وبمنتهى الهدوء، ودون أن توقف عن تقطيع السفرجل ، قالت :

– حسنًا !.... « جاك موبيل » ؟...

● إنه هو !

– من ؟ هو ؟

● أعطيتِهِ قرنفلة حمراء .

وصرحت أنها لا تفهم شيئًا ، وطلبت منه أن يفسر لها .

– هذا الأرستقراطى ! هذا المهاجر ! هذا النذل !.... هزت كتفيها ونفت أنها تعرف أى أحد بهذا الاسم، دون أن يبدو عليها أى شىء غير عادى .

والواقع أنها لم تكن تعرفه قط . ونفت أنها لم تُعْطِ أحدًا زهرة قرنفل حمراء إلا إلى «إيفاريست»، ولكن ربما – من هذه الناحية – لم تكن ذاكرتها جيدة .

لم يكن «جاميلان» يعرف النساء جيدًا، فهو لم يتعمق جيدًا فى طبيعة «إيلودى»، ومع ذلك فهو كان يعتقد أنها قادرة على أن تتظاهر وأن تخدع من هو أكثر منه دهاءً ومهارة. قال :

– لماذا تنكرين ؟ أنا أعرف .

وأكدت مرة أخرى أنها لم تعرف أى أحد باسم «موبيل»، وعندما انتهت من تقطيع «السفرجل» طلبت قليلًا من الماء، لأن يديها قد اتسخت .

أحضر « جاميلان » حوضًا لها .

ونفت مجددة – وهى تغسل يديها – عدم معرفتها بهذا الشخص. وكرر مرة أخرى أنه يعرف ، وفى هذه المرة التزمت الصمت .

لم تكن تدرك إلى ما يرمى سؤال «إيفاريست»، وكانت بعيدة كل البعد عن أن تشك فى أن «موبيل» هذا – والتى لم تسمعه يتحدث عنه مطلقًا – سوف يَمْثُل أمام المحكمة الثورية، وهى لا تفهم شيئًا عن الشكوك التى تحوم حولها، ولكنها مُتيَقِّنَةٌ أنها لا أساس لها من الصحة، لذلك كانت لا أمل لها فى تبديدها، فهى ليس لها رغبة فى ذلك، وتوقفت عن الدفاع عن نفسها بعدم معرفة «موبيل»، مُفَضِّلة أن تَدَعَ هذا الغَيُور شاردًا فى طريق زائف، حتى يرشده أدنى حَدَث إلى الطريق الصحيح. إن كاتبها الصغير السابق الذى أصبح فارسًا ظريفًا محبًّا للوطن قد ساءت علاقته الآن بعشيقته الأرستقراطية، عندما قابل «إيلودى» فى الطريق نظر إليها نظرة كأنها تقول : «هيا بنا أيتها الجميلة ! إننى أشعر حقًّا بأننى سوف أُجَنِّبُك أى خيانة، وأننى على وشك أن أُكِنَّ لكِ كل احترام».

إذَنْ لن تبذل جهدًا لكى تُشْفِى صـديقها مما تُسميه «أهواء حبيبها»..
و«جاميلان» لا يزال مقتنعًا بأن «جاك موبيل» هو الذى غرر بإيلودى.

وفى الأيام التاليـة ستهتم المحكمة - دون تقصير - بتدمير الفيـدرالية التى تهدد - كالأُفعوان - بافتراس الحرية.

كانت أيامًـا عصيبة، والمحلفون كـانوا منهوكى القـوى، لذا تخلصوا بأسرع ما يمكن من الزوجة «رولاند»، المُلْهِمـة والمُتواطئة فى جرائم حزب «بريسوتين».. ومـع ذلك، كان «جاميـلان» يقضـى كل صباح فى النيـابة العـامـة، للتعجيل بقضية «مـوبيل»، وكـانت توجـد مستندات مهمـة فى «بوردو»، وقـد نَمَا إلى عِلمـه أن أحـد المفتشين تَقَصَّـى عنهـا فى البريد. وأخيرًا وَصَلت .

وقرأها نائب المدعى العام، وقال - مُمتَعِضًا - لإيفاريست :

- لا يوجد فى هذه المستندات ما هو مهم، فليست إلا سـذاجات ولَغْوًا ! لو كان من الثابت أن هذا الكونت السابق (كونت دى موبيل) قد هاجر!...

وأخيرًا نجح «جاميلان»، وتلقى «موبيل» الشاب قرار اتهامه، وتُرجِم أمام المحكمة الثورية فى التاسع عشر من بروميز (٩ نوفمبر).

ومن بداية افتتاح الجلسة أَبْدَى الرئيسُ وجهًا مُقَطَّبًـا وعَبوسًا ، وكان يحرص دائمًا على أن يبـدو كـذلك لكى يحكم فى القضـايا التى لم تُدْرَس جيدًا .

كان المدعى العام يداعب ذقنه بطـرف قلمه، وكان يتظاهر بأن ضميره

صَحْوٌ ونقىٌّ. قرأ كاتب المحكمة قرار الاتهام قائلًا : لم يسبق أن استمعنا إلى أجوف من ذلك. ووجَّـه الرئيس سؤالًا إلى المهاجر عَمَّا إذا كـان يعرف أو لا يعرف القوانين التى تتعلق بالمهاجرين.

فأجاب «موبيل» قائلًا : نعم، لقد عـرفتُها ولاحظتها، وغادرتُ فرنسا وأنا مُزَوَّدٌ بجوارِ سفرٍ قانونى.

وأمَّا عن أسباب سفره إلى إنجلترا، وعن عودته إلى فرنسا ، فقد فَسَّرها بطريقة مُقنعـة. كان وجهه هادئًا، تُظهـره الصراحة، والزَّهْو الذى يوحى بالإعجـاب. وكـانت النسـوة اللائـى يجلسن فى المنصـة يرمقنه بنظرات مُرْضِيَةٍ. كـان الاتهام يَدَّعى أنه أقام فى إسبانيا فى الوقت الـذى كانت فيه هذه الدولة فى حرب مع فرنسا، ويؤكد هو أنه لم يغادر «بايون»(1) فى هذا الوقت.

هناك نقطة واحـدة فقط تظل مبهمـة ، هى أنه من بين المستندات التى ألقى بها فى مـدفـأته - أثناء فترة اعتقـاله، والتى لم يُعثَـر فيهـا إلا على مقتطفات باقية - قُرِئَتْ بعض كلمات إسبانية، واسم «نِيبف» .

رفض «جاك مـوبيل» أن يُصَرِّح بأية تفسيرات بصـدد هذا الموضوع. عندما أخبره الرئيس أن من مصلحة المتهم أن يُفسر، فأجابه بأنه ليس من الضرورة دائمًا أن نتبع مصلحتنا .

لم يكن «جاميـلان» يفكر إلا فى إقناع «موبيل» بجريمة. لثـلاث مراتٍ

(1) إحدى المدن الفرنسية .

حَثَّ الـرئيس على ســؤال المتهـم عَمَّا إذا كـــان يستطيـع أنْ يُفسر سبب احتفاظه بزهرة القرنفل بكل عناية بالتُّوَيْجيات الجافة فى محفظته .

أجاب « موبيل » بأنــه لا يعتقد بأنه مُجْبَـرٌ على أن يُجيـب على ســؤال لا يهم العدالة، طالما أنه لم يُعْثَر على بطاقة مُخبأة فى هذه الزهرة.

انسحبت هيئة المحلفين إلى غـرفة المداولات لصالح هـذا الشاب، حيث تبـدو قضيــة تُخفى أسرارًا غـراميـــة. هذه المرة، الصـــالحون والأنقيـاء أنفسهم بَرَّءُوه عن طيب خــاطر. أحـدُهم كـان من الســابقين، وقـد قَـدَّم ضمانات للثورة، قال :

– أَمِنْ أجل مـولده نحمل عليـه ؟ أنا أيضًا ، كـان من ســوء حظى أَنْ وُلدت أرستقراطيًّا.

أجابه «جاميـلان» قائلًا : نعم ، ولكنك تنصلت منها ، أمـا هو فقد ظل فيها .

وتحدث بعنف عن هذا المتواطىء، هـذا المبعوث من طرف «بيت»، هذا المتواطىء التـابع لكوبورج، والذى كان قـد ذهب فيما وراء الجبال وفيما وراء البحـار ليثير أعداء الحرية، وأنه طالب بإصرار شـديد إدانة الخائن، الذى أيقظ مزاجه القلق دائمًا ، وقسوة المحلفين الوطنيين الراسخة .

قال له أحدهم بصلف :

– هناك خدمات لا نستطيع رفضها بين الزملاء .

وكـان الحكمُ بالموت قد صـدرَ عليـه بصوت الأغلبيـة. والمتهم سَمِعَ الحُكْمَ هادئًـــا مبتسمًا .ونظراته التى كـان يتفـرَّس بها فى هدوء جميع

الموجودين بالقاعة عندما وصلت إلى وجه «جاميلان» كانت تعبر عن ازدراء لا يوصف .

لم يصفق أحد للحكم الذى صدر ..

وتوجَّه «جاك موبيل» ثانية إلى البوابة، وكَتَبَ رسالة – وهو ينتظر حكم الإعدام الذى يجب أن يُنفذ فى المساء نفسه – على ضوء المشاعل، كتب يقول :

« شقيقتى العزيزة، المحكمة ترسلنى إلى المقصلة، لقد مَنَحَتْنِى بذلك الفرحة الوحيدة التى أستطيع أن أشعر بها منذ موت معبودتى «نييف»، وحرمونى من الشىء الوحيد الذى بقى لى منها، زهرة الرُّمَّان، التى يُسمونها – ولست أدرى لماذا – زَهْرَةَ قُرنفل .

كنت أحب الفنون.. فى باريس – فى عهود البذخ – تسلمتُ لوحات مرسومة ولوحات منحوتة، وهى الآن فى مكان أمين، وسوف تُسَلَّمُ إليكِ عندما تسنح الفرصة. أرجوك يا أختى العزيزة أن تحافظى عليها كتذكار منى ».

وقص خصلة من شعره، ووعها مع الرسالة التى طواها، وكتب عليها العنوان الآتى :

إلى المواطنة «كليمانس ديزيميرى»، وبالميلاد موبيل . لاريول.

وأعطى كل ما معه من نقود إلى حامل المفاتيح، راجيًا إيَّاه أن يوصل هذه الرسالة، وطلب زجاجة نبيذ وشرب كُؤَيْسَات صغيرة، منتظرًا العربة....

وبعـد العشاء جـرى «جاميـلان» إلى متجر «لامـوربانتر»، ووثب إلى الغرفة الزرقاء التى كانت «إيلودى» تنتظره فيها كل ليلة، وقال لها :

– لقد أُخِـذَ ثأرُكِ . انتهى «جاك موبيل». العـربة التى تقوده إلى الموت مرت من تحت نافذتك محاطة بالمشاعل .

أدركت « إيلودى » الأمر ، وقالت :

– مسكين ! أنتَ الذى قتلتـه، ولم يكن حبيبى . أنا لا أعـرفـه... لم أره قط... أى رجلٍ كان هذا ؟ كان شابًّا، محبوبًا ... بريئًا . وأنت الذى قتلته.. مسكين ! مسكين!

وسقطت على الأرض فاقـدة الوعى . ولكن فى غيابة هذا الموت السهل، كان يغمرها فى آن واحد شعور بالهلـع، وبالشهوة. كانت شبه مستفيقة، وكشفت جفـونها الثقيلة عن بيـاض عينيها، وانتفـخ زورها، ويداها النابضتـان تبحثـان عن عشيقهـا. واعتصرته بين ذراعيها، تكاد تخنق أنفاسه، وغرست أظافرهـا فى لحمه، ونفحته من شفتيها المزقتين أطول وألذ القبلات، وأكثرها صمتًا، وأحَرُّها، وأكثرها ألمًا .

كانت تحبه بكل كيانها، وكلما كان يبدو لها مخيفًا وقاسيًا ومتوحشًا، وكلما كانت تراه مخضبًا بدماء الضحايا ، ازداد نَهَمُهَا وتعطُّشها إليه .

* * *

فى اليـوم الرابـع والعشرين من فـريمير (الـرابع عشر من ديسمبر ١٧٩٣) فى الساعة العاشرة صبـاحًا ، فى جو وردى قارس البرودة، حيث

تكونت ثلوج الليـل، كـان المواطنان «جينو» و «ديلـورميل»، مندوبا لجنة الأمن العام، مُتَوَجِّهَيْنِ إلى البـارنابيت، وقَصَدَا لجنة الرقابة فى القطاع، فى القاعـة المجمعية، حيث كان يوجـد فى هذا الوقت المواطن «بوفيزاج» الذى كـان يدس الحطب فى المدفأة، ولكنه فى البـداية لم يَرَهُمَا، بسبب طبيعتـه الصامتة، وقامته القصيرة.

وبالصـوت الأجوف الضعيف دَعَـا «بوفيـزاج» النائبين إلى الجلوس، وشرع فى خدمتهما فى الحال.

سأله «جينو» عَمَّا إذا كـان يعرف أحَدًا يُدْعَى «ديزيليـت» يقيم بجوار «البون – نوف »، وأضاف قائلا :

– هذا أحد الأشخاص، أنا مُكَلَّفٌ بإلقاء القبض عليه .

وأَبْرَزَ أمر لجنة الأمن العام .

استغرق «بوفيزاج» بعض الوقت وهويبحث فى ذاكرته، ثم أجاب بأنه لا يعـرف أى فـرد باسم «ديزيليت»، ومن المشبـوهين. ربما لا يكون من المقيمين فى القطاع، وبأن بعض مناطق الميزيوم، أو لونيتيـه، أو «مارات – و – مـارسليا»، توجـد أيضًا بالقـرب من «البون – نوف»، وأنه إذا كـان يسكن بالقطاع فـلابد أن يكـون تحت اسم آخـر غير الذى يتضمنه أمـر اللجنة، وإلَّا فلن تألو جهدًا فى العثور عليه .

قـال «جينو» : علينا ألَّا نضيع الوقت ! إن رقابتنا اكتشفتـه عن طريق رسالة من إحدى المتواطئات معه التى احْتُجِزَتْ فى مقر اللجنة منذ خمسة

عشر يومًا، وأن المواطن «لاكروا» لم يعلم بهذا إلا مساء أمس فقط . لقد فاض بنا الأمر، فقد وصلتنا البلاغات بكثرة من جهات كثيرة، حتى أننا فى حيرة، أيهم نتبع !

أجاب «بوفيزاج» بفخر : البلاغات تدفقت أيضًا على لجنة المراقبة بالقطاع. بعض هذه البلاغات كان بدافع الوطنية، والبعض الآخر كان طمعًا فى الحصول على ورقة مالية من فئة المائة فَلْس . كثير من الأطفال وشوا بآبائهم طمعًا فى الميراث .

واستطرد جينو : هذه الرسالة مبعوثة من إحدى السيدات وتُدعى «روشيمور»، سيدة مستهترة، وكان يُمَثِّل عندها لعبة سرية الانضباط، وتحمل الرسالة عنوان أحد المواطنين يدعى «رولين»، ولكنها فى الحقيقة مرسلة إلى أحد المهاجرين ممن يعملون فى خدمة «بيت». أخذتُ الموضوع على كاهلى لأتصل بك فيما يختص بهذا المدعو «ديزيليت».

أخرج الرسالة من جيبه، وقال :

– تبدأ الرسالة بمعلومات مطولة عن أعضاء الجمعية الوطنية الذين يمكن – وفقًا لقول السيدة – أن تكسبهم مقابل مبلغ من المال ، أو بالوعد بوظيفة كبيرة فى إحدى الحكومات الجديدة أكثر ثباتًا من هذه الحكومة .

ثم بعد ذلك قرأ هذه الفقرة :

« خرجتُ من عند السيد «ديزيليت» الذى يقيم بالقرب من «البون – نوف»، فى أحد المخازن، ويجب أن يكون المرء قطة أو شيطانًا ليعثر على

هذا المخـزن، وكـــان يعيش من عـائـد الدُّمَى التـــى يصنعهـا . إنه رجل حصيف، لذلك، أُرسل إليك يا سيـدى جوهر محادثتــه. فهو لا يعتقــد أن هذه الحالة ستستمــر وقتًـــا طويلًا ، وهو لا يتـوقع نهايتهـــا بانتصـــار الحلفــاء، ويبدو أن الأحـداث تجعله على صواب، لأنك تعلم يا سيـدى أنه منذ قليل كـانت أنبـاء الحرب سيئة، وأنه يعتقــد فى ثورة عـامــة الشعب، ونساء الطبقة الشعبية، الذين يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بدينهم . وهو يرى أن الإرهاب العــام الذى تسببه المحكمــة الثورية ســوف يجمع قريبًــا كل فرنسا قاطبة ضد اليعقــوبيين، وقد قال مازحًا : هذه المحكمة التى حكمت على ملكة فــرنسا، وحــاملة الخبز، تُشبــه وليم شكسبير، الذى يُعْجَبُ به الإنجليـــــز كثيرًا ، إلــخ .... »، وهو يعتقـــــــد أنه ليس مــن المستحيل أن «روبسبير» يتزوج من «مدام رويال» ويجعل من نفسه حامىَ المملكة .

وأكون مُمْتَنَّةً لــك يا سيدى إذا وافيتنى بالمبالــغ المستحقة لى، أى ألف الجنيه الإسترلينى بــالطريقة المعهودة، ولكن احترس جيـدًا من أن تكتب إلى السيد « مورهاردت »، فهو قد تم اعتقاله مؤخرًا وأودع السجن ، إلخ ، إلخ».

قــال «بوفيـــزاج» : السيــد «ديزيليت» يصنع الــدُّمَى، وتلك دلالة لها قيمتها... مع أنه توجد مثل هذه الصناعات الصغيرة بكثرة فى القطاع .

قـــــال «ديلورميل» : إنى وعـــدتُ أن أُحضر دُمْيَــةً إلى ابنتــى «ناتالى»، صغرى البنات، المريضة بالحُمَّى القرمزية، فالبقع ظهرت بالأمس، وهذه

الحُمَّى ليست من الخطورة ليُخشى منها، ولكنها تحتاج إلى عناية. و«ناتالى» تسبق سنها، ولها ذكاء متوقد، وصحتها حساسة .

قال «جينو»: وأنا لى ابن واحد، وهو يلعب بالطوق، بحلقاتٍ من براميل، ويصنع مناطيد صغيرة بالنفخ فى أكياس .

قال «بوفيزاج» : إن الأطفال يلعبون أفضل ، بالأدوات التى ليست لُعَبًّا، إن ابن أخى «إيميل» طفل له من العمر سبع سنوات، وهو غاية فى الذكاء، يتسلى طول اليوم بمربعات خشبية صغيرة، يصنع منها تكوينات.... هل تستخدمونها ؟ ثم بسط «بوفيزاج» علبة نشوقه المفتوحة أمام النائبين .

قال «ديلورميل» ذو الشوارب الطويلة : الآن يجب أن نُلقى القبض على النذل.. إننى أشعر بشهية مفتوحة هذا الصباح لأكل مِعلاق الأرستقراطى (أى : مجموعة القلب والطحال والكبد والرئتين من الحيوان)، ومُسقاة بكوب من النبيذ الأبيض .

واقترح «بوفيزاج» على النائبين أن يذهبا إلى لقاء زميله فى متجره فى ميدام «الدوفين»، ويدعى «ديبون إينيه». والذى بكل تأكيد يعرف شخص «ديزيليت».

وساروا فى الجو القارس ، يتبعهم أربعة من رماة القنابل اليدوية من القطاع .

سأل «ديلورميل» أصدقاءه : هل شاهدتم مسرحية «الحكم الأخير على الملوك»؟ إن المسرحية تستحق المشاهدة. المؤلف يصور فيها جميع ملوك

أوروبا يلوذون بجزيرة قاحلة عند سفح بركانٍ ابتعلهم . إنه عمل وطنى.
أبصر «ديلورميل» فى ركن شـارع «هارلاى» عربة صغيرة بَرّاقة تدفعها عجوز ترتدى معطفًا ، وغطاء رأسها عبارة عن قبعة من نسيج مدهون بالشمع .

سأل : ماذا تبيع هذه السيدة ؟

وأجابت السيدة نفسها :

– انظروا أيها السادة، اختاروا بأنفسكم، معى مسابح، ومسابح وردية، وصُلبان، وصور للقديس «أنطوان»، وكفن السيد المسيح، ومناديل القديسة «فيرونيك»، والحَمَل الإلٰهى، وأبواق وحلقات القديس «هوبير»، وكل أدوات العبادة.

صاح «ديلورميل» قائلًا : هذه ترسانة التعصب ! وشرع فى استجواب مختصر للبائعة الجائلة التى أجابت على جميع الأسئلة :

يا بنى، إننى منذ ربعين عامًا وأنا أبيع هذه الأغراض التى تتعلق بالعبادة.

ويُبصر أَحَدَ مندوبَىْ لجنة الأمن العام مرتديًا زيًّا أزرقَ اللونِ كان مارًّا ، فألزمه باقتياد هذه العجوز المندهشة إلى البوابة.

وينصح المواطن «بوفيزاج» «ديلورميل» بأنه من الأفضل للجنة المراقبة أن تُلقى القبض على هذه البائعة، وأن تقودها إلى القطاع، وأنه فضلًا عن ذلك فلا نعرف أى سلوك يُؤخذ نحو العبادة السابقة، للتصرف

وفقًا لما تراه الحكومة، وإذا كان لابد من اتخاذ اجراء، فإمَّا أن يُسمح بكل شيء، وإمَّا أن يُمنع كل شيء .

وعندما اقتربوا من دكان النَّجَّار، سمع المندوبان والمفتش ضوضاء وهتافات غضب، مختلطة بصرير المنشار، واحتكاك الفَارَة. كانت مشاحنة وقعت بين النجار «ديبوان اينيه» وجاره البواب «روماكل» بسبب المواطنة «روماكل»، حيث إن النّشارة والنجارة كانت تتطاير من دكان النجار إلى حجرة البواب وتغطيها .

كان البواب متضايقًا، فركل بقدمه كلب النجار المُسمَى «موتون»، وفى نفس الوقت كانت ابنته «جوزيفين» تمسك الكلب بحنان وتقبله، ولكن «جوزيفين» غضبت من والدها ، وصاح النجار بغضب :

– ايها البائس ! إننى أمنعك من ضرب كلبى .

وأجاب البواب وهو يرفع مقشته : وأنا أمنعك من أن... ولم يتمم عبارته : فقد ضربه النجار على رأسه بالمنجرة .

ومن بعيد أبصر المواطن «بوفيزاج» بصحبة المندوبين، وجَرَى نحوه وقال له :

– أيها المواطن المفتش، أنتَ شاهد الآن على أن هذا النذل يريد قتلى .

وكان المواطن «بوفيزاج» يرتدى على رأسه قلنسوة حمراء اللون، التى هى شعار وظيفته، ويمد ذراعيه فى وضع تهدئة للاثنين، مخاطبًا كليهما قائلًا :

– مائة فَلْس لِمَنْ يرشدنا أين يوجد صانع اللُّعَب المتحركة الذى تبحث عنه لجنة الأمن العام، وهو أحد الديزيليت السابقين المشبوهين.

وأَشَار الاثنان – البواب والنجار – معًا إلى مسكن «بروتو»، ولم يناقشا أى شىء سوى المكافأة الموعودة للواشى .

«ديلورميل»، و «جينو».. و «بوفيزاج»، يتبعهم أربعة من رماة القنابل اليدوية، والبواب «روماكل»، والنجار «ديبون»، وحوالى عشرة من الصغار، أطفال الشورع، تسللوا من السلم حاثين خُطاهم، ثم صعدوا عن طريق سلم الطحان .

كان «بروتو» فى مخزنه يقص العرائس، فى حين كان الأب «لونجيمار» يجلس أمامه، يجمع أعضاءها المتناثرة بالخيوط، وكان يبتسم عندما رأى أن أصابعه قد أجادت النَّسَقَ والانسجام.

وعندما سمع الراهب جلبة وضوضاء على «مشاية» السلم، ارتعدت فرائصه، ليس لأنه أقل شجاعة من «بروتو» الذى ظل رابطَ الجأش، بل لأن حَيَاءَهُ الإنسانى لم يُعَوِّده على التماسك .

وفهم «بروتو» من أسئلة المواطن «ديلورميل» من أين جاءت الضربة، وأيقن مُؤخرًا أنه من الخطأ أن تثق فى النساء. وعندما طُلب منه أن يتبع المفتش، أخذ معه كتابه عن «لوكريس» وقمصانه الثلاثة، وقال وهو يشير إلى الأب «لونجيمار» :

– إنه مساعد يعاوننى فى صناعة عرائسى . وهو يقيم هنا .

ولكن الراهب لم تكن معه شهادة المواطنية، لذلك قَبَض عليه مع «بروتو».

وعندما مر الموكب بجوار حجرة البواب، كانت المواطنة «ريماكل» تستند على مقشتها وتنظر إلى مَنْ يسكن عندها بعين الفضيلة التى تشاهد الجريمة بين يدى القانون. و «جوزيفين» الصغيرة تأخذ بسلسلة الكلب «موتون» الذى كان يريد أن يُلاطف الصديق الذى كان يُعطيه قطع السكر . وامتلأ ميدان «ثيونفيل» بجمع غفير من المتطفلين .

وتقابل «بروتو» عند أسفل السلم مع شابة فلاحة كانت تشرع فى صعود السلم. كانت تحمل تحت إبطها سلة مملوءة بالبيض، وتمسك بيدها فطيرة ملفوفة فى قطعة قماش .

كانت «أثينايس» جاءت من «باليسو» لتقدم إلى مُنقذها دليلًا على عرفانها بالجميل. وعندما لاحظت أن القضاة وأربعة رماة يصطحبون السيد «موريس» ظلت واجمة، وسألت عَمَّا إذا كان هذا حقيقيًّا، واقتربت من المفتش وقالت له بهدوء :

– لن تصحبه ! مستحيل ... إنكم لا تعرفونه ! فهو طيب، وطيبته من طيبة الرب !

دفعها المواطن «ديلورميل»، وأشار على الرماة أن يتقدموا ، حينئذ أمطرتهم «أثينايس» بوابل من السباب والشتائم، وانصبت أقذر الشتائم على القضاة والرماة الذين شعروا كأن جميع أوانى «الباليه – رويال» (القصر الملكى)، وشارع «فرومانتو» قد انسكبت فوق رءوسهم .

ثم بعد ذلك وبصوت ملأ ميدان «ثيونفيل» قاطبة، وأفزع الجمع الغفير من الفضوليين، صاحت قائلة :

– عاش الملك ! عاش الملك !

* * *

المواطنة «جاميلان» كانت تحب العجوز «بروتو»، وكانت تعتبره الرجل الوحيد الذى يستحق أن يُحَبَّ وأن يُحتَرم. لم تقل له وداعًا عندما اعتقلوه، حتى لا تُجابه السلطات، وفى حالتها المتواضعة كانت ترى أن الجبن واجب، ولكنها تلقت فيه صدمة لم تُفِق منها .

لم تكن تستطيع الأكل، وتشكو من أنها فقدت شهيتها فى الوقت الذى كان لديها خيرًا ما تتغذى به. كانت معجبة أيضًا بابنها، ولكنها لم تكن تجرؤ على التفكير فى مهامه المخيفة التى يضطلع بها، وتكتفى بأنها ليست إلا سيدة جاهلة عاجزة عن الحُكم فى أمره.

وكانت الأم المسكينة قد عثرت على سبحة قيمة فى قاع إحدى الحقائب الصغيرة، لم تكن تعرف استخدامها، ولكنها شغلت بها أصابعها المرتعشة. وبعد أن عاشت عمرها حتى تقدمت بها السنون دون أن تمارس دينها أصبحت ورعة، كانت تصلى لله طيلة اليوم، وتلازم بيتها من أجل سلامة ابنها، ومن أجل سلامة هذا الرجل الطيب «بروتو».

كانت «إيلودى» تزورها دائمًا : وكانتا لا تَجْرُآنِ على أن تتبادلا النظرات، وكل منهما قريبة من الأخرى، تتحدثان – عن قِلّة – عن أشياء لا أهمية لها .

وذات يوم فى شهر المطر، عندما كان الجليد يتساقط ندائف كبيرة تضىء السماء، وتخنق كل ضوضاء المدينة، كانت المواطنة «جاميلان» بمفردها فى المنزل، وسمعت طرقات على الباب.

ارتعدت فرائصها ، وهى منذ عدة أشهر كانت أقل ضوضاء ترعبها. فتحت الباب، ودخل شاب فى الثامنة عشرة أو العشرين من عمره، وقبعته على رأسه، يرتدى «ريدينجوت» أخضرَ اللون، متعدد الكولات، ثلاث منهن يُغطين صدره والقامة، ويحتذى ببوت على الطريقة الإنجليزية، وشَعره قسطلىُّ اللون، تنسدل خصلات منه على كتفيه. اندفع فى وسط المرسم، كأنه يريد أن يستقبل كل ما يبعثه لوح النافذة من شعاع خلال الجليد. وظل ساكنًا لبعض الوقت وصامتًا، وأخيرًا ، وبينما كانت المواطنة «جاميلان» تنظر إليه مذهولة إذا به يقول لها :

– ألا تعرفين ابنتك ؟!....

وعقدت السيدة العجوز يديها وقالت :

– جولى !.... أهذه أنتِ ؟. يا إلٰهى ! هل هذا ممكن !.....

● أى نعم ، أنا ! قَبِّلينى يا أُمَّاه .

واعتصرت المواطنة «جاميلان» ابنتها فى حضنها، وسقطت دمعة على كولة الريدينجوت. ولكنها استطردت بلهجة يشوبها القلق :

– أنت فى باريس ؟!....

● آه يا أمى ! ليتنى ما جئت إليها بمفردى !.... أنا لا يعرفنى أحد فى هذه الملابس.

فى الواقع، كان «الريدينجوت» يخفى تفاصيل جسدها، ولم تكن تبدو مختلفة كثيرًا عن عديد من الشباب، الذين يرتدون مثلها هذا الزىّ، ولهم شعر طويل مثلها ، مفروق من الوسط .

كانت قسمات وجهها دقيقة وجميلة، ولكنها شاحبة ومنهوكة القوى، مُثْقَلة بالهموم، ولها مظهر جرىء ورجولى. كانت نحيفة، وساقاها طويلتين مستقيمتين، وكانت تتحرك ببساطة، وكان صوتها الواضح فقط هو الذى يمكن أن يكشفها .

سألتها أمها عَمَّا إذا كانت جائعة، فأجابت بأنها ستأكل بكل ممنونية، وعندما قدمت إليها خُبزًا ونبيذًا، ولحم الخنزير، شرعت فى تناول هذا الطعام وهى تستند بكوعها على المائدة. كانت جميلة وأكولة مثل «سيريس»[1] فى كهف «بوبو» العجوز . ثم تسأل أُمها :

– هل تعرفين يا أمى متى سيعود «جاميلان»؟ جئتُ لأُحدثه . نظرت الأم الطيبة إلى ابنتها بإحراج ولم تُحر جوابًا .

– يجب أن أراه. لقد أُلقى القبض على زوجى هذا الصباح وقادوه إلى «لوكسيمبورج».

وقد أطلقت اسم الزوج على «فورتونيه دى شاسينى»، وهو نبيل سابق، وضابط فى فيلق «بوبيه»[2]. أحبها عندما كانت عاملة بيع ملابس فى شارع لومبارد ، اختطفها وصحبها إلى إنجلترا، حيث هاجر بعد العاش

(١) ابنة إله الزمن وإله الأرض والزرع كما جاء فى الأساطير .
(٢) قائد فرنسى .

من أغسطس . كـان عـاشقهـا، ولكنهـا وجـدت أن من الأدب أن تسميـه «زوجها» أمام والدتها، وهـى ترى فى نفسها أن البؤس زَوَاجَ بينهما، وأن هذا ليس بقران، إنه لم يكن سوى شقاء .

وكـانا كثيرًا ما يقضيـان الليل معًا على أحـد المقـاعد فى حـدائق لندن، ويلتقطون قِطَعَ الخبز من تحت طاولات المطاعم فى «بيكاديللى».

وأمها جالسة صامتة لا تنبس ببَنْت شفة، وتنظر إليها نظرات كئيبة.

– إذَنْ ، فأنت لا تسمعينني يا أمى ؟ الوقت يمـر سريعًا، يجب أن أرى «إيفاريست» حالا، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يُنقذ « فورتينيه ».

أجابت الأم : «جولى»، من الأفضل ألَّا تتحدثى إلى أخيكِ .

– كيف ؟ ماذا تقولين يا أمى ؟

● أقـول إنه مـن الأفضل لَكِ ألَّا تتحـدثى مع أخيـك عن السيـد «دى شاسينى».

– أمى ، لابد من ذلك ، ضرورى !

● بُنَيَّتِى ، «إيفاريست» لن يغفر للسيد «دى شاسينى» أنه اختطفك .

هل تعرفين كيف كان يتحدث عنـه بغضب ؟ وأى الألقاب كان يُطلقها عليه ؟

– نعم ، إنه يسميه الفـاسد . قالت «جـولى» ذلك وهى تبتسم وتصفر وتهز كتفيها .

● يا بُنيتى، إنه أُهين إلى درجة الموت. لقد قرر «إيفاريست» بينه وبين نفسه ألَّا يتحدث أبدًا عن السيد «دى شاسينى». وها قد مر عامان دون أن يذكركما بكلمة واحدة. وشعوره لم يتغير نحوكما، وأنت تعرفيه، إنه لن يصفح عنكما .

– ولكن يا أمى، بما أن «فورتينيه» قد تزوجنى .... فى لندن ....

رفعت الأم المسكينة عينيها ويديها وقالت :

– يكفى أن «فورتينيه» من الطبقة الأرستقراطية، ومهاجر، حتى يعامله «إيفاريست» كعدو .

● أخيرًا ، أجيبينى يا أمى ، أتعتقدين لو أننى طلبت منه أن يجرى اللازم مع المدعى العام ولجنة الأمن العام لإنقاذ «فورتينيه» ألن يوافق على ذلك ؟.... ولكنه إن لم يوافق ، فذلك يكون وحشية منه !

– بُنَيَّتِى ، أخوكِ رجلٌ شريف ، وابنٌ صالح . ولكن لا تُطلبى منه ... أوه ! لا تطلبى منه أن يهتم بالسيد « دى شاسينى »... اسمعى كلامى يا «جولى»، فهو لا يُفضى إلىَّ أبدًا بأفكاره، مطلقًا ، ولكن لا يشق الأمر علىَّ فى أن أُفهمه... ولكنه قاضٍ، وله مبادىء، فهو يتصرف بما يُمليه عليه ضميره. لا تطلبى منه أى شىء يا «جولى» .

● أراكِ الآن تعرفينه جيدًا .. تعرفين أنه بارد، وبليد الإحساس، وشَرِسٌ ، ولا يهمه سوى الطموح، والطمع، وأنت فَضَّلْتِهِ دائمًا علىَّ . عندما كنا نعيش نحن الثلاثة معًا، كُنْتِ تعتبرينه قُدوة لى. سلوكه

المُصْطَنع، حديثه الوقور، كانا يؤثران فيكِ، كُنْتِ تجدين فيه جميع الفضائل، وأنا ، لا تُقدِّرينني مطلقًا ، ودائمًا تنسبين لى كل الرذائل ، لأننى كنت صريحة ، ولأنى كنت أتسلق الأشجار. لم يكن بوسعك قط أن تُطيقيننى، وكنتِ لا تُحبين غيره، اسمعى ! إنى أكَرْهُ هذا «الإيفاريست» ابنك، إنه منافق .

– صَهْ يا «جولى» لقد كنتُ لكما أُمًّا طيبة. وعَلَّمْتُكِ مهنة، وهو لم يكن متعلقًا بى، ولم يتوقف عَلَيَّ أنْ تَظَلِّى فتاة شريفة، فتتزوجين وفقًا لوضعك. لقد أحببتُكِ بحنان، وما زلت أُحبك. وإنى أسامحك وأحبك. ولكن لا تفترى على «إيفاريست»، لأنه ولد طيب ، كان دائمًا يعتنى بى .

عندما تركتيننى يا بُنيتى ، وعندما تكتِ وظيفتك ومتجرك، لتعيشى مع السيد «دى شاسينى»، ماذا كنت سأفعل لولا وجوده ؟ لولاه لكنتُ لقيتُ حتفى كمدًا وجوعًا !

● لا تقولى ذلك يا أمى ، أنتِ تعلمين جيدًا أننا كنا سنوليكِ كل عناية، «فورتينيه» وأنا ، إلَّا قد انصرفتِ عنا بتحريض من « إيفاريست ».

لا تُثيرينى ! إنه غير قادر على أن يقوم بعمل صالح، فهو – حتى يجعلنى مُخيفة فى عينيك – قد تظاهر بالعناية بكِ .. هو يُحبك ؟!... هل هو قادر على أن يُحب أحدًا ؟ إنه لا قلب له ولا روح. ولا موهبة له من أجل أن يرسم، لابد له من طبيعة أرق من طبيعته .

وتجولت بنظراتها على اللوحات الموجودة فى المرسم، والتى وجدتها مثلما كانت يوم تركتها، فتقول مستطردةً :

ها هى ذى روحه ! قد أفرغها فى لوحاته الباردة والكئيبة ، وها هو ذا بطله «أوريست»، ذو النظر الضارى، والفم الردىء ، ويبدو عليه مظهر المرفوع على الخازوق.. إنه هو بكل كيانه.... أخيرًا يا أمى، أنتِ لم تَفْهَمِى شيئًا ! لا أستطيع أن أترك «فورتينيه» فى السجن . أنتِ تعرفين اليعاقبة، كلهم وطنيون ، وهم عَصَبَةُ « إيفاريست »، وسوف يعملون على قتله يا أُمَّاه.. أمى العزيزة، أُمى الصغيرة، لا أريد أن يقتلوه لى . أنا أحبه ! أحبه ! إنه كان طيبًا جدًّا معى، ونحن فى البؤس كنا معًا !

انظرى، هذا «الريدينجوت» يخصه. لم تبق عندى «بلوزات». لقد أَعَارنى أحد أصدقاء «فورتينيه» «جاكتًا» وكنت عند صبى بائع ليمونادة فى «دوفر »، فى حين كان هو يعمل عند أحد الحلاقين، وكنا نعلم أنه بالعودة إلى فرنسا فإننا نخاطر بحياتنا، ولكن سُئِلْنَا عن رغبتنا إذا كنا نريد السفر إلى باريس للقيام فيها بمُهمة كبيرة... فوافقنا ، وكان علينا أن نقبل مهمة شيطانية .

دفعوا لنا الأجر للسفر ، وسَلَّمُونا خطابَ ضمان لأحد رجال البنوك فى باريس، فوجدنا المكاتب مغلقة، فهذا الصيرفىُّ كان فى السجن وسوف يُعدم بالمقصلة.. كنا صُفْرَ اليدين. وبالنسبة لجميع الأشخاص الذين يجب أن تنضم إليهم، والذين يُمكن أن نتصل بهم، كانوا إمَّا هاربين وإمَّا فى السجون. لم يعد لنا باب نطرقه. ونمنا فى حظيرة فى شارع «لافام – سان – تيت»، وكان ينام فيه معنا على القش ماسح أحذية كريم. أعْطَى عشيقى أحد صناديقه، وفراشاة ، وعلبة تلميع ، ثلاثة أرباعها فارغة .

ولمدة خمسة عشر يومًا . كان «فـورتينيه» يجنى قوتنا من تلميع الأحذية فى ميدان «جريف» .

وذات يوم وضع أحـد أعضاء مجلس العمـوم قدمـه على الصندوق ، ولَمَّعَ له حذاءه . كان هذا العضو جزارًا سابقًا ، وكان «فورتينيه» قد ركله بقـدمـه فى مـؤخـرته، لأنه باع لحمـه وغش فى الميـزان . وعندما رفع «فورتينيه» رأسه ليطلب منه أجر تلميع الحذاء ، عرفه هذا النذل ، ودعاه الأرستقراطى ، وهدده باعتقاله .

تجمهـرت الناس، منهم كـان الطيب ، ومنهم كـان النذل ، صـاحـوا : «الموت للمهاجر !»، واستـدعوا شرطة الدرك . وفى هذه اللحظة كنت أحمل الحساء لفـورتينيه . رأيتـه مصحوبًا إلى مقـر القطاع ، وسُجِنَ فى كنيسة «سان – جان ».. أردتُ أن أُقَبِّلَهُ ، فـدفعونى بعيدًا عنه . قضيتُ الليل مثل الكلب فى أحد ممرات الكنيسة... واقتادوه ، هذا الصباح......

ولم تستطع «جـولى» أن تتم كـلامها ، فقـد خنقتهـا العَبَرات . وألقت بقبعتها على الأرض وجثت عند قدمى والدتها قائلة :

سـوف يقتادونه هذا الصبـاح إلى السجن فى «لوكسيمبـورج». أمى.. أمى.. سـاعـدينى على إنقـاذه، اشفقـى على ابنتك ! وانخـرطت فى البكاء، وفتحت «الريدينجـوت» ولكى توضح بطريقة أفضل أنها عشيقـة وابنة، كشفت عن صـدرها ، وتنـاولت يدى والدتها، وضغطت بهما على نهديها المختلجين .

تنهدت الأرملة «جاميلان» وقـالت : ابنتى العزيزة، أَىْ «جولى»، ابنتى «جولى»! وألصقت وجهها المُنَدَّى بالدموع بخدى ابنتها الزوجة الصغيرة.

ولبضع لحظات لَزِمَتَـا الصمت، وكانت الأم المسكينة تُنَقِّب فى ذهنهـا عن وسيلة لمسـاعدة ابنتها «جـولى»، و «جولى» تراقب نظرة هـذه العيون المغرورقة بالدموع .

وتسرح الأُمُّ مفكرة :

«ربما لو تحدثتُ إليـه فقد يُفكـر فى الأمر، فهـو طيب وحنون . وإذا لم تكن السياسة قد جعلته قاسيًا ، وإذا لم يخضع لنفوذ اليعاقبة، لَمَا ظهرت شدته التى تُخيفنى ولا أفهم سببها ».

وأخذت رأس ابنتها « جولى » بين راحتيها قائلة :

– اسمعى يَا بُنَيَّتِـى ، سأتحدثُ إلى «إيفـاريست»، وسـأمهـد ليراكِ ويسمعك، لأن رؤيتك قـد تثير غضبـه، وأخشى أول رد فعل... ثم إننى أعرفه، وهذا الزىّ قد يُسبب له صـدمة، لأنه قاسٍ بصدد كل شىء يُسىء إلى العـادات والتقـاليـد. أنا نفسى قـد أدهشنى قليـلا أَنْ أراكِ فى زىٍّ صبيانى.

● آه يا أُمَّـاه ! الهجرة ، والقـلاقل المخيفـة فى المملكة ، جعلت من هذه التنكرات فى الزىِّ أمرًا منتشرًا ، وكـان يتم التنكر من أجل ممارسة مهنة، ومن أجل ألّا يُعْرَف صاحبها ، ومن أجل مطابقـة جواز سفر ، أو شهادة مقتبسة، وقد رأيتُ فى لندن «جيراى» الصغير يرتدى مـلابس فتاة، وكان يبدو غـاية فى الجمال ، كأنه فتاة جميلة، وأنت يا أمى توافقين على أن هذا التنكر أكثر مجونًا من تنكرى .

- بُنيتى المسكينة، أنتِ لستِ محتاجة إلى أن تُبرر موقفكِ أمامى، لا هذا، ولا ذاك ، أنا أمك، وستظلين دائمًا بريئة بالنسبة إلىَّ. سأتحدث مع «إيفاريست»، سأقول....

وتوقفت عن الكلام. كانت تعرف مَنْ يكون ابنها، فهى تشعر به وتحسه، ولكنها لا تريد أن تصدق ذلك، ولا تريد أن تعرفه.

«إنه طيب. سيفعل من أجلى ... ومن أجلك ما سوف أطلبه منه».

كانت المرأتان مُرهقتين إلى أقصى درجة، فتوقَّفَتَا عن الكلام. ونامت «جولى» ورأسها على ركبتى أمها حيث كانت تستتريح وهى طفلة .

سحبتها الأم المتألمة من يدها وهى تبكى من الآلام التى تشعر بها فى صمت، وفى هدوء هذا اليوم - يوم الجليد - حيث كل شىء فيه ساكن : الخطوات، والعجلات، والسماء.

وفجأة، بالسمع المرهف الذى سبَّبه القلق، تسمع ابنها يصعد الدَّرَج.

قلت : هذا «إيفاريست»!.... اختبئى أنتِ (إلى ابنتها) ودفعت بابنتها إلى غرفتها.

- كيف حالُكِ اليوم ، يا أُمِّى الطيبة ؟

وعَلَّقَ «إيفاريست» قبعته على مشجب المعطف ، وغَيَّرَ زيَّه الأزرق بجاكت خاص بالعمل، وجلس أمام لوحته، فهو منذ بضعة أيام خطط بقلم الفحم لوحة «النصر»، واضعًا إكليلًا على جبهة جندى مات فى سبيل الوطن. وقد اختار هذا الموضوع بحماس، ولكن المحكمة كانت تلتهم كل

أيامه، وتستولى على روحه، ويده التى ابتعدت عن الرسم كان يشعر بها ثقلية وكسولة.. وتمتم بأغنية «كل شىء على ما يرام» .

قالت المواطنة «جاميلان» : أنت تُغَنِّى يا بُنَىَّ ، لابد أن قلبك مبتهج .

– يجب أن نبتهج يا أمى، فلدينا أنباء طيبة :«الفانديه قد دُحِرت، وهُزِم النمساويون، تَغَلَّبَ جيش «الران»، على خطوط «اللوتيرن» و«الفيسيمبورج» (١).

اقترب اليوم الذى سوف تُبْدِى فيه الجمهورية المنتصرة رأفتها. لماذا تتفاقم مهارة المتآمرين كلما زادت الجمهورية قوة ؟ وَلِمَ يجتهد الخَونةُ فى ضرب الوطن فى الخفاء ، فى حين هى ، أى الجمهورية ، تسحق الأعداء الذين يهاجمونها علنًا ؟

كانت المواطنة «جاميلان» ترقب ابنها – وهى تخيط جوربًا – من فوق نظارتها . قالت :

– جاء « بير زيليوس » – موديلك القديم – ليطلب الليرات العشر التى أنت مَدِين له بها ، فأعطيتُه إياها . و «جوزيفين» الصغيرة كانت تشكو بألم فى بطنها ، لأنها أكلت مربى أكثر من اللازم، والتى كان النجار قد قدَّمها لها. وأعطيتها منقوعًا مغليًّا. وجاء «ديماهيس» لرؤيتك، وأسِفَ كثيرًا على أنه لم يجدك. كان يريد أن ينحت موضوعًا من تأليفك ، وقد وجد أن عندك موهبة عظيمة. هذا الصبى الشجاع شاهد رسوماتك وأُعجب بها كثيرًا .

---

(١) اللوتيرن : نهر فى بفاريا . وفيسيمبورج : مدينة فرنسية .

– عندمـــا يستقـر الســـلام وتختنق المؤامـرة فسأستــأنف لوحتى «أوريست»، أنا لم أتعوَّد على الإطراء، ولكنْ يوجد هنا رأس جديد بدافيد.

ورسم بخط عظيم ذراع لوحته «النصر»، وقال مستأنفًا:

– إنه يبسط جــريد نخل .. ولكنه قد يزيد جمالًا لو أنَّ ذراعيــه ذاتهما يكونان من الجريد.

● إيفاريست!

– أُمِّى؟ ....

● وصلتنى أخبار ... مِمَّنْ تتوقع؟ ...

– لا أدرى ...

● عن «جولى»... عن أختك... ليست سعيدة.

– إن ما فَعَلتْه كان فضيحة.

● لا تتحدث هكذا يا بُنى، إنها أختــك. «جولى» ليست سيئة، فهى لها إحساسات طيبة، والتى غَذَّاها الشقاء، وهى تحبك، وأستطيع أن أؤكد لك يا «إيفاريست» أنها ترنو إلى حياة جــد مثالية، ولا تفكر إلا فى التقرب من ذويها، وليس هناك مـــا يمنعك من أن تراهـــا ثانيــة. وهـــى تزوجت من «فورتينيه دى شاسينى».

– كتبتْ إليكِ؟

● لا ..

– وكيف عرفْتِ أخبارها يا أمى؟

● ليس عن طريق رسالة يا بنى ، هذا ...

فنهض وقَاطَعَها بصوت رهيب :

– أُسْكُتى يا أُمَّاه ! لا تقولى إنهما عادا إلى فرنسا... وإذا كان ولابد أن يهلكا، فعلى الأقل لا يكون ذلك بيدى . ومن أَجْلِهما، ومن أجلك، ومن أجلى، تَظاهِرى بأَنِّى لا أعرف أنهما فى باريس... لا تُجبرينى على أن أعرف، وإلَّا...

● ماذا تريد أن تقول يا بنى ؟ أتريد .. هل تجرؤ ؟...

– أمى ، اصْغى إلَىَّ : إذا كنتُ أعرفُ أن أختى «جولى» فى هذه الغرفة... (وأشار بأصبعه إلى الغرفة المغلقة) فإنى سأُبَلِّغ عنها فى الحال لجنة رقابة القطاع .

وتبدو الأم المسكينة ، كعصابة رأسها بياضًا، ويسقط الجورب الذى كانت تُخيطه، من يديها المرتعشتين وتنهدت، وبصوتٍ أضعف من الضعف تمتمت :

« لا أستطيع أن أصدق ، ولكنى أوقن جيدًا ، هذا وحش... «إيفاريست».

ويبدو وجه «إيفاريست أكثر شحوبًا منها، والزبد على شفتيه، وينصرف مهرولًا ، يبحث عن النسيان بجوار «إيلودى» والنعاس . إنه شعور مسبق ولذيذ للعدم .


7

7

بينما كان الأب «لونجيمار»، والفتاة «أثينابيس» يُسألان فى القطاع، كـــان «بروتو» بقيـــادة اثنين من شرطة الدرك يقــودانه إلى «لوكسمبــورج»، حيث رفض البواب استقباله مُتعللًا بأنه لا توجد أماكن .

ثم بعد ذلك اُقْتِيدَ إلى البوابة الرئيسية، وأُدخل إلى قلم الكُتَّاب فى حجرة صغيرة، مقسمــة إلى جزأين بحــاجـز من الزجــاج . وعندمـا كان كــاتب المحكمة يكتب اسمه فى سجلات الأمر بالحبس، شاهد «بروتو» من خلال الزجــاج رجلين مُستلقيَيْنِ على فــراشَيْنِ حقيريــن، لا يتحــركــان، كأنهما أموات، لا تــرى أعينهما المحدقة شيئًا كما يبـدو، وتتناثر حــولهما أطباق وزجاجــات، وبقايا خبــز ولحم تغطى الأرض حولهما. فَهُمَا من المحكوم عليهم بالإعدام، وينتظران العربة التى تنقلهما إلى المقلصة.

واقتِيدَ «بروتو» بعد ذلك إلى زنــزانة، حيث رَأى – على ضوء شمعة – شخصين مُضطجعين ، أحدهما شرسٌ ومجدوعٌ ومُخيف، والآخــر رقيق

وحلو. هذان السجينان قَدَّمَا له بعض القش العَفِن المملوء بالهوام الضارة، حتى لا ينام على الأرض الملوثة بالغائط .

ارتمى «بروتو» على أحد المقاعد فى الظلمة الآسِنَة، وظل برأسه مستندًا على الحائط صامتًا جامدًا. كان يتألم إلى درجة أنه لو استطاع أن يُحطِّم رأسه فى الحائط لفعل ، ولكنه مُنهار، فهو لا يستطيع التنفس . عيناه محتجبتان، وترامى إلى أُذنه صوت ضوضاء بعيدة، هادئة مثل الصت، شعر وكأن كل كيانه يسبح فى عَدَمٍ لذيذ . وطوال لحظة لا تُضَاهَى ، كل شىء كان له بمثابة انسجام، وضوءٍ مُشرق، وعطر، وهدوء ، ثم غاب عن الوجود .

وعندما استرد وعيه، أول فكرة طرأت عليه هى أنه أسِفَ على الإغماءة التى أصابته، وفيلسوف حتى فى غيبوبة اليأس ، فكر فى أنه كان لابد له أن ينزل فى أعماق غيابة السجن، منتظرًا المقصلة، ومن أجل أن يجرب أقوى إحساس بالرغبة، والذى لم تتذوقه حواسه من قبل .

وحاول مرة أخرى أن يفقد شعوره، ولكنه لم ينجح فى ذلك، وشيئًا فشيئًا - على العكس - كان يشم الهواء النتن فى الزنزانة، يُحمل إلى رئتيه، مع حرارة الحياة، والوعى بشقائه اللامحتمل.

عند ذلك، اعتقد زميلاه فى الزنزانة أن صمته فيه إهانة شديدة لهما، ولما كان «بروتو» اجتماعيًّا بطبعه، حاول أن يُرْضِى فضولهما، ولكنهما عندما عَلِمَا أنه من هؤلاء الذى يُسَمُّون «سياسيين»، والذين جريمتهم ما هى إلا كلام أو فكرة، لم يُظهروا له أى احترام أو تعاطف . الأعمال

المنسوبة إلى هذيـن السجينين كانت أكثر صرامـة : الأكثر تقـدمًا فى السن كـان قـاتـلًا، والآخـر زَوَّر حـوالات حكوميـة. وقـد تَوَاءَمَ الاثنان مع حالتيهما، ووجدا فيهـا بعض القناعة. وفجأة استسلم «بروتو» إلى خياله وفكره بأن هناك فـوق رأســه كل شىء فى حـركـة، ضوضـاء، وضـوء، وحياة، وأن البائعات الجملات فى «البـالية» يبتسمن من خلف ما يعرضه من عطور، وخـردوات للمارة السعداء الأحـرار، وهذه الفكرة قـد جعلت يأسه يتفاقم .

وعندمـا جنَّ الليل لم يكن مرئيًّـا فى ظلمـة وصمتِ الزنزانة، ولكن مع ذلك كان ثقيلًا وخانقًا وكئيبًـا. غَفَا «بروتو» وهو يضع إحدى ساقيه على المقعد، ومستندًا بظهره إلى الحائط. كان يرى نفســه جالسًا تحت شجرة بلوط كثيفـة، حيث تغرد الطيـور، والشمس الغاربة تغشى النهـر بلهيب سـائل، وأطـراف السحب يكسـوها اللون الأحمر القـانى. انقض الليل، وافترسـتـه حُمَّى حارقـة، وكان يشرب بنهـم من ماء جَـرَّتِه مما زاد من حالته سوءًا .

وفى اليوم التـالى أَتَى السجان، الذ ى يُحضر الحســاء، ووعَدَ «بروتو» بأن ينقله إلى البيستـول (وهو قسم خـــاص فى السجن لمن يدفع مقـابل) بواسطة المال، بمجرد أن يشغر مكان، وذلك لن يتأخر أبدًا .

وفى اليـوم التـالى، دعَـا المُعالج العجـوز ليخـرج من زنزانتـه. وكـان «بروتو» فى كل درجة صعدها شعر بأن القـوة تعود إلى جسده وتدب فيه الحيـاة. وعندما وصل إلى البـلاطة الحمـراء لإحدى الغـرف رأى سريرًا منصوبًا، سريرَ ميدانٍ عليه غطاء حقير من الصوف، فبكى من الفرح .

السرير المذهب حيث يتناقــر اليمام، والذى كــان قد أوصــى بصناعتــه فيما مضـى من أجل أجمل راقصـــــة بالأوبرا، لم يكن يبـــدو له أنسب أو مَحَطَّ أملٍ لمثل هذه البهجة.

فراش الميدان هذا كان فى صـالة كبيرة، متوسطة النظافة، وتـحتوى على سبعــة عشر فِــراشًا آخــر ، يفصلهــا عن بعضهــا ألواح خشبية عــاليــة. والصحبة التى تقيم فيهــا تتكون من النبلاء السابقين، والتجــار، ورجال بنوك، وحرفيين، فلم يَضِق الشيخ بهم ذَرْعًا، لأنه كان يتكيف مع أى فئة من الفئات فيما مضى .

لاحظ أن هؤلاء الرجــال المحــرومين مثله من أى مسرات والمعــرَّضين لهلاك على يد الجلاد، يُبْدُونَ بعضَ البهجة، وذوقًــا حادًّا للفكاهة. لم يكن لديه استعــداد كبير ليعجب الرجال، فقــد أرجع اعتدال مزاجهــم إلى خفة عُقولهم، التى تحوُل بينهم وبين التفكير بعمق فى حــالتهم. وتيقن من هذه الفكرة عندما لاَحَظَ أن أكثرهم ذكــاءً كانوا يشعرون بحزن عميق . ورأى فيما بعد – بالنسبة إلى الأغلبية – أنهم يجدون فى معــاقرة النبيذ والعرقى بهجة، تُخفى فى مصدرها العنف، وأحيانًا الجنون.

الجميع ليس لديهم شجاعة، ولكن الجميع كانوا يُبدونها. «بروتو» لم يندهش، فهو يعلم أن البشر يعترفون عن طيب خاطر بالقسوة والغضب، والبخل، ولكنهم لا يعترفون أبدًا بــالجُبن، لأن هذا الاعتراف يُعَرِّضهم – فى نظر البــدائيين، وفى المجتمع الراقى – لخطرٍ قــاتل، لذلك فهــو يرى أن

جميع الشعـــوب شعـــوبَ أبطالٍ، وجميع الجيـــوش لا تتكون إلَّا من البواسل.

وكـــان صليل الســـلاح وصرير المزاليج، ونداء الدوريـات، ودَبْدَبَة المواطنين عند باب المحكمـة، يُثْمِل المسـاجين أكثر مـن الخمرة وإن كـان يُوحى اليهم بالكآبة، والهذيان، والهلع.

كان منهم من يذبح نفسه بشفرة، أو يُلقِى بنفسه من النافذة .

أقام «بروتو» فى البيسول لمدة ثلاثة أيام، عندمـا أخبره حامل المفاتيح أن الأب «لونجيمار» يثابر على بقائـه على القش الآسِن، فى الهوام الضـارة، مع اللصــوص والقتلة. فطلب نقله إلى «البيستــول» فى الغــرفـة التى يقيم فيها، حيث خَــلَا فيها سرير. ولما تعهـد بأن يدفع من أجل الراهب. ولمَّا لم يكن لرجل الأعمال السـابق ثـروة كبيرة، فقـد تفنن فى أن يرسم صــورًا مقابل مبلغ من المال لكل صورة .

وعن طريق أحـد السجَّـانين حصل على كادرات ســوداء ليضـع فيهـا الأشغال الدقيقة التى نَفَّذَها بمهـارة. وهذه الأعمال كان عليها إقبال كبير فى جَمْعٍ من الرجال يفكرون فى أن يتركوا تذكارات .

الأب «لونجيمار» كـان يتمسك بشدة بقلبـه وروحـه، انتظارًا منه أن يُستدعى أمام المحكمة الثورية، كان يُحَضِّر دفاعه. ولا يفصل قضيته عن قضيــة الكنيســة، وقـد عــزم على أن يستعـرض على القضـاة الفـوضَى والفضـــائح التى تسببِ فيها دستـور «الأكليروس» المدنى حول كنيســة

يسوع المسيـح، وقد عقد النيـة على أن يُصوِّر الابنـة الكبرى للكنيسة[1] تُعلن حـــربًا مُـــدنسـة على البـــابا، و «الأكليروس» الفـــرنسى مسلوبًا ومغصوبًا ومكرهًا، يخضع بطريقـة شنعاء لبعض العلمانيين، والرهبان – الذين هم الجنود الحقيقيون للمسيح – وقد نُهِبُوا واغتُصِبوا وتَشتتوا. وأن يذكـر القديس «جـريجوار»، و القديس «إيرينيـه» العظيم، وأن يبرز مواد كثيرة من القانون الكَنَسِىّ، وفقراتٍ كاملةً من الفتاوى البابوية .

وظل جاثيًـا على ركبتيه طوال النهار عند طرف فراشـه، يغمر أسنان الرّيش فى الحبر حتى آخرها، وفى سـواد الدخان، وفى ثُقْل القهوة، ويُغطى بكتـابةٍ غير مقرءوة مناديل ورق، وورق تغليف، وورق جـرائد، وأغلفـة الكتب، وخطابات قـديمــة، وفـواتير قـديمـة، وورق اللعب، وفكر فى أن يستخدم قميصه بعد أن يغسله بالنشا.

ثم رص الورق بعضه فـوق بعض، مشيرًا إلى الطرطشة التى يصعب حل رموزها، قال :

– عندما أَمْثُل أمام القضـاه، سوف أُغدِق عليهم بالمعرفة .

وذات يوم، بعد أن ألقى نظرة رضًا على دفاعه الذى يتزايد بلا انقطاع، ظل يُفكر فى هدوء القضـاة الذين يتمنى أن يُفحمهم، فأخذ يصيح :

– لا أريد أن أكون فى مكانهم !

المســاجين الذين جمعهم المصير فى هذه الزنزانة كـانوا إمَّـا ملكيين أو

---

(١) يعنى بالابنة الكبرى : فرنسا .

فيدراليين، ووجدوا فيهـا يعقوبيًّا واحدًا، وكـانوا يختلفون فيما بينهم فى الرأى فى طريقـــة إدارة شئون الدولة، ولكـن لم يوجـد بينهم أى واحـــد يحتفظ بأقل ما يمكن من المعتقدات المسيحية .

كان الرُّهبان، والدستوريون، والجيروندان يجدون - مثل «بروتو» - أن الرب الطيب بالنسبـة لهم ليس فى صَفِّهـم، وعظيمٌ بالنسبـة للشعب . والبعقوبيون كانوا قد أقاموا - بدلا من« جيوفاح » (وهو موضوع قصة ثورة الملائكة) - إلٰهًا يعقـوبيًّا ، لإنزال البعقـوبيـة من الأعالى إلى الدنيـا، ولكنْ بما أن هؤلاء وأولئك لم يستطيعـوا أن يتصـوروا إمكان انحـراف المرء عن الصـواب فى اعتقـاده بأى دين ظاهر، وبما أن الأب «لونجيمار» كان لا ينقصه الفكر، فقد عَدُّوه منافقًا .

ولأنه أرَادَ أن يستعد لأن يكون شهيـدًا، فقد أظهر عقيـدته فى كل لقاء، وكلما أبدى إخلاصًا بَدَا لهم أنه مخادع .

وبلا جـدوى كان «بـروتو» يعتبر نفسه ضـامنًا لحُسن نيـة الراهب. حتى «بروتو» نفسـه أصبح لا يصـدق إلا جـزءًا مما كان يقـول. كـانت أفكاره غريبة، حتى لَتَبْـدُو أنها مُتصَنَّعة، ولا يقتنع بها أى شخص كلية . كان يتحدث عن «جان جـاك» كنذلٍ تافه. وعلى العكس، وضـع «فولتير» فى مصـاف الرجـال المؤلَّهِين، ومع ذلك لم يَضعـه فى مصـافِّ المحبـوب «هيلفيتيـوس»، و «ديـديرو»، و «البـارون دولبـاك». وفى رأيه أن أعظم عبقـرية فى القـرن كـان «بولانجيـه». وكـان يحترم أيضًـا رجل الفلك «لالاند»،و «ديبوى» مؤلف «مذكرة عن أصل النجوم ».

وكان رجال الفكر فى الغرفــة يوجهون إلى الراهب البارنابيتى المسكين آلاف السخـــريات الخفيفة، لم يفطن إليهــا مطلقًا، كــانت نواييه السليمــة تُحبِطْ أشراكهم.

ومن أجل أن يُبعِــد المساجين عن أنفسهــم الهموم التى تُثقل كــاهلهم، ولكى يهربوا من هموم وقت الفــراغ، كــانوا يلعبــون لعبة الضـــامــة، أو الورق، أو النرد، ولم يكن مسموحًا لهم بأى آلة مــوسيقية. وبعد العشاء كانوا يُغنونَ، ويُنشــدون بعض الأشعار، وكــانت قصة فــولتير «العذراء جــان دارك» تُضفى على قلوب هؤلاء البؤســاء بعض البهجــة، والذين لم يَمَلّوا من إعادة الاستماع إلى المواقف الجيدة منها.

ولكن لم يكن فى وسعهم أن يتخلصوا من الفكرة المُخيفــة التى غُرست فى أعماق قلبهم، كانوا يُحاولون أحيانًا أن يجعلوا منها تسلية، وفي الغرفة ذات الثمانية عشر فراشًا – قبل أن يستسلموا للنوم – كانوا يلعبون دور المحكمــة الثــورية. وكــانــت الأدوار مُــوزَّعــة حسب الميــول والقــدرات. فيُشَخِّصُ بعضهم المدَّعين والقضـــــاة، ويُشخص بعضٌ آخــــــر المتهمين والشهود، وآخرون يُمثلون الجلاد ومساعديه. كانت القضايا تنتهى على نسق واحــد، بإعدام المتهمين، بأن يتمــدد المتهم على أحد الأَسِرَّة ورقبتــه تحت لوح خشب. ثم بعـــد ذلك ينتقل المشهــد إلى مقـــر أرواح الأمــوات، والذين يتحركون بخفة ورشاقــة من الفرقة، ويلتفون بملايات، ويمثلون الأشباح.

ويبــدو محامٍ شــاب من «بوردو» يُسمـــى ديبوسك، صغيرًا ، أسمــرَ ، أعــورَ ، أحــدب، أعرج، يمثــل الشيطان المُتهافت شخصيًّــا، جــاء مُقَــرَّنًا،

يسحب الأب «لونجيمار» من قدميه بعيدًا عن سريره، مُعلنًا إيَّاه أنه محكومٌ عليه بالنار الأبدية، وهالكٌ دون هوادة، لأنه جعل من خالق الكون إنسانًا حسودًا، أحمقَ، خبيثًا، عدوًّا للسرور والحب.

صاح هذا الشيطان صياحا رهيبا :

– ها ! ها ! ها ! أنت عَلِمْتَ أيها البوذيُّ العجوز أن الله يحب أن يرى مخلوقاته تذوب فى التوبة والندم، وأن يزهدوا فى أعظم هباته. مُحتال، مُنافق، كافر، فلتجلسْ على المسامير، ولتأكُل قشر البيض إلى الأبد !

اكتفى الأب «لونجيمار» بأن يُجيب على ذلك بأنه فى هذا الحديث تَفوَّق الفيلسوف على الشيطان، وأن أصغر شيطان فى الجحيم لا ينطق بمثل هذه الحماقات. ولما كان اللاهوت قد صقله قليلا فبكل تأكيد يُعَدُّ أقلَّ جهلًا من عالِم الموسوعات.

ولكن عندما سماه المحامى الجيروندينى «كابوشين»، استشاط غضبًا، وقال : إن رجلًا غير جدير بأن يميز أحد البرنابيين، عن أحد الفرنسيسكان، لا يستطيع أن يرى ذبابة فى اللبن.

أخلت محكمة الثورة السجون، التى ملأتها اللجان دون حدود فى مدة ثلاث أشهر. غرفة الثمانية عشر تجدَّدَ نصفُها. والأب «لونجمار» فقد شيطانه الصغير، وذلك أن المحامى «ديبوسك» مَثُلَ أمام المحكمة الثورية وحُكِمَ عليه بالإعدام كفيدرالى، ولأنه تآمر ضد وحدة الجمهورية، وعند خروجه من المحكمة مَرَّ – مثل جميع المحكوم عليهم الآخرين – فى ممرٍّ يعبر السجن، ويطل على الغرفة التى ملأها حيوية وبهجة، وكان وهو

يودع أصدقــاءه يحتفظ باللهجة المرحة، والمظهر الفــرِح الذى تعوَّد عليه، وقال للأب «لونـجيمار» :

– عفــوا يا سيـدى ، ســامِحْنى على أنى جـــذبتك من قـدميك من على سريرك، فلن أعود لمثل ذلك ثانية.

ثم استدار إلى «بروتو» العجوز وقال له:

– الوداع ، ســوف أسبقك إلى العَـدَم.سوف أتبرع للطبيعــة بعناصرى التى أتكوَّن منها، آمِــلًا أن تستخدمهــا استخدامًــا طيبًا فى المستقبل، لأنه يجب الاعتراف بأنها لم تُكلَّل بالنجاح معى .

ثم نزل إلى قلم المحكمة، تاركًـا «بروتو» محزونًا ، والأب «لونـجيمار» يرتعــد، وصـــار أَخْضَرَ اللون مثل ورق الشجــر، أقــرب إلى الموت منه إلى الحياة حين رأى الزنديق يضحك وهو على شفا الهاوية (أى الهلاك).

وعندما هَلَّ شهر جيرمينال (يوليو) بــأيامه المشرقة صار «بروتو» – الذى كــان شهوانيًّا – ينزل عــدة مرات فى اليــوم إلى الفناء الذى يؤدى إلى القسم الخاص بالسيدات، بالقــرب من النافورة، حيث تأتى السجينات فى الصباح ليغسلن ملابسهن. وكان هناك حاجز يفصل بين القسمين، ولكن الحواجـــز لم تكن مُحْكَمــة حتــى تمنع الأيدى من أن تتـــلاقى ، أو تمنع الشفاة من أن تتلاثم .

وفى هزيع الليل الهادىء يهرع فيــه كل اثنين معًا. حينئذ، وفى الخفــاء، يحتمى «بروتو» بالسلم، ويجلس على إحدى الدَّرجات، ويُخرج من جيب

«الريدينجـوت» كتاب «لوكريـس»، ويقرأ على ضوء شمعـة بعض الحِكَم المفرِّجـة للكرب، ومن ذلك : «عندما تتـوقف حياتنا، لا يستطيع أى شـىء أن يُؤثر فينا، حتى السماء والأرض والبحـــار عند اختــلاط بقــاياها...».

ومع أنه كـان يتمتع بحكمته القـوية، فقـد كان «بروتو» يحسـد الراهب البارنابيتى على هذا الحمق الذى كان يحجب عنه الكون .

كـان الإرهـاب – من شـهـر إلى شـهـــر – يتفــاقم، وفى كل ليلـة كـان السجــانون – وهم سكارى، ومعهم كلاب الحراسـة يتنقلون من زنزانة إلى أخـرى، يحملون قـرارات الاتهام، ويصيحـــون على أسماء لفقُّـوها، يُوقظون السجناء بصـوتٍ مفـزع، ومن أجل عشرين ضحيـة مـذكـورة أسماؤهم يُروعِّون مائتين.

فى هذه الممرات المملوءة بالظُّلمات الداميـة، كان يمر فى كل يوم – دون أى شكوى – عشرون، أو ثلاثون، أو خمسون مُدانًا من الشيوخ والنسـاء، والشُّبَّان، وحـالات متنوعة الطِّباعِ والشعور، حتى أن المرء كـان يتساءل عَمَّا إذا كان اختيارهم لم يتم حسب القرعة.

وكـــان هناك من يلعب الورق، ويشرب نبيـــذ بورجـونيـــون، ومن يخططون، ومن لهم لقاءات غرامية فى المساء عند الحاجز .

المجتمع تجدد كله تقريبًا، والآن يتكون جزء كبير منه من «المتطرفين» ومن «الســاخطين»، ومع ذلك فإن غـرفـة الثمانية عشر فِـرَاشًــا لا تزال باقية، لإقامة الأناقة واللباقـة، فيما عدا اثنين معتقلين وُضِـعَا فيها حديثًا، نُقلوا من «لوكسيمبـورج» إلى البـوابة الرئيسيـة، ومشكوك فى أنهما من

«الخِرَاف» أى : من الجواسيس، وهما المواطنان «نـافيت» و «بيلييـه»، لم يكن يوجد سوى أُناس أشراف بينهم ثقة متبادلة.

وكان يُحتفل فيها بانتصـارات الجمهورية، وكأس الشراب فى الأيدى، ويتـلاقى فيهـا كثير من الشعراء ، كما يتـلاقى فيها فى كل اجتماع رجالٌ لا عملَ لهم. وأكثـرهم مهـارة، هماالذيـن يؤلفـون قصـائـد غنائيـة عن انتصارات جيش الران، وينشدونها بتفخيم، وكـانوا يُصفقون بحِدَّة لها، و «بروتو» فقط كان يمدح بفتور كُلًّا من المنتصرين وشعرائهم .

قال ذات يوم : ذلك – منذ هوميروس – هَوَسٌ غـريبٌ من الشعراء أن يحتفلوا بالعسكريين. الحرب لم تكن قط فَنًّا، والمصادفة وحدها هى التى تقرر مصير المعارك. فلابد من انتصـار أحد القائدين الأحمقين المتقابلين. وانتظروا إلى يوم من الأيـام ، فإن أحـد هؤلاء الذين يحملـون السيـوف والذى تُعظمـونه ، فـإنه سيبتلعكم جميعًـا كما يبتلع طـائـر الكركى الضفـادع كما تـذكـر الحكاية. وحيئنـذ سيكون بحقٍّ إلٰهًا ! لأن الآلـهة تتعرف على بعضها عند الاشتهاء.

لم يتأثر «بروتو» مطلقًا بمجـد الجيوش ، ولم يبتهج قط بانتصارات الجمهـوريـة، والتى كـان قـد تكهـن بها ، ولم يُحب النظام الجديد الذى يؤيده النصر. لم يكن مسرورًا ، وعلى الأقل كان شعوره بذلك يسود .

وذات صبـاح أُعْلِن أن مفتشى لجنة الأمن العـام سيقومـون بتفتيش دقيق عند المتهمين، وقـد يعثرون على حـوالات حكوميـة، وأشياء ذهبيـة وفضيـة، سكاكين مقصات، مثلما جـرت تفتيشات فى «لوكسيمبـورج».

وأنه عُثِرَ على خطابات وأوراق وكتب. حينئذ حَاوَلَ كل فرد فى أن يجد مخبأً ليضع فيه أثمن ما عنده. وَدَسَّ الأب «لونجيمار» مرافعته فى أحد المزاريب. وخبَّأَ «بروتو» كتابه «لوكريس» فى رماد المدفأة .

وعندما جاء المفتشون – يُعلقون شرائطهم ثُلاثية الألوان حول رقبتهم – ليقوموا بعملية التفتيش ، لم يعثروا على شىء يستحق أن يأخذوه. وبعد رحيلهم جَرَى الأب «لونجيمار» إلى المزراب واسترد ما لم تبلله المياه أو الريح من مرافعته. وأخرج «بروتو» من الرماد كتابه عن «لوكريس»، وقد صار أسود اللون بسبب سواد الدخان.

وقال : «فلنتمتع بساعتنا التى نعيشها، وذلك لأنى أتطير ببعض الدلالات على أن الوقت من الآن فصاعدًا محسوبًا علينا بدقة شديدة ».

وفى إحدى الأُمسيات الجميلة من المَرْعَوى (صفة الشهير التاسع من تقويم الجمهورية، من ٢٠ مايو إلى ١٨ يونيو) بينما هَلَّ الهلال فى السماء شاحبًا عند طرفيه الفضيين، ورجل الأعمال العجوز من عادته قراءة «لوكريس» على إحدى درجات السلم الحجرى، إذْ سمع صوتًا يناديه، صوتَ امرأة، صوتًا لطيفًا لا يعرف صاحبته، فنزل إلى الفناء، ورأى خلف الحاجز شكلًا لا يعرفه ولا يعرف صوته، وكان يُذكِّره بكل النساء اللائى أحبهن. وأَضْفَت عليه السماء اللون اللازوردى والفضى. وفجأة تعرف «بروتو» على الممثلة الكوميدية الجميلة من شارع «فايدو»، «روز ثيفينان».

– أنتِ هنا يا صغيرتى ! إنَّ فرحتى برؤيتك هنا قاسية بالنسبة لك . منذ متى، ولماذا أنتِ هنا ؟

● منذ أمس . وأضافت هامسة :

أَبْلَغُوا عنى على أننى مَلَكِية، واتهمونى بأننى تآمرت لتخليص الملكة، وبمجرد أن علمتُ بوجودك هنا بدأت فى الحال أبحث عنك . فاسمعنى يا صديقى.... وذلك لأنك تريد حقًّا أن أناديك بهذا الاسم... إننى أعرف شخصيات لها مكانتها، ولدىَّ – كما أعرف – تأثيرات حتى على لجنة الخلاص الشعبى. سوف أطلب تَحرُّك أصدقائى ، وسوف يُخلصوننى ، وأنا بدورى سوف أُخلِّصك .

ولكن «بوتو» بصوت متأثر قال :

– استحلفكِ بكل عزيز لديكِ يا صغيرتى لا تفعلى شيئا ! لا تكتبى ، ولا تلتمسى من أحد ، ولا تطلبى أىَّ شىء من أى إنسان، أتوسل إليكِ أن تتنسى ذلك .

ولما كان يبدو عليها أنها لم تستوعب ما قاله، فقال مستطردًا، وهو يتوسل أكثر :

– التزمى بالصمت يا «روز»، وتَنَاسَىْ وهنا الخلاص . وكل ما سوف يفعله أصدقاؤكِ لن يكون إلَّا سببًا فى تعجيل موتكِ. تَريَّثى، فقد لا يمضى وقت قصير حتى يتم إنقاذك كما أتمنى.... لا تثيرى القضاة وهيئة المحلفين ومن يُسمى «جاميلان»، فهؤلاء ليسوا بشرًا ، بل أشياء ، والمرء

لا يتفاهم مع الأشياء. تَنَاسَىْ . إذا اتبعتِ نصيحتى يا صديقتى فسأموت سعيدًا بإنقاذ حياتكِ. أجابت :

– سأطيعك .... ولا تتحدث عن الموت .

فهز كتفيه وقال :

– لقد انتهت حياتى يا صغيرتى . فعيشى أنتِ وكونى سعيدة .

فتناولت يديه ووضعتهما على صدرها وقالت :

– اسمع يا صديقى .... أنا لم أَرَكَ سوى يومٍ واحدٍ، ومع ذلك فأنت لست غريبًا بالنسبة لى . وإذا كان ما سأقوله لك سوف يربطك مرة أخرى بالحياة، فَصَدِّقْهُ : « سأكون لك.... كل ما تريده منى سأُنفذه».

وتبادلا قبلة بثغريهما من خلال الحاجز .

* * *

بينما كان «إيفاريست جاميلان» فى أثناء جلسة طويلة فى المحكمة جالسًا على مقعده، فى جو حار، أغلق عينيه وأخذ يفكر :

«الأوغاد أجبروا «مارات» على أن يختبئ فى الجحور، جعلوا منه طائرًا من طيور الليل، طائز «مينيرفا» الذى تخترق عينيه المتآمرين فى دياجير الظلام حيث يختفون .

والآن، إنها نظرة زرقاء فاترة هادئة، تخترق أعداء الدولة، وتُبلِّغ عن الخونة بدقة خفية، حتى على صديق الشعب، النائم إلى الأبد فى حديقة

الكوردليه. المُنْقِذ الجديد في حماس المنقذ الأول، وأحدَّ منه ذهنًا، ورأى ما لم يره أحد من قبل، وأصبعه المرفوع ينشر الرعب.

فهو يُمَيِّز الفروق الدقيقة التى لا تُدرَك بالحواس، والتى تفصل بين الخير والشر، وبين الرذيلة والفضيلة، ولولاه لاختلط الصالح بالطالح فى الوطن والحرية. ويرسم أمامه الخط الدقيق والعنيد، والذى لا يوجد على جانبيه سوى الخطأ والجريمة والإثم. ويُعَلِّم هذا النزيه كيف نستخدم الغريب بالمبالغة وبالضعف، وباضطهاد الديانات باسم العقل، ومقاومة قوانين الجمهورية باسم الدين. وليس أقلَّ من الآثمين الذين أهلَكوا «لوبيليتييه» و «مارات»، وهؤلاء الذين كافئوهم بأمجاد مقدسة من أجل تشويه ذكراهم، خدمة للغريب.

الجاسوس – أيًّا كان – يرفض أفكار التنظيم، والحكمة، والانتهازية. الجاسوس – كائنًا من كان – يُحقِّر العادات، ويُهين الفضيلة، وفى فساد قلبه يُنكر الله. الكهنة المتعصبون يستحقون الموت، ولكن توجد طريقة مضادة للثورة لمحاربة التعصب، وتوجد ارتكاسات إجرامية، فبالعنف يُقْضَى على الجمهورية كما يُقْضَى عليها بالاعتدال.

« أوه! يا لها من واجبات رهيبة على القاضى، أملاها أكثر الرجال حكمة! ليس فقط الأرستقراطيون والفيدراليون والخُبثاء فى حلف أورليانز هم أعداء الوطن المُعَلنْ عنهم، والذين يجب ضربهم، فالمتآمر، أو الجاسوس، هو ضفدع مبرقش يتلون بأشكال مختلفة، يظهر بمظهر الوطنى أو الثورى، أو كعدو للملوك، ويتصنع مهارة قلب لا يخفق إلا من

أجل الحرية، يُضَخِّم صوته ليُرعب أعداء الجمهورية : هذا «دانتون»، قسوته تسىء إلى إخفاء اعتداليته المخيفة، ويُظهر فساده أخيرًا .

المتآمر، أو الجاسوس، هو ذلك المتلجلج البليغ الذى يضع على قبعته أول شارة وطنية للثوريين، هو ذلك الهجَّاء الذى يهجو، والذى فى وطنيته الساحرة والقاسية يُسَمِّى نفسه «نائب المشنقة»، هذا هو «كامى ديمولان»[1]، وهذا هو النَّذْل «لاكروا»[2] المتآمر، الجاسوس، وهذا هو الأب «ويشيزن»[3] يحط من قيمة الحرية بغوغائيتها الحقيرة، والتى منها الوشايات البذيئة جعلت «أنطوانيت» نفسها لها أهميتها .

وهذا هو «شوميت»[4]، والذى – رغمًا عن ذلك – نراه مناسبًا وشعبيًّا ومتعدلًا، ورجلا طيبًا، وفاضلًا فى إدارة مجلس العموم، ولكنه كان ملحدًا !

المتآمرون، والجواسيس، هم جميعهم هؤلاء اللامتسرولون الذين يرتدون على رءوسهم البونيه الأحمر، وكارمنيولا، وقباقيب، والذين يزايدون بالوطنية على اليعقوبيين بجنون.

هذا «أنارسيس كلوتس» (١٧٥٥ – ١٧٩٤) ويُسَمى خطيب النوع البشرى، ألمانى ثرى، مواطن عالمى، فى عام ١٧٩٢ كان يُحرِّض على الحرب والإرهاب فى عهد الجمعية الوطنية، حُكِم عليه بالإعدام من قِبَل

---

(١) من أعضاء مجلس العهد .

(٢) رئيس مجلس العهد .

(٣) من رجال السياسة الفرنسيين .

(٤) وكيل النيابة لدى الهيئة الثورية.

جميع مَلَكِيَّات العالم، ولكن كان لابد من خشيته لأنه كان بروسيًّا، وانتهى إلى المقصلة بتهمة الإلحاد والخيانة (٢٤ مارس ١٧٩٤).

« والآن، عُنْفٌ ومُعتَدلون، كل هؤلاء الأشرار، جميع هؤلاء الخونة، دانتون، ديمولان، هيبير، شوميت، هلكوا بالمقصلة .

أُنقِذَت الجمهورية، وتصاعدت من جميع اللجان جوقة مديح، ومن جميع الجمعيات الشعبية نحو «ماكسمبليان» و «مونتانى». المواطنون الصالحون يصيحون : «ممثلون أفاضل لشعب حر، وأنه كان بلا جدوى أَنَّ أبناء التيتان رفعوا رءوسهم شامخون، (مونتانى) فاعلة خير، (سيناء) حامية، ومن نهدك الذى يغلى خرجت صاعقة الخلاص...». وفى هذه الجوقة كان للمحكمة نصيبها من المدائح .

كم هو جميل أن يكون المرء فاضلًا، وكم أن العرفان الشعبى غالٍ وعزيز ، فى قلب قاضٍ نزيه !

« لذلك ، من أجل قلب وطنى ، يا له من موضوع يثير الدهشة، ويا لها من قضايا قلق ! ماذا ؟! من أجل القضية الشعبية ؟ إذن لم يكن ذلك كافيًا من «ميرابو»، و «لافاييت»، و «بايى»، و «بيتيون»، و «بريسو» ؟ وكان لابد أن يكون فيها هؤلاء الذين بَلَّغوا عن هؤلاء الخونة وَوَشَوْا بهم .

ماذا ؟! جميع الرجال الذين صنعوا الثورة، لم يصنعوها إلَّا لكى يخسروها. ماذا ؟! هؤلاء الصانعون لأيام عظيمة، كانوا يجهزون مع «بِيت» و «كوبروج» ملكية أورليانز، أو وصاية لويس السابع عشر .

ماذا؟! «دانتون»، وهذا كان «مـونك»! ماذا؟! «شـوميت» و«الهوبيرتيون» أكثر نذالة من الفيدراليين الذين دفعـوا بهم تحت المقصلة، لقد تآمروا على تدمير الإمبراطورية !

ولكن من بين هؤلاء الـذين أسرعـوا إلى الموت الغـادِرَيْـن . «دانتـون» و«شـوميت».. ألن تكتشف عين «روبسبير» الزرقاء غـدًا غادرين آخرين؟ أين سيتوقف التسلسل الممقوت للخونة، والبصـيرة النافذة للنزيه ؟....».

* * *

كانت«جولى جاميلان» مرتدية «الريدينجوت» الأخضر اللون مثل لون القـوارير. كـانت تذهـب يوميًّـا إلى «لوكسيمبـورج» وهناك – على أحـد المقاعد، فى آخر أحد الممـرات – تنتظر لحظة ظهور حبيبها فى إحدى نوافذ القصر الصغيرة .

كـانا يتبادلان الإشـارات والأفكار فى لغة صـامتـة تخيَّلاها. وكـانت تعرف بهذه الوسيلة أن السجين يشغل غرفة لا بأس بها، وينعم بصحبة مناسبة، ويحتاج إلى غطاء وغَلَّايَة صغيرة، وأنه يحب عشيقته بحنان .

لم تكن هى الوحيدة التى تنتظر رؤية وجه محبوب فى هذا القصر الذى تحوَّل إلى سجن، فقد كان يوجـد أُمٌّ صغيرة بجانبها، لا تُحَوّل نظرها عن نافذة مُغلقة، وبمجرد أن شـاهدت النافذة تُفتح، رفعت طفلها الصغير إلى أعلى بين ذراعيها على رأسها .

وسيدة عجوز مُحَجبة بالدانتيلا، جلستْ وقتًا طويلًا وهى ساكنة على

أحـد المقاعـد التى تُطْوَى . عبثًا تأمل فى أن ترى ابنهـا ولو للحظة، والذى كان يلعب فى فناء السجن حتى حان وقت إغلاق الحديقة .

وطوال فترة هذه الانتظارات الطويلة تحت سماء مُلبَّـدة أو صـافيـة، كان يُرَى رجلٌ ناضج، ضخم قليلًا، نظيف جدًّا، يجلس على مقعد مجاور، ويتسلى بعلبة السعوط الخاصة به وبسلسلة بها حِلْية ، ويطوى صحيفة لم يقرأها .

كان يرتدى ملابس حسب الموضة البـورجوازية القديمة ، يرتدى على رأسـه قبعـة مثلثة القـرون بشريط ذهبى ، وثوبًا بنفسجيًّـا، وصـديريًّا أزرق، مشغولًا بخيـوط فضية. يبدو عليـه مظهر النُّبْل ، كان مـوسيقيًّا ، ويُبرز ذلك طرف «الفلاوت» الذى يظهر من جيبه .

كان يتابع الصبى الصغير بنظراته، ولم يحول عنه عينيه ، ولم ينقطع عن الابتسام له، وعندما يراه ينهض، ينهض هو أيضًا ويُتابعه من بعيد.

تأثرت «جولى» فى بؤسـهـا ووحدتها بالعاطفة الخفيـة التى يبديها هذا الرجل الطيب . وذات يوم، عندمـا كـانت خارجـة من الحديقـة، بدأ المطر يتسـاقط فاقترب الرجل الطيب منهـا، وفتح مظلتـه الحمراء الواقيـة من المطر، وطلب منهـا الموافقـة على أن تحتمـى تحتهـا. وأجـابتـه بلطف - بصوتها المشرق - بأنها توافق على ذلك. ولكن مع رنة هذا الصوت نبهته رائحـة لطيفـة لامرأة، فـابتعـد فجأة، وعـرَّض السيـدة الصغيرة للمطر المنهمر، وقد أدركت الفتاة مغزى ذلك بالرغم من همومها، ولم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام.

كانت «جولى» تقيم فى غرفـة تحت سقيفة فى شـارع «شـيرش –ميدى»، واقتنعت المواطنـة الأرملـة « جاميـلان » أخيرًا بأن ابنتهـا فى جوارهـا ، ولا تتعـرض إلى خطر كبير، أبعـدتها عن ميـدان «ثيـونفيل» وعن قطاع «لوبونت – نوف»، وتولت إعاشتها وكسوتها بقدر استطاعتها.

كنت «جـولى» تقـوم ببعـض أعمال المنزل، وكـانت تـذهب إلى «لوكسيمبـورج» لترى عشيقها العـزيز ثم تعود إلى كـوخها القـذر، هذه الرتابة فى حياتها تُهَدْهِدُ أحزانها، ولما كانت شابة وقوية فإنها كانت تنام طوال الليل نومًا عميقًا .

ولما كانـت حادة الطبع، وتعـودت على المغامرات – وربما يـدفعها إلى ذلك ملابسها التـى ترتديها – فكانت تذهب أحيانًا فى الليل إلى بائع عصير الليمـون فى شـارع «فـور»، بلافتـة تحمل اسم «لاكـروا روج»، والذى يرتاده أناس من جميع المسويات، ونساء أنيقات .

كـانت تقـرأ هناك صحف الجازيـت، وتلعب النرد مع بعض صبيـان الدكـاكين أو مع جندى يدخن غليـونه تحت أنفه. وهناك كـانوا يشربون ويلعبون، ويقضون وقتًا فى الغرام، وكذلك كانت المشاجرات لها نصيب .

وذات مساء ، عندما سمع أحد السكارى وَقْعَ حـوافر أحد الخيول على بلاط الطريق عند مفترق الطرق، رفع الستارة، فتعـرف على قائد الحرس الوطنى، المواطن «هانريوت» كـان مارًّا ممتطيًـا جواده، يعـدو مع أركان حربه، فتمتم السكير من بين أسنانه مغتاظًا :

– ها هى ذى أتان « روبسبير » !

وعندمـــا سمعت «جــولى» هذه الكلمــة انفجرت ضــاحكة. ولكن أحـد المواطنين طويل الشـاربين أثاره الكلام بشـدة قائلًا :

– إن من يتحدث هكذا مــا هو إلا أرستقراطى مجـ....، وأكـون سعيدًا لو رأيتــه يعطس فى عربة السجن إلى «ســامسـون». أتعرفـون أن الجنرال «هانريوت» مـواطن طيب، سيــدافع عند الضرورة عن الجمعية الوطنيـة وعن باريس. وهذا ما لن يغفره الملكيون أبدًا .

ثم استدار الوطنى ذو الشارب الطويل إلى «جولى» وتفرَّس فى وجهها، وكانت لا تزال تضحك :

– صِــهٍ، أيها الغـلام الغِرّ، احترس وإلَّا ركلتُكَ بقـدمى فى مـؤخــرتك، لأُعَلِّمك كيف تحترم الوطنيين .

عندئذ ارتفعت أصوات كثيرة :

– « هانريوت » أَبْلَه وسخيف !

– « هانريوت » يعقوبى طيب ! يعيش « هانريوت » !

ويَتَكَوَّن حـزبان، وتقع مُصـــادمــات، وتتــوالَى اللكمات على القبعــات المنقـــوبة.. وانقلبت الطاولات، وتطايرت الأكـــواب مُحطمــــة، وانطفأت المصابيح، والسيـدات أطلقن صرخات حـادة. ولما هاجَمَ «جولى» كثير من الوطنيين احتمت بأحد المقاعـد، دافعت وخربشت وعضت كل من يحاول أن يهاجمها. وتمزق «الريدينجوت» الذى كـانت ترتديه، وكذلك الصدرة تمزقت، فـــانكشف صـــــدرها اللاهــث. وأقبلت داورية على صـــــوت الضوضاء، وتسللت الأرستقراطية الصغيرة من بين أرجل شرطة الدَّرَك.

كانت العربة يوميًّا تمتلىء بالمحكوم عليهم، وتقول «جولى» لأمها :

- « ومع ذلك لا أستطيع أن أترك حبيبى يموت ! ».

قررتْ أن تترجَّى، وأن تسعى، وأن تذهب إلى اللجان، وإلى المكاتب، وعند النُّوَّاب والقضاة... سوف أطرق كل مكان يجب أن أطرقه .

لم يكن عندها أى ثوب، فاستعارت والدتها ثوبًا ووشاحًا، وغطاءَ رأسٍ من «الدانتيللا» من المواطنة «بلين». وتوجهت «جولى» بعد أن ارتدت كامرأة ومواطنة إلى القاضى «رينودان» فى أحد منازل شارع «مازاران» الرطبة المظلمة. وصعدت الدَّرَج الخشب وهى ترتعد، واستقبلها القاضى فى حجرة مكتبه البائس، المؤثث بمنضدة من خشب الصنوبر، ومقعدين من القش - وورق الطنافس المعلق فى قصاصات.

«رينودان» سعرُه أسود ومُلْصَق، وذقنه مُدَبَّب، وعيناه سوداوان، وشفتاه مقلوبتان. أشار لها بأن تتحدث، وأَصْغَى لها فى هدوء .

قالت له : إنها أخت المواطن «شاسانى» -سجين فى «لوكسيمبورج» - وفسرت له بمهارة فائقة الظروف التى أُلقى عليه القبض فيها، وقدمته على أنه برىء وبائس، وأظهرت له أن المسألة عاجلة.

ظل جامدًا وفاترًا .

وتبكى متضرعة عند قدميه ،

وبمجرد أن أرى دموعها تغير وجهه، واتقدت حدقتاه باللون الأسود

المائل للحمرة، وفكّاه الكبيران الزرقاوان تحركا، كأنهما يُرسلان لعابه إلى حَلْقِه الجاف ، وقال :

– أيتها المواطنة، سوف يُتَّخذ اللازم، لا تشغلى بالك .

وفتح أحد الأبواب، ودفع بالمبتهلة فى صالون صغير وردى اللون، حيث كانت توجد مرايا حائط ملونة، ومجمعات من الخزف المُبَرغل وساعة جدارية، وشمعدانات مذهبة، ومقاعد منجدة الظهر والمساند، وكنبة بكسوة منقوشة برسومات رعوية للرسام بوشيه.

«جولى» كانت مستعده لأى شىء لتنقذ حبيبها. «رينودان» كان عنيفًا وسريعًا، وعندما نهضت هى لتُهندم الثوب الجميل، ثوب «إيلودى»، تلاقت نظراتها بنظرات هذا الرجل القاسية والساخرة، فأدركت فى الحال أنها أقدمت على تضحية لا جدوى منها . قالت :

– لقد وعَدْتَنِى بحرية أخى .

ضحك ضحكه ساخرة ، وقال :

– قلتُ لكِ أيتها المواطنة سوف نُجرى اللازم، أى أن القانون سوف يُطبق لا أكثر ولا أقل. وقلتُ لكِ ألَّا تقلقى، ولماذا تنشغلين؟ فالمحكمة الثورية دائمًا عادلة .

فكرت «جولى» فى أن تنقضَّ عليه لتعقره، وتنتزع عينيه. ولكن ، عندما شعرت أنها توشك أن تفقد «فورتينيه شاسانى» هربت، وأسرعت إلى

غرفتهـا الصغيرة لتتخلع عنها الثـوب المُدنَّس ، ثوب «إيلودى»، وهنا فقط قضت الليل كله فى عويل من الألم والغيظ .

وفى اليـوم التـالى، عندما آبـت إلى «لوكسيمبورج»، وجَـدَت الحديقـة يحتلها شرطة الدرك، وهم يطردون النساء والأطفال، ووُضعت حراسات فى الممرات لتمنع المارة من الاتصال بالمسلجين. وقالت الأم الصغيرة التى كانت تأتى كل يوم حاملة طفلها فى حضنها لجولى : إن الحديث يُتناقل عن مؤامـرة فى السجون، ومنسـوب إلى الزوجات أنهن يجتمعـن فى الحديقة ليثيروا الشعب لصالح الأرستقراطيين والخونة .


8

8

وفجأة ، ارتفع جبلٌ فى حديقـة «التويليرى»، والسماء بلا سحب، ويسير «ماكسميليـان» متقدمًـا زملاءه بزىٍّ أزرق اللون، وسروال أصفـــر اللون، وفى يده باقة من السنابل، ومن زهور الترنجان الزرقاء، وزهور الخشخاش الحمراء.

ارتقى الجبل، ودعـا رب «جان جـاك» من أجل الجمهورية الشفيقـة. فيالَلْنقاء ! ويا للوفـاء ! ويـا للبسـاطـة القديمـة ويـا للطـل الخصيـب ! ويا للرحمة! ويا لَلْإِخاءَ الإنسانى !

وعبثًا ، لا زال وجه الإلحاد البغيض قـائمًا. ماكسيمليان يحمل شعلة، والنيران تلتهم الوحش، و «الحِكْمَة» تظهر، تشير إلى السماء بإحى يديها، وبالأخرى تمسك تـاجًا من النجوم. وعلى المنصـة المنصوبة فى مـواجهة قصر «التويليرى» «إيفاريست» فى وسط الجمع الغفير المتأثر، يذرف دمعًا هادئًا ، ويحمد الله، فقد شاهَدَ افتتاح عهد من السعادة .

وتنهد قائلًا :

– أخيرًا ، سوف نكون سعداء وأنقياء وأبرياء، إذا سمح الخبثاء بذلك.

يا للأسف ! الخبثاء لم يسمحوا بذلك. لابد من المزيد من التعذيب، ولابد من المزيد من إهراق أنهارٍ من الدماء النجسة .

وبعد مُضى ثلاثة أيام من الاحتفال بالتحالف الجديد والمصالحة بين السماء والأرض أصدرت الجمعية الوطنية قانون «بريريال» الذى ألغى – بنوع من الطيبة المخيفة – جميع الأشكال التقليدية للقانون ، وكل ما كان موضوعًا منذ عهد الرومان مُنْصِفًا من أجل حماية البراءة المُتَّهَمَة. المزيد من التعليمات، المزيد من الاستجوابات، المزيد من الشهود، والمزيد من المدافعين، فحُبُّ الوطن مطلوب من الجميع. والمتهم الذى يحبس فى داخله جريمته أو براءته، يَمْثُل أبكمَ أمام القاضى الوطنى ، وأنه كان فى ذلك الوقت يجب تمييز قضيته الصعبة أحيانًا، والمثقلة الغامضة فى الغالب .

كيف يدور التحقيق الآن ؟ كيف يتم التعرف فى لحظةٍ على الرجل الشريف، وعلى الفاسق، وعلى مُحَبِّ الوطن من عدو الوطن ؟...

وفى لحظة ارتباك، فهم «جاميلان» واجباته الجديدة، وتواءم معها. كان يتعرف باختصار على قضية الصفات الحقيقية لهذه العدالة الملائمة والمخيفة، والتى لم يكن وزارؤها كالقطط المكسوة بالفراء، يَزِنُون فى وقت الفراغ بين الدليل وعكسه بموازينهم القوطية، ولكن بعض اللامتسرولين يحكمون بالتنوير الوطنى، ويَرَوْنَ كل شىء كالوميض الخاطف.

وبينما فقدت الضمانات والمحاذير كل شىء ، فإن حركات القلب

المستقيم تُنقِذُ كل شىء . كان لابد من اتباع غرائز الطبيعة، هذه الأم الطيبة التى لا تخطىء أبدًا، كان لابد من تحكيم العاطفة، كان «جاميلان» يبتهل من أجل أرواح موتى «جان جاك» بقوله :

– أيها الإنسان الفاضل، أَلْهِمْنِى بحب البشرية، بالقدرة على بعثهم من جديد !

ومعظم زُملائه كانوا يشعرون مثله، وكانوا – بصفة خاصة – بُسطاء، وعندما أصبحت الأوضاع سهلة أَلْفَوْا أنفسهم على راحتهم. العدالة المُجْمَلة تكفيهم، ولا شىء يُكَدِّرهم أبدًا فى وَقْعِها السريع، فهم يتحرَّوْن فقط آراء المتهمين، ولا يُدركون أنه من الممكن – دون أى أذى – التفكير بعكسهم.

كما أنهم يؤمنون بمعرفتهم للحقيقة والحكمة، والحاكم الصالح، ويُنسبون إلى خصومهم الشر والضلال، إنهم يشعرون بأنهم أقوياء : كانوا ينظرون إلى الرَّبِّ .

أجَل ، كان هؤلاء المحلفون بالمحكمة الثورية ينظرون إلى الرب الخالق، الذى عرفه «ماكسيميليان» بأنواره.. وكانوا يحبون ويؤمنون .

أما مقعد المتهم فقد تم استبداله بمنصة عريضة يمكن أن تستوعب خمسين فردًا.. الإجراءات لم تكن تتم إلَّا بالإجماع، المدعى العام كان يجمع ويتهم فى نفس القضية، أو يُجَرِّم – كمتواطئين – أُناسًا دائمًا فى المحكمة يلتقون لأول مرة. وتأمر المحكمة بالتحقيق، وبالتسهيلات المدهشة لقانون بريرليال ، وتحكم فى المؤامرات المزعومة بالسجون،

والتى أَعقبت التحـذيرات إلى أتبـاع «دانتـون» ومجلس العمـوم، كـانت ترتبط فيها ببراعة فكرة ثاقبة .

ومن أجل التعرف على صفتين جوهرتيتين لمؤامـرة دُبِّرت بأموالٍ من الخارج ضد الجمهـورية - الاعتدال اللامتـوافق، والمبالغـة المحسوبة - ومن أجل أن نرى فيهـا أيضًـا الجريمة الدانتـونية، والجريمـة الهيبرتية، وكانت قـد تحدد لها رأسان متعارضـان، رَأْسَا سيـدتين : أرملة «كامى» المحبوبة «لـوسيل»، وأرملة «الهيبرتى» «مومـورو»، وهى امرأة غـانية، رائعة الجمال.

والسيدتان قد تم إيداعهن سجنًا واحدًا، حيث إنهما كانتا تبكيان وهما جالستين على مقعد حجرى واحـد ، ونظرًا للتشابه والتناسق بينهما فقد صعدتا معًا إلى المقصلة لهدف واحد، ويُعَدُّ هـذا رمزًا يتميز بعبقرية فَذَّة. عمل فنى، تتخيلـه دون شك روح النائب، والـذى يرجع فخـــر عمله إلى «مـاكسميليـان». وتُنسب إلى هذا الذى ينوب عن الشعب جميع الأحـداث السعيدة أو البـائسة التى كانت تتـم فى الجمهورية : القوانين، والتقـاليد، وتعاقب فصـول السنة، والمحصولات، والأمـراض. وهذا ظلم مُستأهل، لأن هذا الرجل دقيق التكوين، شـديد النظافـة حتى درجـة الوسوسـة، هزيل، له وجه كوجه القطة، كان متحكمًا فى الشعب...

فى هذا اليـوم، أرسلت المحكمة جـزءًا من مـؤامرة السجـون الكبيرة، أرسلت مـا يقـرب من ثـلاثين مُتـآمِـرًا من لكسيمبـورج أسرى طائعين، ولكنهم إمَّا ملكيون أو فيدراليون أقوياء.

الاتهام برمته يقوم على أساس شهادة واشٍ واحد فقط .

المحلفــون لا يعـرفــون شيئًا عن القضيــة، ويجهلون حتى أسماء المتآمرين. «جاميـلان» عندما ألقى بنظراته على مقعد المتهمين، تعرف من بينهم على «فورتينيه شاســانى» عشيق «جولى»، وقد بَدَا نحيفًا من طول الأسر، شاحبًا ، وقسماته قاسيــة بسبب الضوء الساطع الذى تسبح فيه القاعة، ومــا زال يحتفظ ببعض الأناقة والأَنَفَة. تلاقت نظراته مع نظرات «جاميلان» مُحَمَّلة بالازدراء.

« جاميــلان » تتملكه رهبة هادئة، نهض، وطلب الكلمــة، وعيناه مثبتة على التمثال النصفى لبروتوس السابق، والذى كان يسود المحكمة، قال :

– الرئيس الوطنى، لما كان فى الإمكـان أن أحد هؤلاء المتهمين، تربطنى به روابط، إذا صح الإفصاح عنهـا، فهى صلة نَسَب، وأُعلن عدم تَنَحِيَتِى مطلقًــا، فإن «بروتــوس» الأول والثــانى لم يتنحيــا ، من أجل ســلامــة الجمهورية أو قضيــة الحرية، عندما كــان لامناص لهما من أن يدينا أحد الأبناء وقد ضَرَبَ أحــد الآباء بالتبنى. (جونيوس بروتوس، ومــاركوس بروتوس).

– تمتم «شاسانى» مغتاظًا : ها هو ذا فاسق جميل .

كان الجمهور فاترًا ، سواء كان قد سَئِمَ أخيرًا من الأخلاق الرفيعة، أو أن «جاميلان» قد انتصر بسهولة بالغة على العواطفَ الطبيعية.

قال الرئيس : أيها المواطن «جاميــلان»، طبقًا لأحكام القانون، أَىُّ تَنَحٍّ يجب أن يُصــاغَ كتــابــةً فى غضــون أربعٍ وعشرين ســاعــة قبل افتتــاح

المناقشات. وعليه، فلا وقت لكَ لتتنحى : أى مُحلِّف وطنى هو فوق العواطف .

كل منهم تم استجوابه لمدة ثلاث أو أربع دقائق. وانتهى التحقيق بحكم الإعدام للجميع، صَوَّت عليه المحلفون بكلمة، أو بإيماءة من الرأس، أو بالهتاف.

وعندما جاء دور «جاميلان» ليبدى رأيه ، قال :

– المتهمون جميعهم مقتنعون، والقانون صريح .

وبينما كان ينزل على سلم القصر اعترضه شاب يرتدى «ريدينجوت» أخضرَ اللون، ويبدو فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وكان يرتدى قبعة مستديرة، ساقطة إلى الخلف قليلا، وحوافها تبدو على رأسه الجميل الشاحب كأنها إكليل أسود .

كان منتصبًا أمام المحلف، وصاح فى وجهه بحدَّة من الغضب واليأس:

– فاجر ! متوحش ! قاتل ! اضربنى أيها الجبان ! أنا سيدة! اقبض علىَّ، اعدمنى بالمقصلة، أنا أختك يا «قابيل» !

وبصقت «جولى» على وجهه.

الجمع الغفير من الحائكات واللامتسرولين فترت يقظتهم الثورية، وخمدت حَمِيَّتَهم الوطنية، لم يوجد حول «جاميلان» الذى اعتُدى عليه إلا بعض التصرفات المشوشة وغير المؤكدة .

اخترقت «جولى » التجمع، واختفت مع الشفق .

كَـان «إيفـاريسـت جـاميـلان» يشعـر بملـل شـديد ولا يهنأ له بال ، عشرون مرة فى الليل كان يستيقظ مـذعورًا، بسبب الكوابيس التى كانت تؤَرِّق نومه، كان فقط فى الغرفة الزرقاء بين ذراعى «إيلودى» يستطيع أن ينام بضع سـاعـات. كان يتحـدث ويصيح وهو نائم ، وكـان يوقظهـا، ولكنها لم تكن تفهم كلماته.

وذات صبـاح، بعـد نوم ليلة، حيث رأى «الأيمـونيـد»(١)، فـاستيقظ مُحَطَّمًا من الخوف، وضعيفًـا كـالطفل. بزغ الفجـر، واخترقـت سـهـام أشعته ستائر الغرفة .

كـان شعر «إيفـاريست» ينسـدل على جبهته، ويغطـى عينيه بغـلالة سوداء . «إيلودى» تجلس فى مقدمة السرير، وتبعد برِقَّة خصلات شعره. كانت تنظر إليـه، هذه المرة بحنان الأخت، وبمنديلها كـانت تجفف العرق البارد المتساقط على جبهة المسكين.

عندئـذ تـذكـر المشـهـد الجميل فى مسرحيـة «أوريسـت» التى كتبهـا «يوريبيـد» والذى رسم منها لـوحة، وإذا استطاع أن يُنجـزها فستُعتبر عمله الفنى الكبير، وهو المشـهد حيث كانت البائسة «إليكترا» تجفف الزَّبَد الذى يُلَوِّث فم أخيها .

وكان يعتقد أيضًـا أنه يسمـع صوت « إيلودى » تقول :

---

(١) الأيمونيد ، أو الأنيميد : المتسـامحات ، وهى قصـة إغريقيـة قديمة ، وموضوعها فرار « أُوريست » بعد قتل أُمِّه ، ثم استغفاره وعفو الآلهة عنه ، وبراءته أمام المحكمة – كما جاء فى الأساطير .

– « اسمعنى يا أخى العزيز، عندما كانت الجِنِّيَّات تُيَسِّرْن لكَ أن تكون حر نفسك ...».

وكان يفكر ، ويقول فى نفسه :

– « ومع ذلك فلم أكن قط قاتِلَ أُمِّى ، بل بالعكس، – وذلك عن بِرٍّ بنوىٍّ – أرقتُ الدماء النجسة لأعداء وطنى ».

* **

لم ينته الأمر بالنسبة إلى مؤامرة السجون . تسعة وأربعون متهمًا يملئون المقاعد داخل المدرج. كان «موريس بروتو» يشغل أعلى درجة على اليمين، مقعد الشرف. وكان يرتدى «الريدينجوت» الأحمر الذى يميل إلى السواد، والذى نظفه جيدًا بالفرشاة فى اليوم السابق، مُرَتِّقًا من ناحية الجيب الذى تسبب كتاب «لوكريس» فى تلفه .

وإلى جانبه السيدة «روشيمور» مُتَزينة مُتَجملة، باهرة مُخِيفة. وكان يجلس بينها وبين الفتاة «أثينابيس» الأب «لونجيمار»، والذى كان يجد فى سجن النساء نضارة الشباب .

وعلى مقاعد المدرج قامت شرطة الدرك بتكدس أناس لا يعرفونهم هؤلاء، وربما لا يعرف بعضهم بعضًا. الجميع من المتواطئين، من البرلمانيين، وعمال اليومية، والنبلاء السابقين، وبورجوازيين وبورجوازيات.

المواطنة «روشيمور» لمحت «جاميلان» على مقعد المحلفين، بالرغم من

أنه لم يكن يرد على رسائلهـا العاجلة ورســائلها المتكررة، تعشمت فى أن يُرسل إليهـا نظرة، راجية أن تكون بالنسبــة إليه جميلة ومـؤثرة، ولكن نظرة القاضى الشاب الباردة قد حرمتها من أى وهم .

قــرأ كاتب الجلســة قــرار الاتهام الذى كان مُختصرًا بالنسبــة إلى كل متهم، ولكنه كان طويلا بسبب عددهم. كان يستعرض المؤامرة بإسهاب، والتى كانت مُـدَبَّرة فى السجون لإراقة دمـاء ممثلى الأمة وشعب باريس، وإغراق الجمهورية بها، والذى يُحَدِّد مصير كل واحد منهم :

– من أكبر المفســدين الذين قامـوا بهذه الدسيسة الكريهة هو المدعـو «بروتو»، أحد أفراد الديزيليـت السابقين، والذى كان مُحصلَ ضرائب فى عهد الطاغية. هذا الشخص الذى عُرِفَ بوضوح – خاصة فى عهد الطُّغيان – بسلوكه المنحل، دليل مؤكد على أن الفجور والعاداتِ السيئة هى من ألد أعداء الحرية وسعادة الشعوب، وفى الواقع أن هذا الشخص ، بعد أن بَدَّد الأموال العـامة، وأنفق جـزءًا كبيرًا من قوت الشعب على المجـون،اجتمع بمحظيتــه السابقــة السيـدة «روشيمـور» ليُراسِلَا المهـاجـرين ويُخْبِرَا الأجانبَ فى الخارج بحالتنا المالية، وتحركات جيوشنا، وتقلبات الرأى .

« إن «بروتو» الـذى كــان يعيش فى هذا الـدور لهو شخص يستحق الازدراء ، فقـد كـان يعيش مع زوجة غير شرعيــة، عــاهرة، التقطهـا من الوحل من شارع «فرومانتــو» – الفتاة «أثينابيس» – واستغلها بسهولة للتــآمـر ضــد الثورة بصرخـات سفيهــة، وتحريضـات وقحـة. وبعض أحــاديث هذا الرجل المشئوم، ســوف توضح لكم هـذه الأفكار الدنيئة

وهدفها الفاسد، فهو عندما كان يتحدث عن المحكمة الوطنية المعقودة اليوم لمعاقبته كان يقول بوقاحة: محكمة الثورة تشبه مسرحية من مسرحيات وليم شكسبير، الذى يضيف إلى المشاهد الدامية مشاهد هزلية مُبتذلة ».

وكان دائمًا يمتدح الإلحاد كأضمن وسيلة تذل الشعب، وتلقى به فى أحضان الفسق.

وفى سجن البوابة الرئيسية حيث كان مُحتَجزًا كان يرثى لحال الانتصارات العظيمة لجيوشنا كما يرثى لأسوإِ الكوارث، ويجتهد فى إلقاء الشك حول أكثر قادتنا وطنية، بأن ينسب إليهم أهدافَ خنق الحريات . وقد قال بلهجة قاسية :

اسمعوا تلك الكلمة القاسية، والتى يتردد القلم فى أن ينسخها : «انتظروا حتى يأتى يوم يبتلعكم فيه أحد هؤلاء الذين يحملون السيوف لحمايتكم، سوف يبتلعكم مثلما يبتلع طائر الكُرْكى «الضفادع» كما جاء فى الأسطورة ».

واستمر قرار الاتهام فى السرد هكذا :

«إن السيدة «روشيمور» النبيلة السابقة، زوجة غير شرعية لبروتو، وليست أقل منه إثمًا، وليست فقط لأنها كانت تتراسل مع الخارج، وكانت أجيرة لبيت نفسه، ولكن لأنها منضمة إلى رجال مرتشين، مثل «جوليان» (من تولوز) و «شابو»، وكانت أيضًا لها علاقات مع البارون

السابق «دى باتز»، فقد كانت تدبر مع هذا الفاجر شتى وسائل التدليس، ويعملان معًا على خفض قيمة أسهم شركة الهند، يشتريانها بأبخس الأسعار، ثم يرفعان أسعارها بوسائل تدليسية تتعارض مع الأولى، وبهذا تتبدد الثروة الخاصة والثروة العامة .

وسُجِنَت فى سجن «بورت – ليبر»[1]، وفى سجن النساء واستسلمت لمحاولات رشوة حيال القضاة والمحلفين .

«لويس لونجيمار» نبيل سابق، و «كابوشينى» سابق، ومنذ زمن طويل له تجارب فى الأعمال المُشينة وفى الجريمة قبل أن يرتكب أعمال الخيانة، وهو موجود هنا ليُجيب عليها. وعاش فى مخالطة مُخْجِلة مع الفتاة « جورسى » – وهى المُسماة « أُثينابيس » – تحت سقف واحد ، ومعهم «بروتو»، فهو شريك هذه الفتاة وهذا النبيل السابق.

وطوال مدة حبسه فى البوابة الرئيسية لم يتوقف يومًا واحدًا عن كتابة أهَاجٍ عدائية للحرية وللسلام العام، ومن الصواب القول – بصدد «مارت جورس» المدعوة «أثينابيس»: إن العاهرات هن أعظم خطرًا على التقاليد العامة، حيث يُسِئْنَ لهذه التقاليد، وهن شَيْنٌ وسُبَّة للمجتمع الذى يفضحنه . ولكن ما الفائدة من الاسترسال فى جرائم كريهة اعترفت بها المتهمة دون حياء ؟...».

وانتقل الاتهام بعد ذلك بعرض الخمسة والأربعين متهمًا الآخرين،

(١) كان يطلق عليه (بورت – رويال) سابقًا .

الذين لا يعرفهم «بروتو»، ولا الأب «لونجيمار»، ولا المواطنة «روشيمور»، إن لم يكونوا قد رأوا الكثيرين منهم فى السجون، والذين كانوا مشمولين مع الأوائل فى «هذه الدسيسة الدنيئة التى لم تتحدث حوليات الشعوب عن مثيلتها ».

وينتهى الاتهام بالحكم بالإعدام لجميع الآثمين.

كان «بروتو» هو أول من تم استجوابه :

– هل تآمرت ؟

● كَلَّا، لم أتآمر ، كل ما ورد فى قرار الاتهام الذى استمعت إليه الآن خطأ .

– هكذا ، إنك تتآمر الآن أيضًا على المحكمة .

ثم انتقل الرئيس بعد ذلك إلى السيدة «روشيمور» التى أجابت باعتراضات يائسة، وبدموعٍ وجدلٍ فارغ .

أمَّا الأب «لونجيمار» فقد سلَّم أمره لله، ولم يكن معه حتى الدفاع المكتوب. وأجاب على الأسئلة التى وُجِّهت إليه بروح الزاهد، ومع ذلك عندما سماه الرئيس «كابوشينى» احتد الرجل العجوز وقال له :

– أنا لست «كابوشينى»، أنا راهب من المذهب «البارنابى» .

أجاب الرئيس بلهجة طيبة :

– ليس هناك فرق .

نظر إليه الأب «لونجيمار» مُتَبَرِّمًا .

– لا يمكن إدراك خطأٍ غـــريب، بــأن نخلط بيين «كــــابوشينى» وبين راهب من المذهب البارنابى الذى يستمد دساتيره من المُبَشِّر « سان بول » نفسه.

وانفجرت ضحكات وهمهمة بين الجمهور.

واعتبر الأب «لونجيمار» هذه السخـــرية عـلامـــات إنكار، وأعلن أنه سوف يموت عضوًا لهذا المذهب، مذهب «سان بارنابيه»، والذى ينطبع فى قلبه.

سأله الرئيـس : أتعترف بأنك تآمـرت مع الفتـــاة «أثينايبيس» والتى وهبتك علاقات حب حقيرة ؟

عندمـــا سمع الأب «لـونجيمار» هذا الســـؤال رفع بصره إلى السماء بنظرة مـؤلمة، وأجاب بهدوء يُعبر عن دهشـــة روح بريئة، ووقـار راهب يخشى أن يتفوه بكلمات تافهة.

ويسأل الرئيـس الفتـاة «جـــورسى» : أتعترفين بـأنكِ تآمـــرت مع «بروتو» ؟

أجابت بلطف :

« السيد «بروتو» – على مـا أعلم – لم يصنع إلَّا الخير، إنه رجل يجب أن يحذو حُذوه الكثيرون، ولا يوجد مَنْ هو أفضل منه، ومن يقول عكس ذلك فهو مخطىء، وهذا كل ما عندى لأقوله.

وسألها الرئيس عَمَّا إذا كـــانت تعترف بأنها عـاشـــت مع «بروتو» فى

علاقـة غير شرعية، وكـان لابد من تفسـير هذا المصطلح لها، حيث إنها لم تسمعه من قبل، ولكنهـا بمجرد أن فهمت ما الذى يرمى إليه أجـابته بأن الأمر لا يتوقف إلا عليه، ولكنه لم يطلب ذلك منها .

ضحك كل من فى المنصـات، وهدَّد الرئيس الفتـاة «جـورسى» بأنه سوف يأمـر بإخراجها من الجلسـة إذا أجابت مـرة أخرى بأى نوع من أنواع التهكم .

حينئذ وصفتـه بأنه صرصـور شـاحب الوجـه، وزوج مخدوع، ثم أمطرته هو والقضـاة والمحلِّفين بسيل من أقذر الشتـائم، حتى أن شرطة الدرك قاموا بإخراجها من القاعة.

ثم استجـوب الرئيـس بعـد ذلك بقيـة المتهمين، بالنظام الـذى كـانوا جالسين به على مقاعد المدرج. وأجاب أحد المتهمين ويسمى «نافيت» بأنه ما كـان فى وسعه أن يتـآمر فى سجن، نظرًا لأنـه لم يُقم فيه سـوى أربعة أيام. وأخـذ الرئيس فى الاعتبـار هذه الملاحظة، وطلـب من المواطنين المحلِّفين أن يأخذوها هم أيضًا فى اعتبارهم .

وآخـر يسمى «بيلييـه» أجـاب نفس الإجـابـة، ووجـه الرئيس نفس الملحـوظة لصالحه إلى هيئة المحلفين. وفُسرت شهـامة القـاضى على أنها نتيجة لعدل يستحق المديح، أو كجزاء واجب على النميمة. وجاء الدور على نائب المدعى العام ليتحدث :

– هل من الثابت أن «موريس بروتو»، و «لويز روشيمور»، و «لويس لونجيمار»، و «مـارت جـورس» وشهـرتها «أثينـاييس»، و «أوزيب

روشيه»، و «بليز جيتون فابيليه»، و «مارسيللين دى كورتيس»، إلخ.. قد دبروا دسيسة وسائلها الاغتيال، والمجاعة، وتزييف الحوالات الحكومية، وصُنع نقود مزيفة، وإفساد الأخلاق والفكر العام، وإثارة السجون، بهدف الحرب الأهلية، وتفكيك الإنابة العامة، وإعادة المَلَكية ؟

وانسحب المحلفون إلى غرفة المداولات، وأجمعوا على تأكيد كل ما يخص جميع المتهمين، باستثناء كُلٍّ من «نافيت» و «بيلييه» اللَّذَيْنِ اعتبرهما الرئيسُ ثم المدعى العام خارجَ القضية.

وأصدر « جاميلان » قرار الاتهام بهذه الديباجة :

– إن الجُرْمَ الذى ارتكبه المتهمون أمر جَلِىٌّ وأوضحُ من النهار، وتقتضى سلامة الأُمَّة عقابهم، ويجب عليهم أن يتمنوا مَوْت أنفسهم، أو عذابهم كوسيلة وحيدة للتكفير عن جرائمهم.

وينطق الرئيس بالحُكم فى غياب الذين يخصهم. وفى هذه الأيام العظيمة – على عكس ما يتطلبه القانون – لا يُنادَى على المتهمين ليُقرَأ عليهم الحُكم، وذلك لأنه كان يُخْشَى بأس عدد كبير جدًّا من الأشخاص.

خوف لا جدوى منه، طالما أن انقياد الضحايا كان حينئذ عظيمًا وعامًّا! نزل كاتب المحكمة ليقرأ قرار الاتهام الذى سُمِعَ فى هذا الهدوء والصمت اللذين يجعلان من المتهمين – متهمى شهر بريريال – كأشجار حان قطعها .

المواطنة «روشيمور» صَرَّحَتْ بأنها حامل. وكُلِّفَ أحد الجراحين –

وهو نفس الوقت مُحَلِّف – بالكشف عليها. ونُقلت إلى زنزانتها. وتتهد الأب «لونجيمار» وقال :

– آه ! هؤلاء القضاة، حقًّا هم رجال جديرون بالشفقة، وحالتهم النفسية يُرْثَى لها. إنهم يخلطون كل شيء، ويخلطون بين البرنابيين والفرنسيسكان .

وكان حُكم الإعدام يجب أن ينفّذ فى نفس اليوم عند «لاباريير دى لاترون – رانفيرسيه». تم الإعداد لتنفيذ حكم الإعدام، قُضيت الحاجة، وقُوِّرَ القميص، وقُصَّ الشَعْر، وكان المحكوم عليهم فى انتظار الجلاد، يقبع كالبهيمة فى القاعة الصغيرة، ويفصله عن غرفة قلم الكُتَّاب حاجز زجاجى .

عند وصول الجلاد ومساعديه كان «بروتو» يقرأ «لوكريس» فى هدوء، فوضع علامة على الصفحة التى بدأها، وأغلق الكتاب، ووضعه فى جيب «الريدينجوت» وقال للراهب «البارنابيتى» :

– أبى المبجل ، هذا ما كنت أخشاه، ذلك ما لم أستطع أن أقنعك به. سوف ننام (نحن الاثنان) نومتنا الأخيرة، ولن أستطيع أن أسحبك من كمك وأوقظك لأقول لك :

«أرأيت ؟ ليس عندك لا شعور ولا معرفة، فأنت فاقد الحياة. إن ما يَعْقُبُ الحياة مثل ما يسبقها ».

أراد أن يبتسم، ولكنَّ أَلَمًا قاسِيًّا استولى على قلبه وأحشائه، وأصبح أقرب إلى أن تخور قواه. ومع ذلك فقد استطرد قائلًا :

– أبى، سترى ضعفى بسهولة، إننى أحب الحياة ولن أتركها أبدًا بلا ندم.

أجاب الراهب بلطف : احترس، فأنت أشجع منى، ومع ذلك فالموت يزيد من اضطرابك. ماذا يعنى ذلك؟ إنْ لم أكن أرى الضوء فأنت لن تراه مرة أخرى !

قال « برونو » :

– هذا احتمال قائم أيضًا ، فأنا أندم على الحياة لأننى تمتعتُ بها أفضل منك أنت الذى يساويها بالموت !

قال الأب «لونجيمار» وهو شاحب : هذه الساعة خطيرة، فليساعدنى الله ! من المؤكد أننا سوف نموت بدون إغاثة. كان يجب علىَّ ألَّا أتلقى سِرَّ القربان بفتور، وبقلب كَنُودٍ[1]، حتى تضنَّ السماءُ علىَّ فى اليوم الذى أحتاج إليها فيه. إننى فى حاجة مُلحّة إليها .

كانت العربات تنتظر، وتُكدس فيها المُدانون وأيديهم مُقيدة. وتُرفَع السيدة «روشيمور» – والتى لم يعرف الجَرَّاح حَمْلَها – على إحدى العجلات المزدوجة. كانت عندها بقية من جهد لتراقب الجمع الغفير من المتفرجين، وتتعشم حيث لا ينفع العشم، عسى أن تجد من بينهم منقذين، وكانت عيناها تتضرعان .

كان الحشد أقل عن ذى قبل ، والتصرفات الفكرية أقل عنفًا، فقط

---

(١) الكنود : العاصى ، والجاحد للنعمة .

بعض النسوة يهتفن : «إلى الموت!»، أو يَسْخَرْنَ من المُساقين إلى الموت.
والرجال يرفعون أكتافهم ، ويلفتون رءوسهم وهم صامتون، سواء عن خوف أو عن احترام للقوانين.

وسرت رعشة بين الجماهير عندما مرت «أثينابيس» أمام الشباك، فكان لها مظهر طفلة .

انحنت أمام الراهب، وقالت :

– سيدى الراهب ، امنحنى المغفرة .

تمتم الأب «لونجيمار» فى وقار شديد بالحديث السرى ، وقال :

– أى بُنيتى ! لقد هَوَيْتِ فى قلاقل عظيمة، ولكن ليس فى وسعى أن أُقَدِّمَ إلى الله قلبًا أصفى من قلبك !

وصعدت – فى خفة – إلى عربة المحكوم عليهم، وهنالك ينتصب نصفها الأعلى ورأسها الطفولى أيضًا فى كبرياء ، وصاحت :

– عاش الملك !

وأشارت إلى «بروتو» إشارة خفيفة بأنه يوجد مكان إلى جوارها.
وأعان «بروتو» الراهب البارنابى على الصعود، واتخذ مقعده بين الراهب وبين الفتاة البريئة.

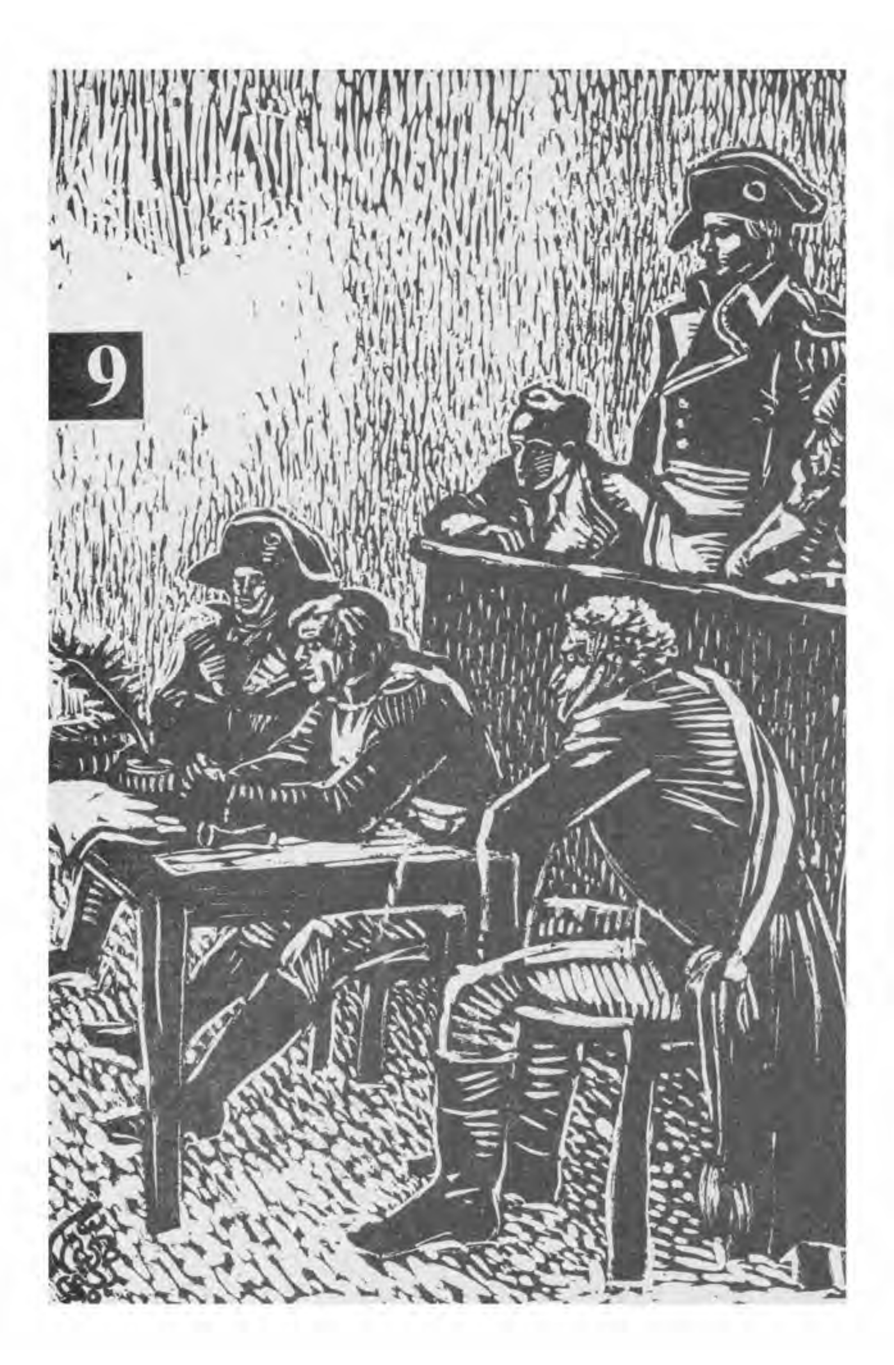
وقال الأب «لونجيمار» للفيلسوف الأبيقورى :

– سوف أطلب منك جميلًا : هذا الرب الذى لم تؤمن به بعد ، صَلِّ له

من أجلى، فليس هناك مـا يؤكـد أنك لست قـريبًا منه أكثـر مما كنتُـه أنا نفسى .. يمكن اتخاذ القرار فى لحظة من أجل أن تصبح الطفل المتميز عند الله، ولا يحتاج ذلك إلَّا إلى لحظة.. سيدى ، صَلِّ من أجلى .

وبينما كانت عجـلات العربة تركض على بلاط الضاحيـة كان الراهب يقرأ من قلبه وبشفتيه دعوات وصلوات المحتضرين عن ظهر قلب .

وكان « بروتو » يتذكر شعر الشـاعر عن الطبيعة : « يحدث هذا عندما لا نكون...». الكل مقيـد ويهتز فى العـربة الشـائنة ، كان يحتفظ بمظهـر هادىء كأحـد هموم رفـاهيتـه. وإلى جـانبـه «أثينايبيس» فخـورة بأنها ستموت مثل ملكـة فرنسا، وتنظر إلى هذا الجمع نظـرة استعلاء ، ورجل الأعمال العجـوز يتأمل - كخبير - عُـرقوب السيـدة الصغيرة الأبيض ، ويندم على ضوء النهار .


9

9

بينما كانت عرباتُ المحكوم عليهم تسير نحو ميدان «لاترون – رانفيرسيه» – يحيط بها شرطة الدرك – وتصطحب إلى الموت كُلًّا من «بروتو» والمتواطئين معه، كان «إيفاريست» جالسًا على أحد المقاعد فى حديقة «التويليرى»، كان ينتظر «إيلودى». كانت الشمس تنحدر نحو الأفق، وتُغرق بسهامها المشتعلة أجمة القسطل .

وعند سور الحديقة ، تمثال الإلٰهة «رنومه»[١] وهى على حصانها المُجَنَّح تنفخ فى بوقها الأزلى. وبائعو الجرائد يصيحون : نصر «فلوروس»[٢] العظيم .

نعم ، صَدَق « جاميلان » : « النصر لنا ، ونحن دفعنا ثمنه » .

كان يُشاهد القادة الأشرار يَجُرُّون ظلالهم مذمومين فى التراب الدامى لهذا الميدان، ميدان «لاريفوليسيون»، حيث هلكوا. وابتسم بفخر، ظانًّا

---

(١) آلهة رمزية كما جاء فى الأساطير .

(٢) فلوروس : من مدن بلجيكا ، انتصر فيها جوردان على النمسويين سنة ١٧٩٤ .

أنه دون القسوة التى كان له فيها نصيب لَقَضمت الخيول النمساوية اليوم قشرة هذه الأشجار.

وكان يصيح فى داخله :

«أيها الْهَوْلِ الشافى ، أيها الإرهاب المقدس ! فى العام الماضى فى عصر مشابه، كان عندنا مدافعون عن أبطال مهزومين كالأسمال؛ أرض الوطن كانت تحت الغزو، وثُلثا الأقاليم فى ثورة. والآن، جيوشنا جيدة التجهيز، جيدة التثقيف، يقودها قادة مهرة، يُبادرون بالهجوم، وعلى أتم استعداد لإحراز الحرية للناس.

ساد السلام جميع الأراضى بالجمهورية.... أيها الهول الشافى ! أيها الإرهاب المقدس ! أيتها المقصلة المحبوبة ! العام الماضى – فى وقت مُشابه – كانت الجمهورية مُمزقة بالأحزاب، وأُفعوان الفيدرالية يُهدد بالتهامها، والآن الوحدة اليعقوبية تبسط على الإمبراطورية قوتها وحكمتها ...».

ومع هذه الحالة فقد كان مُغتمًّا، وظهرت تجعيدة عميقة على جبهته، كان يشعر بمرارة فمه، كان يفكر :«كنا نقول : النصر أو الموت ، كنا مُخطئين، لأنه كان يجب أن نقول : النصر والموت ».

أخذ «جاميلان» ينظر حوله. الأطفال كانوا يعملون أكوامًا من الرمل. والمواطنات جالسات على مقاعدهن الخشبية تحت الشجر، يُطرزْنَ أو يُحيكْن. والمارَّة كانوا يرتدون سراويلَ بأناقة غريبة، يُفكرون فى أعمالهم أو فى مَسَرَّاتهم، وهم عائدون إلى مقارِّ إقامتهم .

كان « جاميلان » يشعـر بأنه وحيدٌ بينهم ، فهو ليس من مواطنيهم ، ولا من مُعاصريهم . إذن ماذا كـان يجرى ؟ كيف - بعد حماس السنوات الجميلة - تتعاقب اللامبـالاة والإرهاق ، وربما الاشمئزاز ؟ من الواضـح أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يسمعوا شيئًا عن محكمـة الثورة، وأداروا ظهورهم للمقصلة ، وقـد أصبحت مزعجـة فى ميدان «لاريفـوليسيون»، فنُقلت إلى ضـاحية «أنطوان».

ويتكرر نفس الوضـع عند مرور العـربات، ونفس التمتمة، ويُقال : إن بعض الأصوات تصيح قـائلة : «كَفَى !»، كفى ، عندما يكـون هناك مزيد من الخونة والمتـآمـــرين ! كَفَى ، عندمــا يكون لابـد من تجديد اللجــان، وتصفيـة الجمعيـة الوطنية ! كفـــى ، عندما يُـدَنِّس الفاسقـون السمعـة الوطنية ! كفى ، عندمــا نتأمل فقدان العدل فى المحكمة الثـورية ! لأنه أمر رهيب أن نفكر فيـه، وإفراط حقيقــى ! «فوكييــه» نفســه دبَّر مؤامــرات، وكــان ذلك من أجل تدمير «مــاكسميليــان» الذى ضـحى من أجله ببــذخ، بسبع وخمسين ضـحيــة سِيقُــوا إلى الموت بالقميص الأحمر، قميص قتلة آبائهم .

إلى أى شفقة إجرامية كانت تستسلم فرنسا ؟ إذن يجب إنقاذها رغمًا عنهــا، وإذا صــاحت بطلب العفـــو تُصم الآذان وتُضرب . يا للأسف ! إن المصـائر قضت بهذا : « الوطن يَلْعَنُ مُنقذيه ، فَلْيَلْعَنَّا ، وَلْيُنْقَذْ هو ! ».

« من النادر التضـحية بضـحــايا مغمورين، وأرستقــراطيين، وماليين، وصـحفيين، وشـعراء، أو يُقضـى على رجال مثل «لافوازييه»، و «روشيه»،

و «أندريه شينييـــــه».. يجب ضرب هؤلاء الفَجَـــــرة من ذوى السطوة.. وهؤلاء أيديهم ممتلئة ذهبًا، وملوثة بالدماء، كانوا يعدُّون العُدّة لتخريب «لامونتــانى» وعائلات «فـوشيه»، و «تاليان»، و «روفير»، و «كــاربيه»، و«بوردون».

لابد مــن تخليص الدولــة من هؤلاء الأعـــــداء . ولو انتصر «هيبير» لانقلبت الجمعية الوطنية، ولاندفعت الجمهورية نحو الهلاك، ولو انتصر كل من «دانتون» و «ديمولان» لسَلّمت الجمعية الوطنية – دون امتيازات – الجمهورية إلى الأرستقراطيين، وإلى المضاربين بالأسهم، وإلى القادة .

وإذا كان «تــاليان» أو «فـوشيه» وغيرهما وحوشًــا متعطشة للـدماء والسلب والنهب أو أفلحوا لغرقت فرنسا فى الجريمــة والرذيلــة ... أنــت يا «روبسبير» نائم، وهناك مجرمون سكارى من الفزع والرعب يفكرون فى موتك، ودفن الحرية.

يا «كـــوثـــون» ، ويا «ســـان جــوست»، كم تــوانيتما فى الإبلاغ عن المؤامرات.

«ماذا ! الدولة القديمــة، الوحش الملكى يُؤَمِّن إمبراطوريته بأن يُلقى فى السـجن فى كل عــام أربعمائة ألف رجـل، ويشنق منهم خمسة عشر ألفًــا، ويُعــذب منهم ثلاثة آلاف، وعلى الجمهـورية كـذلك أن تُضَحى ببضعــة مئات من الرءوس لأمنها، وسلطتها !

فلنغرق فى الدماء، ولننُقذ الوطن ...»..

وبينما كان سابحًا هكذا فى تخيلاته ، إذا بإيلودى تجرى نحوه شاحبة ومنهوكة :

– «إيفاريست»، ماذا عندك لتقوله لى ؟ لماذا لم تأتِ إلى «لامورباننتر» فى الغرفة الزرقاء ؟ لماذا طلبت منى الحضور هنا ؟

● لأودعكِ الوداع الأخير .

فتمتمت بأنه ليس فى وعيه ، ولا تستطيع أن تفهم ...

أوقفها بحركة صغيرة من يده ، وقال :

– « إيلودى »، لا أستطيع أبدًا أن أقبل حبك .

● صَهْ يا « إيفاريست » ، اسكت !

وطلبت أن يذهبا بعيدًا ، فهنا الناس يراقبونهما ويسمعونهما . سارا حوالى عشرين خطوة ، ثم استطرد بهدوء شديد :

– لقد ضحيت للوطن بحياتى ، وبشرفى ، وسوف أموت دنيئًا ، ولن أترك لكِ أيتها البائسة سوى ذكرى كريهة ....

أيحبوننى ؟ هل يمكن أن يحبنى امرء بعد ذلك ؟... وهل أستطيع أن أُحَبّ ؟

وتقول له إنه مجنون ، وإنها تحبه، وستحبه دائمًا ، وإنها أصبحت محتدمة مخلصة، ولكنها كانت تشعر بأنها مثله على ما يرام، وتشعر أكثر منه ، بأنه على حق فيما يقول ، وأنها كانت تصارع الحقيقة .

واستطرد :

– أنا لا ألوم نفسى على شىء ، ما فعلته سأفعله ثانية. لقد جعلتُ من نفسى لعنة من أجل وطنى، إننى ملعون. لقد أقصيتُ نفسى عن الإنسانية، ولن أعود إليها أبدًا . لا ! المهمة الكبرى لم تنته . آه ! الغُفران ، السماح !..... هل الخونة يُسامحون ؟ المتآمرون، هل هم من الغافرين؟ الفاسقون قتلة الآباء يتزايدون بلا توقف، وهم يخرجون مِن تحت الأرض، ومنهم مَن يهرع من كل حدودنا، ومنهم شباب، من أفضل ما هلكوا فى جيوشنا، وشيوخ، وأطفال، ونساء بأقنعة البراءة والطهارة والعفو. وعندما راحوا ضحية لم يوجد مثلهم . ترين جيدًا أننى لابد أن أَعْدِل عن الحب، وعن كل بهجة، وعن كل ملذات الحياة، بل عن الحياة نفسها.

كانت «إيلودى» معتادة على تذوق اللَّذات الهادئة منذ أكثر من يوم ، وكانت تخشى أن تمزج – تحت تأثير قبلات عاشق محزون إلى الإحساسات الشهوانية – صورًا دامية، فلم تُجِبْ عن شىء قط، و«إيفاريست» ارتشف صمت السيدة الصغيرة كأنه كأس مُر المذاق .

– أنتِ تدركين ذلك جيدًا يا «إيلودى»، نحن أهلكنا أنفسنا، عَمَلُنا يلتهمنا، أيامنا وساعاتنا عبارة عن سنين. أخالنى عشت قرنًا من الزمان . انظرى إلى هذه الجبهة .. هل هى جبهة حبيب يحب ؟!....

● «إيفاريست»، أنتَ أسيرى، سأحتفظ بكَ، لن أرد لك حريتك .

كانت تعبر عن نفسها بلهجة الضحية. أَحَسَّ بها ، وهى نفسها تشعر به .

- «إيلودى»، هل فى إمكانكِ أن تشهدى - ذات يوم - بأنى عشتُ مخلصًا لواجبى، وأن قلبى كان مستقيمًا، ونفسى طاهرة، وأنى لا أملك أى عاطفة أخرى سوى الخير العام، وأننى وُلدت حساسًا وحنونًا؟ ستقولين : «لقد أدى واجبه»؟ بل لا لن تقوليه . ولن أطلب منك أن تقولى ذلك .

فلتُدَمِّرى ذكراىَ ! إن مجدى فى قلبى، والخجل يحيط بى .

إنْ أحْبَبْتِنِى فاحتفظى باسمى فى صمت أزلىّ .

وفى هذا الوقت كان هناك طفل فى الثامنة أو التاسعة من عمره يلعب بطوق، وارتمى فى هذه اللحظة بين ساقى «جاميلان»، فرفعه بين ذراعيه وقال :

- أيها الطفل الصغير، ستكبر وتترعرع حرًّا ، سعيدًا، وستدين بذلك إلى الحقير «جاميلان». إنى كنت كاسرًا من أجل أن تكون سعيدًا ، وكنتُ قاسيًا من أجل أن تكون أنت طيبًا، وكُنتُ بلا شفقة ولا رحمة من أجل أن يأتى غدٌ يتعانق فيه الفرنسيون ويذرفون دموع الفرح .

وضمه إلى صدره وهو يقول له :

- أيها الصغير ، عندما تصبح رجلًا ستدين لى بسعادتك وبراءتك، وإن سمعت اسمى دومًا فسوف تمقته. ثم أَنْزَلَ الطفل على الأرض،

فانطلق ليحتمى بتنورة أمه التى هرعت إليه لتخلصه. هذه الأم الصغيرة، كانت جميلة، ولها رقة أرستقراطية بثوبها الأبيض، فاصطحبت طفلها وتظاهرت بالاستعلاء .

رمق « جاميلان » « إيلودى » بنظرة شرسة وقال :

– لقد قَبِلْتُ هذا الطفل، وربما آمُرُ غدًا بإعدام أُمه بالمقصلة . وابتعد بخطى سريعة .

ظلت «إيلودى» بلا حراكٍ لبعض الوقت، نظراتها ثابتة ومسبلة، ثم اندفعت فجأةً تتبع خطى عشيقها، غاضبةً، صاخبةً، كأنها إحدى كاهنات باكوس (إلٰه الخمر)، أمسكت به كأنها تريد تمزيقه، وصاحت بصوت خافت مختنق بالدم والدموع :

– حسنًا ! أنا أيضًا يا حبيبى، أرسِلْنِى إلى المقصلة، أنا أيضًا، مُرْ بفصل رأسى عن جسدى !

وعند تمثُّلها فكرة السكين على رقبتها، اهتز كيانها رهبة وشهوة .

***

بينما كانت شمس شهر ثيرميدور[1] تغرب فى لون أرجوانى دامٍ كان «إيفاريست» شاردًا، مغتمًّا ومهمومًا، يطوف فى حدائق «ماربوف» التى أصبحت مِلْكية وطنية، ويرتادها الفرنسيون فى أوقات فراغهم، وكان

---

(١) الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية .

يُتَنَاوَلُ فيها الليمونادة والمثلجات، وكانت توجد خيول خشبية، وأماكن للرماية من أجل الشباب الوطنى .

وكان تحت إحدى الأشجار أحد «السافوبارد»، ولَدٌ صغير يلبس ثوبًا رثًّا، ويرتدى على رأسه قبعة سوداء ، يُرقِّص يربوعًا (حيوان من القوارض)، على الأنغام الحادة لقيثارته .

وكان هناك شاب ما زال فى مقتبل العمر، رشيق، يرتدى زيًّا أزرق اللون، مُعفَّر الشعر، وبصحبته كلب كبير، توقف ليستمع إلى هذه الموسيقىَ الريفية .

«إيفاريست» تعرف على «روبسبير»، رآه شاحبًا، نحيفًا، ووجهه متصلبًا، تملؤه التجاعيد المؤلمة، فجال بخاطره :

« يا له من إعياء ! وكم من الآلام تركت بصماتها على جبهته ! كم هو شاق أن تعمل من أجل سعادة البشر ! فيم هو يفكر فى هذا الوقت ؟ نغمة الأرغول الريفية هل تلهى فكره عن هموم الأعمال؟ هل يفكر فى أنه تعاقد مع الموت، وأن الساعة قد قربت لتأخذه ؟ هل يتأمل فى أن يعود إلى لجنة الخلاص العام منتصرًا وقد انسحب منها متضجرًا من الفشل فيها مع «كوثون»، و «سان جوست»، بأغلبية عاصية؟ خلف هذا الوجه الغامض ما هى الآمال التى تضطرب ؟ أو ما هى المخاوف ؟».

ومع ذلك ، ابتسم «ماكسيمليان» للطفل ، وقال له بصوت رقيق، وبشهامة، بعض الأسئلة عن الوادى، والكوخ، وعن الأبوين اللذين

تركهما الصغير المسكين، ألقى إليـه بقطعة نقد فضيـة، وواصل نزهته، وبعد عدة خطوات، عاد ليناّدى على كلبه الذى عندما شم رائحة اليربوع ، كشَّر عن أنيابه أمام اليربوع الذى انتصب شعره :

– برونت ! برونت !

ثم اختفى فى الممرات المظلمة .

لم يقترب «جاميـلان» من المتنزه المنفرد احترامًا ، ولكنـه عندما تأمَّل هذه الهيئة الرقيقـة التى كـانت تتلاشـى فى جنـح الظلام، وجه إليهـا هذا الرثاء العقلى.

«لقد رأيتُ حـزنك يا ماكسيمليان»، وأدركـت فكرك، كآبتك وإرهاقك، وحتى هذا التعبير عن الخوف المطبـوع فى نظراتك».. «كل ما فيك يقـول : «فَلْيَنْتَـهِ الإرهاب، وليبـدأ الإخـاء ! أيها الفـرنسيـون ، كـونوا متحـدينِ وفاضلين وطيبين، وأحبوا بعضكم ...».

« إيه ، حسنًا ! ســوف أســاعــدك فى أهدافك، مــن أجل أن تستطيع بحكمتك وطيبتك، إنهاء الخلافـات الأهليـــة، وإطفـاء جـذوة الحقـد بين الإخـوة، وأن تجعل الجلَّاد بُسْتانيًـا لا يقطع إلَّا رءوس الكرنب والخس، وسوف أمهـد أنا وزملائى فى المحكمـة طرق الغفران، باستئصـال شأفة المتآمرين والخونة .

ســوف نضــاعف من اليقظة والقســوة، لن يفلت منا أى آثم، وعندمـا يسقط آخـــر رأس من رءوس أعـداء الجمهـوريـة تحت السكين ســوف

تستطيع أن تكون متسامحًا دون جريمة، وأن تعمل على سيادة البراءة والفضيلة على فرنسا، يا أبا الوطن !».

ابتعد النزيه ، ويلاقيه رجلان بقبعتين مستديرتين وسروال من «المانكان»، أحدهما مظهره شرس ، طويل ونحيف، له عين التنين، ويشبه «تاليان»، تلاقيا معه عند منعطف الممر، رمقاه بنظرة عابرة، وتظاهرا بأنهما لا يعرفانه، ومضيا فى طريقهما، وعندما أصبحا على مسافة بعيدة بحيث لا يسمعهما أحد، تمتما بصوت منخفض : إذن ها هو ذا، الملك، والبابا، والإله . و «كاترين تيون»[1] هى نبيته .

– ديكتاتور خائن ، طاغية ! وهو يأضًا من عائلة بروتس .

– ارتعد أيها الفاجر ! صخرة «طاربيان»[2] قريبة من «الكابيتول»[3].
الكلب برونت اقترب منهما ، فالتزما الصمت ، وحَثَّا الخُطَى .

* * *

أنت نائم يا «روبسبير» ! الساعة تمر والوقت الثمين ينساب ...

أخيرًا ، فى الثامن من «الثيرميدور»، فى الجمعية الوطنية، نهض النزيه ليتحدث. أَو تطلعين مَرَّةً أخرى يا شمس يوم ٣١ مايو ؟ «جاميلان» ينتظر ويتعشم. إذن «روبسبير» سوف ينتزع مقاعد يزدريها هؤلاء

---

(١) كاترين تيون : عَرَّافة فرنسية (ت ١٧٩٤) .
(٢) طاربيان : صخرة فى روما كان يُرْمَى المجرمون من فوقها .
(٣) الكابيتول : معبد وقلعة فى روما .

المشرعون المذنبون أكثر من الفيدراليين، وأكثر خطرًا من دانتون ... لا ! ليس بعد . قال : « لا أستطيع أن أقرر تمزيق الحجاب الذى يغطى هذا السر الخفى العميق للظلم، تمزيقًا كاملا » .

والصاعقة انتشرت دون أن تصيب أى أحد من المتآمرين، أخافتهم جميعًا، ونذكر منهم حوالى ستين - منذ خمسة عشر يومًا - لم يجرءوا على النوم فى فراشهم .

«مارات» عَيَّن الخونة، أمّا هو فكان يشير إليهم البنان. النزيه يتردد، ومنذئذ، هو المتهم....

وفى المساء، فى ردهة نادى، كانوا يتزاحمون فى القاعة، وفى الممرات، وفى الفناء. جميعهم هنا، الأصدقاء المرموقون، والأعداء الصامتون.قرأ عليهم «روبسبير» الحديث الذى استمعت إليه الجمعية الوطنية فى صمت رهيب، وصفق له اليعقوبيون تصفيقًا حادًّا .

قال الرجل : تلك هى وصيتى بعد مماتى، وسوف تشاهدوننى وأنا أشرب سم الشَّوْكران(١)، أشربه فى هدوء .

أجاب «دافيد» : أنا سأشربه معك .

- «الجميع ، الجميع» هكذا صاح اليعقوبيون الذين افترقوا دون أن يقولوا شيئًا .

وبينما كان موت العادل يُعَدُّ ، كان «إيفاريست» ينام نومًا كنوم الطلبة

---

(١) نوع من النباتات السامة، وبه قُتل سقراط .

فى حديقة الزيتون. وفى اليوم التالى، توجه إلى المحكمة حيث عُقدت الجلسة فى قطاعين، وكان القطاع الذى هو عضو فيه، يُحاكِم أحدًا وعشرين متهمًا بالتواطؤ فى مؤامرة «لازار»، وأثناء هذا الوقت وصلت الأخبار : «الجمعية الوطنية – بعد جلسة استمرت ست ساعات – أصددرت مرسومًا باتهام «ماكسيميليان روبسبير»، و «كوثون»، و «سان جوست»، مع «أوجيستان روبسبير» و «لوباس»، الذين طالبوا المشاطرة فى مصير المتهمين. نزل المنفيون الخمسة إلى حرم المحكمة ».

وعُلِم أن رئيس القطاع الذى يعمل فى القاعة المجاورة، المواطن «دوماس» أُلقى القبض عليه وهو على مقعده، وبينما استمرت الجلسة، سُمِعَتْ دقة الإنذار، ورن ناقوس الخطر .

تلقى «إيفاريست» وهو على مقعده من مجلس العموم أمرًا بالتوجه إلى دار البلديه ليشارك فى المجلس العام، وعند دق النواقيس والطبول أصدر قراره مع زملائه، وجرى إلى مسكنه يُقَبِّل والدته ويأخذ وشاحها .

كان ميدان « ثيونفيل » خاليًا ، والقطاع لم يجرؤ على أن يُعلن نفسه لا ضد ولا مع الجمعية الوطنية. كان الناس يُلامسون الأسوار، وينسابون فى الممرات، ويعودون إلى مساكنهم .

وعلى رنة ناقوس الخطر ودقة الإنذار، أجابت ضلف الشبابيك تتخبط مع صرير المصاريع .

المواطن «ديبون إينيه» اختبأ فى دكانه، والبواب «ريماكل» احتمى فى غرفته، و «جوزفين» الصغيرة تحتضن فى خوفٍ كلبها «موتون». المواطنة

الأرملة «جاميلان» تئن من غلاء المواد الغذائية، سبب كل سوء. وعند نهاية السلم، التقى «إيفاريست» بإيلودى لاهثةً، وخلاصتها السوداء ملتصقة على جيدها الندى .

– بحثتُ عنك فى المحكمة ولم أجدُك لانصرافك قبلى بلحظات. إلى أين أنت ذاهب ؟

● إلى دار البلدية .

– لا تذهب هناك ، ستهلك نفسك ! أُلقى القبض على «هنريوت»... والقطاعات متعطلة، وقطاع «البيك»»، وقطاع «روبسبير» قابع فى هدوء ، وأعرف ذلك لأن أبى عضو فيها ، وإذا ذهبتَ إلى دار البلدية فإنك ستُهلَك بلا داعٍ .

● أتودين أن أكون جبانًا ؟

– بالعكس، بل الشجاعة أن تكون مخلصًا للجمعية الوطنية، وأن تطيع القانون .

● القانون يموت عندما ينتصر الفاسقون .

– «إيفاريست»»، استمع إلى «إيلودى»»، استمع إلى أختك، تعالَ اجلس بجوارها، لتُهَدِّئك .

نظر إليها ، لَمْ تَبْدُ له مشتهاةً مثلما تبدو له الآن، وهذا الصوت لم يكن له وقع شهوانى ومقنع مثلما هو فى هذه المرة .

– خطوتان ، خطوتان فقط يا صديقى !

فاستدرجته نحو السطح الذى يحمل قاعدة تمثال مقلوب (تمثال هنرى الرابع). تحيط به مقاعد يجلس عليها المتنزهون والمتنزهات.

إحدى بائعات الأشياء التافهة تعرض «الدانتيلًّا»، وبائع المشروب الساخن يحمل على ظهره إناءً بصنبور ، ويُحرك الجرس، وبنات صغيرات يمرحن .

وعلى الضفة صيادون يجلسون لا يتحركون وصناراتهم فى أيديهم. كان الجو عاصفًا، والسماء مُلبدة. و«جاميلان» منحنيًا على الحاجز، شاخصًا ببصره نحو الجزيرة المدببة، والتى تشبه مقدمة المركب، كان يُنصت إلى حفيف قمم الأشجار مع الريح، وكان يشعر فى نفسه برغبة جامحة فى الهدوء والعزلة .

وكصدى صوت حلو من فكرها تَنَهَّدَ صوت « إيلودى » :

– هل تتذكر عندما كُنْتَ ترى الحقول ؟ كنتَ تتمنى أن تكون قاضيًا للسلام فى قرية صغيرة، تلك فى نظرك هى السعادة .

ولكن من خلال حفيف الأشجار، وصوت السيدة ، سمع رنين الإنذار ودقات الناقوس، والمعمعة البعيدة للخيول والمدافع على البلاط .

وعلى بعد خطوتين منه كان شاب يتحدث مع مواطنة أنيقة ، يقول :

– هل تعرفين الخبر ؟.... دار الأوبرا أقيمت بشارع «لإلوا».

عندئذ كان الهمس يدور حول اسم «روبسبير»، ولكن برهبة، لأنه ما

زال يُخْشَى جانِبُه . وتُخفى النسوة شائعات سقوطه كما يُخفين الابتسامة .

تناول « جاميلان » يد « إيلودى » ولكن يتركها فجأة ويقول :

– الوداع ! لقد أشركْتكِ فى مصائرى الرهيبة، وأَذْوَيْتُ حياتَكِ إلى الأبد. الوداع . هل فى وسعك أن تنسينى !

قالت له : هذه الليلة لا تَعُدْ إلى مسكنك، تعالَ إلى متجر «لامور بانتر». لا ترن الجرس، اقذف الشباك بحصوة، وسوف أفتح لك الباب بنفسى، سألاقيك فى المخزن .

– سوف تَرَيْنِى منتصرًا، أو لن تَرَيْنِى إلى الأبد . وداعًا ! وعندما اقترب من دار البلدية سمع ضجة ثقيلة تتصاعد إلى السماء لأيام الأعياد فى ميدان «لاجريف» يسمع قعقعة أسلحة، ويرى تلألؤ الإيشاربات والأزياء، ومدافع «هنريوت» رابضة .

ارتقى سلم الشرف، وعند دخوله إلى قاعة المجلس، وَقَّعَ فى كشف الحضور . والمجلس العام لمجلس العموم بإجماع ٤٩١ عضوًا حاضرين أعلنوا أنهم إلى جانب المُبعدين .

أمر العمدة بإحضار لائحة حقوق الإنسان، وقرأ المادة التى تقول : «عندما تغتصب الحكومة حقوق الشعب، فالثورة من أجل الشعب هى من أقدس الواجبات التى لا غنى عنها»، وكبير قضاة باريس يعلن أنه فى الانقلاب السياسى للجمعية الوطنية، مجلس العموم يُعارض الثورة

الشعبية. أعضـاء المجلس العام أقسمـوا اليمين على أن يموتوا فى مكانهم. اثنان من ضباط البلدية كُلِّفَا بالتوجه إلى ميدان «لاجريف» لِيَدْعُوَا الشعب إلى الانضمام إلى قُضاته حتى يُنقذوا الوطن والحرية.

والتقى بعضهم ببعض، وتبـادلوا الأنبـاء، وأُبديت الآراء، ومن بين هؤلاء القضـاة قليل من الحرفيين. مجلس العموم المجتمع هنا كما أسفـر عنه التطهير اليعقوبى مؤلف من : قُضـاة، ومحلفين من المحكمة الثورية، وفنانين مثـل « بوفاليـه » و « جاميـلان »، ومن ذَوِى الدخول (وهم من لا عمل لهم)، ومدرسين، وبورجـوازيين موسرين، وتجار كبار، ورءوس مُغبَّرة، وبطون تتدلى منها حُلّى بسلاسل، قليل من القباقيب، وبنطالونات، وكارمانيولات، وأغطية رأس ، وقبعات حمراء .

هؤلاء البورجـوازيون عددهم كبير، عندهم إصرار ، ولكن إذا فكرنا فى الأمـر تقريبًـا كل من تحتويه باريس من جمهـوريين حقيقيين واقفين فى مقـر البلديـة ، كما لو كـانوا على صخـرة الحرية، يحتـويهم محيط من اللامبالاة .

ومع ذلك، فقـد وصلت أنبـاء طيبـة : جميع السجـون - حيث كـان المُبعدون مسجونين - فتحت أبوابها وأطلقوا ضحاياهم .

وصل «أوجيستـان روبسبير» من الحبـس، وكـان أول من دخل دار البلدية، مُحْتَفًى به .

وفى السـاعـة الثامنة، عُلِمَ أن «مـاكسيمليان» - بعـد أن قاوَمَ طويلًا - توجه إلى مجلس العموم. كان مُنْتَظَرًا، وسوف يأتى ، وجاء : دوَّى هتاف

هائل زلزل قبـاب قصر البلدية القـديم، دخل محمـولا على عشرين ذراعًا. هذا الرجل النحيف، شديد النظافة إلى درجة الوسوسة، يرتدى زيًّا أزرقَ، وسروالًا أصفر ، كان قد اتخذ مقعده وتحدث .

وعند وصوله أمر المجلس بإنارة واجهة مجلس العموم فى الحال، فهو رمز الجمهـورية. تحدث بصوتٍ رفيع وبتأنُقٍ. تحدث بنقـاء وبإسـهاب، هؤلاء الحاضرون هناك الذين جازفـوا بحياتهم من أجله تبينوا – فى هيبة – أن هذا رجل صادق الـوعد، ورجل لجان، ومنبر، لا يتسرع فى اتخاذ أى قرار، ورجل عملٍ ثورى. اصطحبـوه إلى غرفة المداولات. والآن جميعهم هناك . هؤلاء المُبعَدون المرموقون : «لوباس»، «سان جوست»، «كوثون». «روبسبير» تكلم. الوقت الثـــانيـة عشرة والنصف بعــد منتصف الليل، ويتكلم أكثـــر . وفى ذلك الوقت كان «جـاميـلان» فى قاعـة المجلس، يلصق جبهته إلى إحـدى النوافذ، ينظر بقلق، يرى المصابيح يتصاعـد دخانُها فى الليل المظلم .

ومدافع «هانريوت» رابضة أمـام دار البلدية. وفى الميدان الذى يسبح فى ظلام دامس، جَمْعٌ غفير مضطـرب، قلق، مـرتـاب، وفى منتصف الليل وقـد مضت ثلاثـون دقيقـة، انطلقت مشـاعل من أحــد أركـان شــارع «لافانيرى»، تحيط بمفوض من الجمعية الوطنية، متقلدًا شاراته، ويُمسك بين يديه ورقــة ويقرأ فى ضوء أحمر قــرار الجمعية الوطنيــة الذى يعتبر خــارج حماية القانون أعضــاءً من مجلس العمـوم المتمرد، وأعضــاء من المجلس العام الذين يساعدونه، أو المواطنين الذى يلبون نداءه .

الخروج على القانون يعنى الموتَ دون محاكمة ! وهذا الأمر كفيل بتثبيط هِمَّة أصحاب العزيمة القوية وتوهينها. شعر «جاميلان» بجبهته أثلجت، شاهد الجمعَ الغفير يغادر الميدان . وعندما أدار رأسه رأت عيناه أن القاعة التى كانت تموج بالمستشارين منذ برهة قد خلت تقريبًا، لكنهم فى الواقع هربوا، وقد وَقَّعُوا .

الساعة الآن الثانية. النزيه يتداول فى القاعة المجاورة مع مجلس العموم والنواب المُبعدين .

«جاميلان» جابَ بعينيه اليائستين أرجاءَ الميدان المظلم. شاهد على ضوء الشموع الركائز الخشبية تتلاحم على إفريز البقالة مع ضوضاء العوارض، والفوانيس تتوازن وتتأرجح هبّت ريح قوية، وبعد لحظة هطل سيل، وأصبح الميدان مُقفرًا، وهؤلاء الذين لم يطردهم القرار الصعب، شتتهم بضع قطرات من الماء. وهُجِرَت مدافع «هانريوت». وعندما ظهرت على ضوء البرق تنطلق فرق الجمعية الوطنية فى شارع «أنطوان» وبالشارع الرئيسى، أصبحت ضواحى مجلس العموم خالية تمامًا .

أخيرًا قرر «ماكسيميليان» أن يستعيد قرار الجمعية الوطنية من قطاع «لى بيك» .

المجلس العام تسلح بالسيوف والمسدسات والبنادق، ولكن صلصلة السلاح، ووقع الخطوات والنوافذ المحطمة ملأت المجلس، وفرق الجمعية

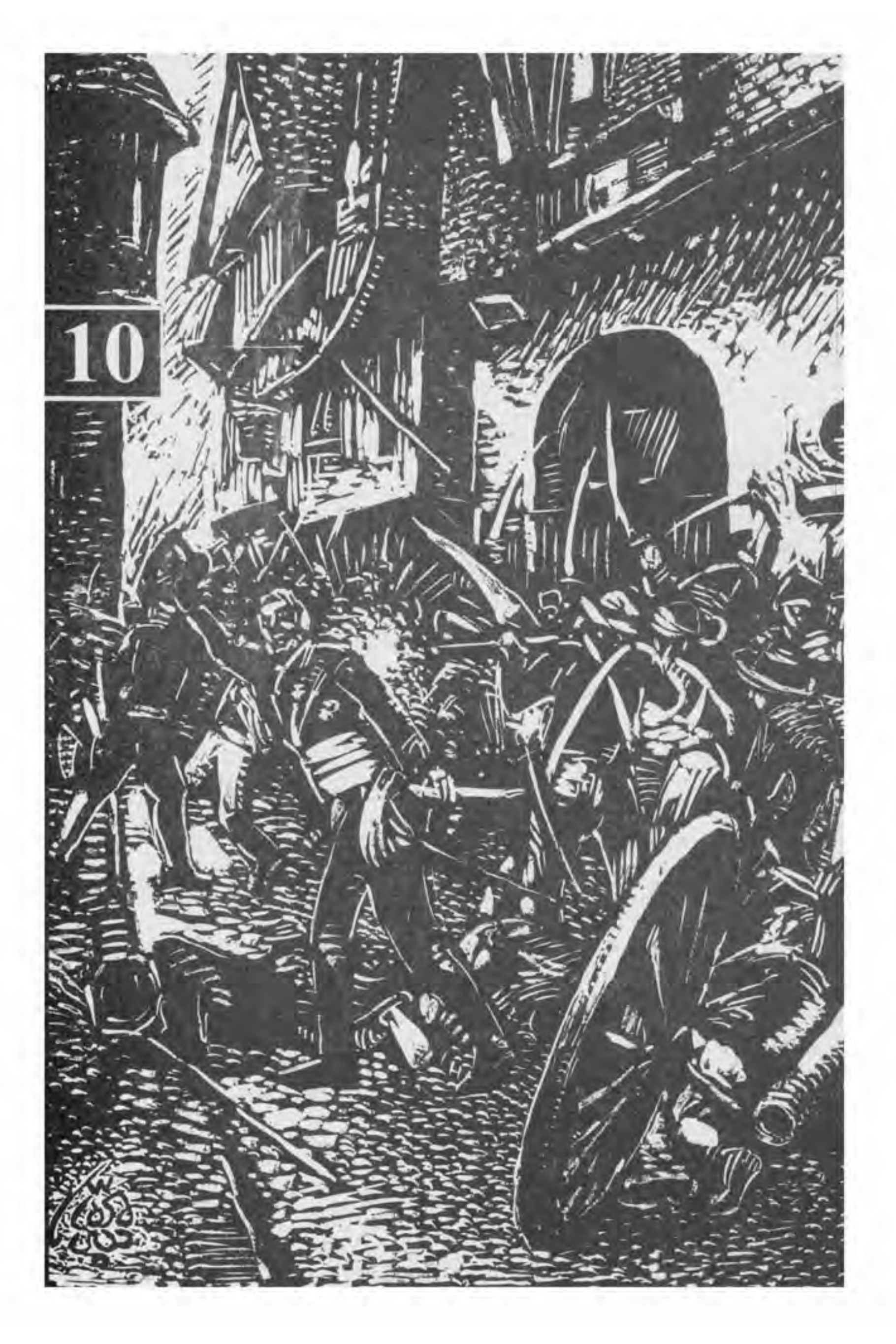
الوطنيـة مـرت من خـلال قـاعـة المداولات مندفعـة كـالجُرف الهارى، واندفعت إلى قـاعـة المجلس. وانطلقت رصـاصـة ، ويَرَى «جـاميـلان» «روبسبير» يقع مُحَطَّمَ الفَكِّ .

ويمسك «جاميلان» بمديتـه، المدية التى تساوى ستة فلسات، والذى فى يوم مَخْمَصـة قطع بها خبـزًا مـن أجل أم مُعْسِرة، وأنه فى مـزرعـة «أورانجيس» فى ليلة جميلة، «إيلودى» حفظتها على ركبتيه، وهـى تسحب الرهانات، فتحها يريد أن يغمدها فى قلبه: ولكنها اصطدمت بنتوء وانثنت على الحلقـة التى انفتحت وانجـرح أصبعين مـن أصـابعـه. وسقط «جـاميـلان» وهو يُدمى، وبـلا حـراك، ولكنه كـان يتألم من البرودة القـارصـة، وفى خِضَّم الصخـب لصراعٍ مخيف ، وبازدراء ، استمع بكل تمييز صوت الجندى الفارس « هنرى » يصيح :

– الطاغيـة لم يعـد له وجـود ، وتحطمت نجـومـه . الثـورة سـوف تستأنف مجراها المتعاظم والمخيف .

« جاميلان » فقد وعيه .

وفى السـاعـة السـابعـة صباحًا ، أرسلت الجمعيـة الوطنية طبيبًـا إليه ليعالجه . الجمعية كانت ممتلئة بالعناية من أجل شركاء «روبسبير» فهى لا تريد أن يفلـت أى واحـد منهم من المقصلة، فتنقـل الفنان الرسـام، والمحلف السـابق ، وعضـو المجلس العـام السـابق لمجلس العموم، نُقِلُوا إلى البوابة الرئيسية .


10

10

وفى اليوم العاشر ، بينما كان «إيفاريست» ينام على سرير قـذر فى زنزانة نومًـا محمومًـا ، استيقظ مـذعورًا ، وكـان خائفًـا خوفًـا لا يوصف. باريس كانت فى أُبَّهتها وبراحتها تبتسم للشمس ، وبُعِث الأمل من جديد فى قلوب المسـاجين. افتتح التجار متاجرهم، ويرى البورجوازيون أنفسهم أكثر ثراءً، والشباب أسعد حالاً، والنساء أكثر جمالاً ، بسقوط «روبسبير» .

عدد قليل فقط من اليعقوبيين، وبعـض الرهبان الدستوريين، وبعض السيدات كبار السن كانوا يرتعـدون خوفًا من رؤية الإمبراطورية تنتقل إلى الأشرار وإلى الفاسدين. وفد من محكمة الثورة يتكون من المدعى العام وقاضيين توجه إلى الجمعية الوطنية لتهنئتها بإحباط المامرات .

قـررت الجمعيـة أن المقصلة سـوف تُنقل من جـديد إلى ميـدان «لاريفـوليسيون»، وكـان الهدف من ذلك أن الأغنياء والمُرفَّهين والنسـاء الجميـلات كلهم يستطيعـون أن يروا – دون مضـايقـات – تعـذيب «روبسبير» وموعده فى نفس اليوم. الديكتاتور وشركاؤه كانوا خارجين

على القانون، ويكفى أن تثبت هويتهم عن طريق ضابطين من البلدية حتى تُسَلِّمهم المحكمة إلى الجلَّاد، ولكن ظهرت إحدى الصعوبات : الإثباتات لا يمكن إجراؤها على الشكل، نظرًا لأن مجلس العموم بأَسْره خارج على القانون . صرحت المحكمة بإجراء الإثبات للهوية عن طريق شهود عاديين.

واُقْتِيدَ الحكام الثلاثة إلى الموت مع شركائهم الأساسيين، فى وسط صيحات الفرح والخوف، واللعنات والضحكات، والرقص .

وفى اليوم التالى أُخرج « إيفاريست» - الذى استرد بعض قواه ، وتقريبًا استطاع أن يقف على ساقيه - أُخرِج من زنزانته، واقتيد إلى المحكمة، ووُضِع على مقعد المدرج حيث رآه مراتٍ عديدة مشغولًا بالمتهمين، وحيث كان الضحايا من المشاهير أو من المغمورين يجلسون منتظرين دورهم. والآن يئن المدرج تحت وطأة سبعين فردًا ، ومعظمهم أعضاء فى مجلس العموم، والبعض الآخر من المحلفين، مثل «جاميلان»، واعتبروه هو أيضًا خارجًا على القانون. شاهد مقعده، والمسند الذى كان من عادته أن يتكىء عليه، الموضع الذى كان يُرْهِب منه المساكين، الموضع الذى كان عليه أن يعانى فيه من نظرات «جاك موبيل»، و «فورتونيه شاسانى»، و «موريس بروتو»، ونظرات الاستعطاف من المواطنة «روشيمور»، والتى كانت قد ساعدت فى تعيينه محلفًا، والتى كانت مكافأتها على ذلك قرارًا بقتلها .

ورأى مرة أخرى - متصدرًا المدرج، حيث يجلس القضاة على ثلاثة مقاعد كبيرة من خشب الأكاجو المبطنة بالقطيفة الحمراء - التماثيل

النصفية لكل من «كاليبه» و «مــارات»، وكذلك تمثال «بروطس» النصفى الذى شاهده ذات يوم.

لا شىء تغير، لا الفئوس ولا شعارات الفاشيــة، ولا القلانس الحمراء وقصاصــات الورق، ولا الشتائم التى تقـذف بها الحائكات من المنصات على هؤلاء الذين حُكِم عليهم بالموت، ولا روح «فوكييه – تانفيل» العنيد ، المجتهـد فى عملــه، يُقلِّب أوراقــه بحماس، أوراق قتل الإنســان، ويُرسل كقاضٍ متكاملٍ أصدقاءَ الأمس إلى المقصلة.

المواطن «ريماكل» بواب وترزى، و «ديبـون إينيـه» نجـار فى ميـدان ثيونفيل، وعضو لجنة المراقبة لقطاع لوبون – نوف ، يعـرفان «جاميلان إيفاريســت»، كفنان ورسام، ومحلف ســابق فى محكمة الثــورة، وعضو سابق بالمجلس العــام لمجلس العموم. وكانا قد شـهـدا من أجل الحصول على حوالة حكوميــة بمبلغ مائــة فلس، على حساب القطاع، ولكن نظرًا لما كان بينهما من عــلاقة جوار وصـــداقة من المتهم، فقد أبديا المضـــايقة من تلاقى نظراتهما مع نظراته، باختصار، كــان الجو حارًّا ، وكانوا عطشى، وكانوا مضطرين إلى الانصراف لشرب كوب من النبيذ .

بذل «جاميــلان» مجهودًا لكى يصعد إلى العربة، لقــد فقد دماءً كثيرة، وجرحه يسبب له آلامًا شديدة. سَاطَ الحوذى فرسه النحيل، وبدأ الركب يتحرك فى وسط الهمهمات الساخرة .

بعض النسوة اللائى يعرفن «جاميلان» قذفنه بهذه الكلمات :

– هيـا إذن ! يا سفـاكَ الدمــاء ! أيها القـــاتل بثمانيــة عشر فــرنكًا فى اليوم!...

لم يبتسم فقلن : انظرن إليه ، كم هو شاحب ، الجبان !

كـانت هــؤلاء النسوة هن أنفسهن اللائى سَبَبْنَ – منــذ عهد قريب – المتــآمرين والأرستقــراطيين، والساخطين، والمتســامحين الذين أرسلهم «جاميلان» وزملاؤه إلى المقصلة .

انعطفت العربة إلى الشارع الرئيسى، شــارع «مورفونديس»، وصلت ببطء إلى «البون – نوف » وشارع «لامونيــه» وتوجهوا إلى ميدان الثورة، إلى منصـــة إعدام «روبسبير». كـان الجواد يتعثر، والحوذىُّ يلهب أذنيــه بالسوط فى كل لحظة .

كـــان جمع المتفــرجين الغفير يؤخـــر الموكب، مبتهجين متــزاحمين، الجمهـور يُهنىء شرطــة الدَّرَك الذين يمتطون جيـادهـم ، وعلى ناصيــة شارع « هوتوريه » تتزايد الشتائم والسباب .

وبعض الشبــاب فى مطعم جــالسون إلى الطاولات فى قــاعـات المطعم ، حسب ذوق العصر ، ووقفوا فى النوافــذ يطلون منها وفى أيديهم المناشـف، وصـاحوا :

– أيها المتوحشون، ها هم آكِلُو لحوم البشر الدماء !

وعندمــا اصطدمت العــربة بكوم مــن القمامــة لم يُرفَع خـــلال هذين اليومين الأخيرين، حيث وقعت الاضطرابات، انفجــر أولاد الذوات قائلين وهـم يضحكون :

كان «جاميلان» يفكر ، واعتقد أنه فهم :

– «سأموت لا محالة، أعتقد ذلك. من المنصف أننا نتلقى هذه الإهانات الموجهة إلى الجمهورية، والتى يجب علينا أن ندافع عنها .

كنا ضعفاء ، وجعلنا من أنفسنا آثمين بالغفران، وخُنَّا الجمهورية نحن نستحق مصيرنا. «روبسبير» نفسه الطاهر القديس أخطأ بالتى هى أحسن، وبدماثة خلقه، ومُحيَت أخطاؤه باستشهاده، وبالاقتداء به أنا خُنتُ الجمهورية، فَهَلَكْتُ ، ومن الإنصاف أن أموت معها . لقد حافظتُ على دمائى، فيُهرق دمى ! وأُهَلك ! فأنا أستحق ذلك... ».

وبينما كان يفكر هكذا إذْ شاهد لافتة «لامور بانتر»، فانهمرت فى قلبه سيول من المرارة والعذوبة. كان المتجر مغلقًا، كذلك النوافذ الثلاث الخاصة بالمطعم جميعها كانت مغلقة .

وعندما مرت العربة أمام النافذة اليسرى – نافذة الغرفة الزرقاء – امتدت يد امرأة، فى بنصرها خاتم من الفضة، أبعدت مشربية النافذة، وألقت نحو «جاميلان» زهرة قرنفل حمراء، لم تستطع يداه المقيدتان أن تتلقاها، ولكنه كان يحبها كرمز وصورة لشفتيها الحمراوين المعطرتين، كانتا تُنعشان شفتيه .

واغرورقت عيناه بالدموع، متأثرًا تَأَثُّرًا عميقًا بهذا الوداع الجميل الذى رآه يرتفع فى ميدان الثورة، ألا وهى المقصلة الدامية .

* * *

كان نهر السين يجحف بثلوج نيفوس[1] (أى بعد ستة شهور ، نهاية ديسمبر ١٧٩٤ أو يناير ١٧٩٥). وأحواض التويليرى، والجداول، والينابيع، كانت متجمدة. وكانت ريح الشمال تهب فى الشوارع بموجات من الصقيع، وكانت أنفاس الجياد تضبح بالبخار الأبيض؛ وكان الأهالى وهم يمرون عند باب صانعى النظَّارات ينظرون إلى مقياس درجة حرارة الجو .

كان أحد العاملين يمسح القطرات المتكثفة على زجاج متجر «لامور بانتر»، والفضوليون يُلقون نظرة على الصور المطبوعة التى تلائم ذوق الوقت. ومن هذه الصور صورة «روبسبير» وهو يعتصر قلبًا مثل الليمونة فى كأس ليشرب منه الدم، ومنها قطع رمزية كبيرة مثل التيجروقراطية (حكم النمر)، وذلك لم يكن سوى أُفعوانات، وثعابين، ووحوش مخيفة أطلقها الطاغية على فرنسا.

ومنها أيضًا، مؤامرة «روبسبير» المروعة، واعتقال «روبسبير»، وموت «روبسبير» .

وفى ذلك اليوم – بعد طعام الظهر – دخل «فيليب ديماهيس» متجر «لامور بانتر» يحمل تحت إبطه لوحاته، وأحضر إلى المواطن «جان بلين» لوحة قد حفرها حديثًا بالتنقيط : «انتحار روبسبير». الإزميل القاسى فى يد النحات صَنَعَ من «روبسبير» شخصًا مُقَزِّزًا إلى أقصى درجة .

---

(١) نيفوس : الشهر الرابع من السنة الجمهورية، ما بين ٢١ ديسمبر – ١٩ يناير . ويجحف : يُلقى ويرمى ويجرف .

لم يكن الشعب الفرنسى بعد منتشيًا بجميع هذه الأعمال التى تختص بالخزى والرعب لهذا الرجل الذى يتحمل عبء جميع جرائم الثورة، ومع ذلك فإن بائع الرسم والصور الذى يعرف الجمهور طلب من «ديماهيس» أن يحفر له من الآن فصاعدًا موضوعات عسكرية.

– لابد لنا من انتصارات وفتوحات، وسيوف ، وقبعات بالريش الملون، وقادة . نحن ذهبنا من أجل المجد. أشعر بذلك بداخلى، قلبى يخفق لقصة مغامرات جيوشنا الباسلة .

وعندما أحس بأى شعور فمن النادر ألَّا تحس به الناس جميعًا فى نفس الوقت. كل ما نحتاج إليه، هُم الغُزَاةُ المحاربون، والنساء، أى : مارس[1] وفينوس[2] .

– أيها المواطن «بليز»، عندى أيضًا لوحتان أو ثلاث لوحات لجاميلان، والتىَ أعطيتنى إياها لأحفرها، أهى مطلوبة ؟

● كلا ، مُطلقًا .

– وبصدد «جاميلان» ، فبالأمس، عندما مررتُ فى شارع «لوتمبل» وجدت عند بائع «روبابيكيا»، الذى يقع حانوته أمام دار «بوماشيه» جميع لوحات هذا البائس . كانت توجد هناك لوحة «أوريست وإليكترا». رأس «أوريست» التى تشبه رأى «جاميلان» جميلة حقًّا، أؤكد لك ذلك...

---

(١) مارس : إله الحرب كما جاء فى الأساطير .

(٢) فينوس : إلهة الجمال عند الإغريق .

الرأس والذراع غاية فى الروعة... وقال لى بائع «الروبابيكيا» إنه لم يكن مترددًا فى بيع هذه اللوحات إلى فنانين يرسمون عليها .... هذا المسكين «جاميلان» ! كان يمكنه أن يكون نابغة من الطراز الأول لو لم يعمل فى السياسة .

● كان له روح المجرم! أجاب بذلك المواطن «بليز». لقد أَمَطْتُ عنه اللثام فى هذا المكان نفسه، فى حين كانت غرائزه دموية، وأيضًا كانت مكبوتة، لم يكن يسامحنى قط...! كان وغدًا جميلًا .

– الصبى المسكين ! كان مخلصًا . المتعنتون هم الذين تسببوا فى هلاكه.

● أعتقد أنك لا تدافع عنه يا «ديماهيس»!... فهو لا يستحق الدفاع عنه .

– كَلَّا أيها المواطن «بليز»، لا يمكن الدفاع عنه .

ويربتُ المواطن «بليز» كتفَ «ديماهيس» الجميل ويقول :

● الزمان تغير ، ويمكن أن ندعوك «بارباو» الآن، إن الجمعية الوطنية تذكر المُبعدين... فيمكنك يا «ديماهيس» أن تنقش لى صورة لشارلوت كورداى.

دخلت المتجر سيدة سمراء، تلتف فى فراء، وتبدو عليها العظمة، وحيت المواطن «بليز» بإيماءة خفيفة، إيماءة ودية ورزينة. كانت «جولى جاميلان»، ولكنها لم تعد تحمل هذا الاسم المشين، أطلقت على نفسها

اسم «المواطنة أرملة شاسانى»، وكانت ترتدى تحت معطفها عباءة حمراء، إكراما لقمصان الإرهاب الحمراء .

كانت «جولى» فى بداية الأمر تشعر بالنفور من عشيقة «إيفاريست»، وكان كل ما كان يتعلق بأخيها يُعتبر كريهًا بالنسبة لها .

ولكن المواطنة « بليز » – بعد وفاة « إيفارست » – استقبلت الأم الثكلى عندها فوق سطوح المتجر «لاموربانتر». و «جولى» أيضًا كانت لاجئة إليه، ثم عثرت على مكان لها فى محل لبيع الملابس فى شارع «لومبارد». وشعرها القصير، «على طريقة الضحية»، ومظهرها الأرستقراطى، وحِدَادُها، كل ذلك كان يجذب إليها تعاطف أولاد الذوات. و «جان بليز» الذى هجرته «روز تيفينان» نصف هجر قَدَّمَ إليها خدمات قبلتها منه. فى ذلك الوقت كانت «جولى» تحب أن ترتدى ملابس رجال، مثلما كانت تفعل فى الأيام المأساوية، وأوصت بتفصيل ملابس جميلة تليق بشاب أنيق، وكانت تذهب دائمًا حاملة عصًا غليظة فى يدها، وتتناول طعام العشاء فى بعض «كباريهات سيفر أو مودون» مع فتاة عاملة فى محل أزياء. لا يُعوِّض حزنها أى عزاء عن موت زوجها الشاب الذى تحمل اسمه، هذه الأنثى «جولى» لا تجد أى راحة فى حزنها إلَّا فى خوفها، وعندما كانت تقابل أى يعاقبة كانت تُؤلِّب ضدهم المارة بإطلاق صرخات الموت. كان يتبقى لها بعض الوقت لتقضيه مع أمها، التى كانت بمفردها فى غرفتها تتمتم على سبحتها أدعية طوال اليوم. لقد أصبحت ثكلى فى ابنها الذى انتهت حياته نهاية مأساوية، وتشعر بالألم لذلك .

لقد أصبحت «روز» الصديقة المستديمة لإيلودى، والتى كانت بكل تأكيد تنسجم مع حمواتها .

سألت المواطنة «شاسانى» :

– أين إيلودى ؟

ويُظهر «جان بلين» بأنه لا يعرف مطلقًا .

كان يهدف من ذلك إلى رسم خطة. جاءت «جولى» لتصطحبها لزيارة «لاتيفينان» فى شارع «مونصو»، حيث الكوميديانة تقيم فى منزل صغير بحديقة إنجليزية .

فى البداية الرئيسية كانت «لاتيفينان» قد تعرفت على مُوَرِّد كبير للجيوش ، هو المواطن «مونفورت». كانت أول من خرجوا من هذا السجن بتوسل من «جان بلين»، وحصلت على الإفراج للمواطن «مونفورت»، الذى لم يكد يتحرر حتى زود الفِرَق بالمواد الغذائية، وضَارَبَ على أرض «حى المشتل» .. وقد شَيَّدَ المهندسون : لودور، وأوليفين، وويللى، فيهما منازلَ جميلة، فى ظرف ثلاثة أشهر، ومن ثم ارتفعت قيمة الأرض فيها إلى ثلاثة أمثال .

كان «مونتفورت» منذ أن سُجن فى «لوكسيمبورج» عشيقَ «لاتيفينان»، أهدى إليها فندقًا صغيرًا يقع بالقرب من «تيفولى» وشارع «دى روشيه»، كانت قيمته عالية، ولم يكلفها شيئًا ، وبيعت الأسهم المجاورة، واسترد قيمتها عدة مرات .

كان «جان بليز» رجلًا شهمًا، وكان يعتقد أنه لابد للمرء أن يتحمل ما لا يستطيع مَنْعه، فترك «لاتيفينان» إلى «مونتفورت» دون أن يختلف معها.

وبعد وقت قصير من وصول «جولى» إلى «لامور بانتر» نزلت «إيلودى» إلى المتجر وهى فى كامل زينتها، وبالرغم من قسوة الطقس، فإنها كانت ترتدى تحت معطفها ثوبها الأبيض العارى، كانت تبدو شاحبة الوجه، ناحلة القوام، ونظراتها تسرى واهنة، وكل كيانها كان ينطق بالشهوة. ذهبت المرأتان عند «لاتيفينان» حيث كانت تنتظرهما. اصطحبهما «ديماهيس»، والممثلة كانت تستشيره من أجل زخرفة فندقها، وهو كان يحب «إيلودى»، والتى كانت فى هذا الوقت أكثر من شبه مصممة على ألّا تتركه يعانى أكثر .

وعندما مرت السيدتان عند «مونصو»، حيث دُفن تحت طبقة من الجير، هؤلاء الذين نُكِّل بهم فى ميدان «لاريفوليسيون»، قالت « جولى » :

– هذا حسن أثناء البرد ، ولكن فى الربيع فإن الراوائح الذى تنبعث من هذه الأرض تتسبب فى تسمم نصف المدينة .

استقبلت «لاتيفينان» صديقتيها فى غرفة استقبال أثرية، حيث كانت مقاعدها الوثيرة وكنباتها مرسومة بريشة «دافيد»، وبحفر بارز رومانى، وكانت منسوخة بالطريقة التدرجية (طريقة كان يستخدمها الفنانون فى القرن الثامن عشر فى فرنسا، يستخدم فيها الفنان لونًا واحدًا،

متدرجًا من الغامض إلى الفاتح، أو بالعكس)، ويسود ذلك كل الحوائط، وفوق التماثيل، والتماثيل النصفية، وشمعدانات مدهونة بالبرونز .

وكانت تضع باروكة مُجَعَّدة فى لون القش الأصفر ... فى هذا العصر كانت الباروكات منتشرة جدًّا ، كان يُقَدَّمُ منها اثنتا عشرة، أو ثمانى عشرة كهدية من الخطيب إلى خطيبته . وكانت ترتدى ثوبًا ضيقًا (على الطريقة الفينوسية) يحبس جسدها كأنه غلاف .

ثم ألقت بمعطف على كتفيها ، واصطحبت صديقتيها وفنانَ الحفر إلى الحديقة التى يرسمها «لودو»، والتى لم تكن سوى مجموعة فوضوية من الأشجار العارية، وبقايا مواد بناء. وكانت تعرض فيها – رغمًا عن هذا – كهفَ فينيال[1]، وكنيسة صغيرة قوطية بناقوس ، ومعبدًا ، وحامولة .

وتقول مشيرة إلى باقة من الصنوبريات : أريد أن أُقيم نصبًا تذكاريًّا للمسكين «بروتو ديزيليت». لم أكن أتجاهله، كان ودودًا. لقد ذَبَحَهُ الوحوش، فبكيته كثيرًا . «ديماهيس»، أُريدكَ أن ترسم لى جَرَّةً فوق عَمُود.

وأضافت فى الحال :

– شىء مؤسف ... كنت أريد أن أُقيم حفلَ باليه هذا الأسبوع، ولكنَّ جميعَ عازفى الكمان محجوزون لمدة ثلاثة أسابيع مقدمًا. المواطنة

---

(١) كهف مشهور بإسكتلندا .

«تاليــان» تقيم كل مســاء حفلة رقص. وبعــد تناول العشــاء، اصطحبت عربة «لاتيفينان» الصديقــات الثلاث » و «ديماهيس» إلى مسرح «فايدو»، وكان كل مــا هو أنيق في باريس مجتمعًا فيــه. النساء، وتسريحاتهن «على الطريقة القديمة »، أو «على طريقة الضحية»، وبأثواب مفتوحة أرجوانية أو بيضاء، أو باللون الذهبي، والرجال يرتدون «ياقــات» سوداء مرتفعة جدًّا ، وتختفي ذقونهم في أربطة عنق بيضاء عريضة.

كان الإعلان عن مسرحية «فيدر»[1] و «كلب الجنايني». كانت الصالة بأكملهــا تقــول النشيــد المُحَبَّــب إلى الشبــاب الأنيق وأولاد الذوات، وهو «صحوة الشعب».

فُتح الستار، وظهر على المسرح رجل ضــخم وقصير : كان هو «لايس» الشهير، وشَدَا بصوته الجميل الصداح :

- أيها الشعب الفرنسي ، شعب الإخوان !.....

ودَوَّى تصفيق هائل ، حتى أن كريستال الثُّريا سمع رنينه. ثم تتناقل بعض الهمهمــة، وأجاب أحد المواطنين بقبعــة مستديرة، أجــاب من ردهة المسرح بالنشيد الوطني الفرنسي :

- هيا يا أبناء الوطن ! .....

واختنق هذا الصوت وسط الهتافات ، ودوت الصيحات :

- ليسقط الإرهابيون ! الموت لليعقوبيين .

---

(١) رواية لراسين .

ثم طلبوا من «لايس» أن يصدح مرة أخرى بالنشيد «الثيرميدورى» :

– أيها الشعب الفرنسى ، شعب الإخوان !....

وفى جميع صالات العرض كان يوجد تمثال نصفى لمارات على عمود أو على قاعدة ، وفى مسرح «فايدو» كان هذا التمثال النصفى قائمًا على قاعدة صغيرة، من ناحية «يمين الممثل»، على إطار البناء الذى يُغلق المسرح.

وبينما كان «الأوركسترا» يعزف افتتاحية «فيدر» و«هيبوليت»، أشار شاب أنيق بعصاه الغيظة إلى التمثال النصفى لمارات، وصاح :

– ليسقط « مارات » !

وصاح كل من فى القاعة مُرددين :

– ليسقط « مارات » ! ليسقط « مارات » !

وساد الجمع أصواتٌ بليغة تقول :

– إنه لمن العار أن يظل هذا التمثال النصفى قائمًا !

– «مارات» الفاجر يسود فى كل مكان خزيًا لنا ! إن عدد هذه التماثيل النصفية له تساوى عدد الرءوس التى أراد قطعها .

– أيها الضفدع السام !

– أيها النمر ! أيها الثعبان الأسود !

وفجأة صعد أحد المتفرجين على حافة «اللوج» الذى يجلس فيه، ودَفَعَ بالتمثال ، وقَلَبَهُ . وهوى الرأس المصنوع من الجبس وتناثر قطعًا على رءوس الموسيقيين، وسط تصفيق جميع من فى القاعة، ثاروا، ونهضوا وهتفوا بنشيد «صحوة الشعب» :

– أيها الشعب الفرنسى، شعب الإخوان !....

ومن بين المغنيين المتحمسين، تعرفت «إيلودى» على الجندى الفارس الجميل، كاتب المدعى الصغير «هنرى»، حبها الأول .

وبعد العرض استدعى «ديماهيس» الجميل عربة، واصطحب المواطنة «بلين» إلى متجر «لاموربانتر». وفى العربة أمسك الفنان بيد «إيلودى» بين راحتيه قائلًا :

– هل تُصدقين يا «إيلودى» أننى أحبك ؟

● أصدقك ما دُمْتَ تحب كل النساء .

– أحبهن فى شخصِكِ أنتِ .

ابتسمت «إيلودى» وقالت :

● قد أضطلع بمهمة عظيمة، بالرغم من الباروكات السوداء اللون والشقراء والصهباء الواسعة الانتشار، إذَنْ فلأَتَهيَّأْ لكى أكون – من أجلك – جميعَ أنواع السيدات .

– « إيلودى » أُقسم لكِ .....

● مــاذا ! قَسَم أيها المواطن «ديماهيس» ؟ إمَّــا أنك حَسَن الطوية، أو أنك تظنننى ساذجة.

لم يجد «ديماهيس» شيئًا يجيبها بــه . واعتبرت نفسـها هى المنتصرة، بأنها انتزعت منه روحه .

وعلى ناصية شــارع «لالوا» سمعوا أغــانىَ وصياحًا، ورأوا أشبــاحًا تتحرك حول جمرات نيران، كانت مجموعة من الشباب المتأنق الذين بعد أن خرجوا من المسرح الفرنسى قد أحرقوا تمثالًا يمثل صديق الشعب.

وبشارع «هونورية» اصطدمت قبعـة الحوذى المقرنة بتمثال مضحك لمارات معلق على المشنقة.

عَبَّرَ الحوذى عن سروره بهذا اللقــاء ، واستدار نحــو البورجــوازيين، وقص عليهم كيف أنه فى مساء اليوم الســابق لطَّخَ بائع الكرشة فى شارع «مونتورجاى» رأسَ «مارات» بالدماء وهو يقول : «هذا ما يحبه»، وكيف أن بعض الصبية فى سن العــاشرة قد قذفوا تمثــاله النصفى بالقاذورات، وبأى الألفاظ كان المواطنون يصيحون : «ها هو ذا مُسْتَقَرَّهُ !».

وبعد ذلك سُمعت الأغنية عند جميع المطاعم وبائعى الليمونادة :

– أيها الشعب الفرنسى ، شعب الإخوان !......

وصلت «إيلودى» إلى متجــر «لاموربانتر»، وقفــزت من العــربة وهى تقول :

– وداعًا ، مع السلامة !

ولكن «ديماهيس» توسل إليها بلطف، وتذلَّلَ لها بمنتهى الرقـة، قائلًا بأنها لا تواتيها الشجاعة لتتركه على الباب .

قالت : الوقت متأخر ، ولن تبقى إلَّا لحظة .

وفى الغرفـة الزرقاء نَزَعَـتْ عنها معطفها ، وظهـرت فى ثوبها الأبيض على طريقة القدماء، ممتلئة ودافئة ، وقالت له :

– ربما تشعر البرودة، سأوقد النار ، إنها مُعَدَّة .

أشعلت القداحة، وأشعلت نيران المدفأة. احتضنها «فيليب» بتلك الرقة التى تظهر القوة، وشعـرت بعذوبة غريبة . ولما شعـرت بأنها استجابت تحت تأثير القبلات، فتملصت منه قائلة :

– دعنى .

ثم خلعت غطاء رأسهـا ببطء أمـام المدفأة، ثم نظرت بكآبة إلى الخاتم الذى كانـت تضعه فى بنصر يدها اليسرى، خاتم صغير مـن الفضـة، حيث صورة «مارات» كانت متلاشية، واختفت معالمها .

أخـذت تنظر إليه حتى اغـرورقت عيناها بالدمـوع، وحجبت نظرها ، فخلعته بهدوء وألقت به فى النار .

حينئذ تألقت بالدمـوع والابتسامـة، وزاد الحب والحنان من جمالها، فألقت بنفسها بين أحضان «فيليب».

كـان الـوقت متأخـرًا عندمـــا فتحت المواطنة «إيلودى» بـاب الشقـة لعشيقها، وهمست إليه فى الظلام :

– وداعًا يا حبــى ... حان وقت عودة أبى، إذا سمعـت جلبة على السلم فاصعدْ بسرعــة إلى الطابق العلوى، ولا تنزل إلا بعد ما يزول الخطر فى أن يراك أحد . ومن أجل أن أفتح لك باب الشــارع، دُقَّ ثلاث دقات على نافذة البوابة . وداعًا يا حياتى ! وداعًا يا روحى !

ومَضَتْ آخــر جَـذْوَة فى المدفأة. وتترك «إيلودى» رأسـهـا يهبط مــرة أخرى على الوسادة ، وهى سعيدة ومتعبة .

***



أناتول فرانس

- ولد أناتول فرانس في السادس عشر من أبريل ١٨٤٤، والده فرانسوا - نويل تيبو (١٨٠٥ - ١٨٩٠)، صاحب مكتبة «فرانس»، وهي مكتبة زاخرة بالكتب والوثائق ذات الطابع الخاص عن الثورة .

- تلقى دراسته الثانوية في : «كولليج ستانيسلاس»، حصل على البكالوريا في ١٨٦٤ - في عام ١٨٧٣، أصبح فرانس شاعرًا بارناسيًّا مرموقًا ، وأصدر «قصائد ذهبية».

- أمين لمكتبة مجلس الشيوخ في عام ١٩٧٦. كتب «الأفراح الكوارنثية».

- تزوج من مارى - فاليرى جيران دى سوفيل في عام ١٨٧٧، وكان في ذلك الوقت صحفيًّا وناقدًا أدبيًّا .

- في عام ١٨٧٩، أصدر أول رواية نثرية (جوكاست والقطة العجفاء) .

- في عام ١٨٨٤، أصدر (كنائس الخوف) على شكل حلقات في صحيفة ، (من الثانى من مارس إلى السادس عشر منه)، كما أصدر رواية مناهضة للثورة، مُستلهمة من حياة «أندريه شينييه»:

- في عام ١٨٩٢، انفصل عن زوجته ، واستمر في إصدار سلسلة من الروايات الناجحة، مثل «الزنبقة الحمراء»، والتى حققت نجاحًا مرموقًا ، وفى ١٨٩٦ تم انتخابه للأكاديمية. ثم اندمج في مجموعة سياسية وأدبية جديدة في عام ١٨٩٨.

– فى عام ١٩١٢ ، أصدر رواية « الآلهة عَطْشَى ».

– فى عام ١٩١٤، أصدر «ثورة الملائكة»، وهى تعبر عن حبه للسلام ونبذه للحروب ، وكانت بداية الحرب العالمية الأولى، وعاش منعزلاً .

– فى عام ١٩٢١ ، حصل على جائزة نوبل فى الآداب .

– فى عام ١٩٢٤ ، توفى أناتول فرانس بعد حياة مليئة بالإنتاج الأدبى والسياسى، وكان الفضل يرجع إلى مكتبة والده التى ساعدته على تغذية ميوله، أدبية كانت أم سياسية .

* * *

ظهرت رواية « الآلهة عَطْشَى » فى الفترة ما بين الخامس عشر من نوفمبر ١٩١١ إلى الخامس عشر من يناير ١٩١٢ فى مجلة باريس، وفى شهر يونية رأت النور فى المكتبات .

ورواية «الآلهة عَطْشَى» عبارة عن لوحة فنية رائعة تعبر عن الموقف الذى اتخذه كاتبنا حيال الثورة الفرنسية، فهى ليست مجرد عمل أدبى فحسب ، بل هى أيضًا تاريخ ومناقشات حول الثورة، من رجل محب للسلام، ينبذ العنف ويمقته، ولا يميل إلى إراقة الدماء وسفكها، ولا إلى الثورات التى تُراق فيها الدماء .

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل هى تصوير وتحليل للطبقات والشخصيات التى ظهرت أثناء وبعد الثورة، وتجسيد للشعور والأحاسيس التى كانت مدفونة وكامنة فى أعماق نفوس بعض فئات

الشعب، والتى كانت مفعمة بالحقد والكراهية للملك والعائلة المالكة، خاصة «مارى أنطوانيت»، والتى تسمى فى الرواية على لسان الشعب : «النمساوية».

انفجرت هذه الأحاسيس الدفينة وانطلقت من مكامنها تقتل وتذبح، وتريق الدماء، وتقطف الرءوس، ليس فقط من أفراد العائلة المالكة، بل أيضًا من النبلاء والأثرياء ، وكبار الشخصيات، بتوجيه التهم الملفقة إليهم، وإدانتهم باللاثورية، واللاوطنية، والعداء للجمهورية، والخيانة، لذلك هرع الكثيرون بالهجرة إلى الخارج .

ومن ثم ، كانت هذه اللوحة القاسية عن التزمُّت الثورى، بالرغم من أن اليسار الفرنسى كان يوقر ويحترم اسم «أناتول فرانس».

ومن أجل أن يتسنى لنا تفهم تأثير هذه الرواية فى عام ١٩١٢، يجدر بنا العودة إلى الانطباع الذى كان يسود فرنسا عن الثورة الفرنسية، ومن أجل تفسير المهارة العجيبة، والعبقرية الفذة للمؤلف، ودرجة استيعاب وتركيز كاتب يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا، وقدرته على التعبير القوى والسليم لكل صور البلاغة فى الفكر والأسلوب، وكيف أن شاعرًا بارناسيًا (أى يتبع مدرسة شعرية معينة)، يتحول إلى رجل شعبٍ يهتم به، ويشعر بما يكابده من جَوْر واضطهاد وجوع .

ومن أهم ما كان له تأثير فى ذلك الوقت فى إثارة الإحساسات السياسية والدينية، وقسَّمَ فرنسا إلى معسكرين، القضية الشهيرة، قضية الضابط «درايفوس»، وهو ضابط فرنسى من أصل يهودى، وُلد

فى مولهوز (١٨٩٥ – ١٩٣٥)، وكان قد أُدين ظُلْمًا فى قضية تجسس، وفى عام ١٨٩٩ صدر حكمٌ بالعفو عنه، ورد اعتباره سنة ١٩٠٦ بعد إعادة النظر فى الحكم ١٨٩٧ – ١٨٩٩، ومن ثم كان الانقسام إلى معسكرين : معسكر يمثل أنصار «درايفوس»، وهم مناهضون للروح العسكرية، ومعسكر للأكليروس، ويتجمعون حول رابطة حقوق الإنسان، أمَّا المناهضون لدرايفوس فهم مناهضون للسامية، ومناصرون للروح العسكرية، وأنصار الأكليروس يتجمعون حول رابطة الوطن الفرنسى، ثم بعدها للجنة العمل الفرنسى .

كما قدم أناتول فرانس (خاصة فيما بين عامى ١٩٠٠ – ١٩٠٥) ضمانات للآداب الفرنسية، والكلاسيكية، والمعارف.

كما قدم لنا فرانس توازنًا مرهفًا لفكرٍ رفيع، والتمتع بالحياة، والتبحر فى العلم .

وكاشتراكى، نَشَرَ فرانس كتاب «آراء اشتراكية». وكان يُلقى خطبًا فى كثير من المناسبات الخاصة، (فى نومفبر سنة ١٩٠٤) لإشهار الحزب الاشتراكى الذى يوجد حديثًا .

إن رواية «الآلهة عطشى» تُعد متزامنة للحب الذى يُكِنُّه المؤلف للماضى، والنفور من التاريخ .

فى ذلك العصر كانت وجهات النظر مختلفة بين الفلاسفة والمؤرخين، والأدباء والشعراء، من أمثال روسو، وتين، وروبسبير، ودانتون،

ولامـــارتين، وهوجــو، وديدرو، فمنهم مــن يرَى أن الثــورة مُناهضـــة للكلاسيكيـــة، وجـوهرها رومـــانتيكى ودينى، وهى وليـــدة روســو «الديكتاتور الكاهن»، و«ضلال الفكر» .

ومن هنا ، فمنهم من يرى أن رواية «الآلهة عَطْشَى» مـا هى إلَّا رواية عن الثورة، وليست قصة ضد الثــورة، أو مناهضة للثورية، ولكن عندما قــرءوها عرفــوا ما يُسبب احتــدام أناتول فــرانس تجاه الثورة، وأن مــا يُسبب الخوف هو «جان جاك روسو».

صــدرت رواية «الآلهة عَطْشَى» معـــاصرة لنظريات عــالِم الاجتماع «جـوستـــاف لوبون» فى علم نفس الشعـــوب سنة ١٨٤٩، و«علم نفس الثــورات»، فى زمن كــان فيـه رؤســاء الأحــزاب مُحاطين بهالة دينيــة فى الجمعيـــــــات، وبين الجماهير، والمحلّفين، حيث تنتصر دائمًا المواهــب الروتينية، مما أدى إلى تفاقم الحالة فى فــرنسا، حتى أنها بعد الثورة – فى سنة ١٧٨٩ – كانت تخوض حربًا ضد الحلفاء .

ويُمكن اعتبار «الآلهة عَطْشَى» هجــاء ضد رجــال الكنيسة يثير القلق، بسبب الإدانات، وأحكام الإعــدام، وعمليــات الإبعــاد، والتُهــم المُلَفَّقَــة، واللعنات التى يُطلقهـــا كل من المتـــزمّتين، والمتعصبين، والمتعطشين إلى الدماء، ضد اللامبــاليين السلبيين، والمستضعفين، وذلك سوف يقابلنا فى شخصيــات الرواية، من أمثــال «ديبـون إينيــه» الذى يعمل نجــارًا، وفى شخصيــة البواب، والفتــاة «أثينابيس» و «بلين» والد إيلودى، و«جــولى» شقيقــة إيفـــاريست، التى سلَّمت نفسـهـا لأحـد القضـــاة الانتهــازيين، و«بروتو»، والراهب «لونجيمار».

وبالرغم من العنوان التراجيدى لهذا الكتاب، فهو ليس كذلك، ولكنه جدير بأن يقدم التراجيديا كشكل مؤثر للوهم المتكبر والمشئوم عند البشر.

وأناتول فرانس، أديب حاذق، يجيد استخدام أسلوب الطباق .

إن فلسفة فرانس تنبع من الشكل الكامل للشعور بالوحدة والوسيلة للتغلب عليها، فمن جهة الزمن وشكل الحياة أمر الإنسان لا يعنى شيئًا، فالإنسان لا حول له ولا قوة، ولا يملك شيئًا تجاه نفسه، فهو لا يحتفظ بشىء ولا يُغَيِّرُ شيئًا، ولكنه من عبيد التغيير الكونى.

ومن جهة أخرى فإن مصدر اليأس عند فرانس هو مصدر الشفقة والسخرية، وإن الحماس العاطفى المريض بين «فكى المقصلة» يُشعل جذوة غموض الحياة، الذى يوجه الموت نفسه بتحريض الحواس، لأن الحواس هى الحياة بأسرها.. وفى نظره أن الحب صار ساديًّا.

كانت الثورة الفرنسية بالنسبة لفرانس مرجعًا دائمًا، ولكنه لم يستخرج منها إلَّا أعمالًا صغيرة، فيما عدا «الآلهة عَطْشَى»، الرواية الثورية العظيمة المنتظرة .

إذن لم تكن نتاجًا ظرفيًّا، بل على العكس إنها نتاج فنى جوهرى، حيث تظهر ثوابت فكر وثوابت فن. ولكن من أجل تعريفها لم يكن فرانس يجهل الظروف، فهو لم يكن يجهل شيئًا عن المجازفة التى تمثلها صورة الثورة الفرنسية إلى عام ١٩١١ تقريبًا .

وإيفـاريست – بطل الرواية – كـان مُخلصًا وأمينًا إلى درجـة أدَّت به أخيرًا إلى المقصلة، وذاق مـا أذاقته للعشرات.. لم يكن يُجارى التيـار الذى يعيشـه، وقد أدى به ذلك إلى التـزمُّت والتعصُّب ضد كل من يجده ضـد الثورة، حتى ولـو كانت أخته «جـولى» نفسها، فقـد حَكَم على أصدقـائه بالإعدام، وفى النهاية استيقظ ضميره، وكان يـؤنب نفسه ويلومها على ما فعله وما يفعله، ولكنه كان فى نفس الوقت يُبرِّرُ أن ما يفعله ضد الإنسانية هو واجب لكى يعيش الوطن وتحيا الجمهورية : « نريق دماءنا ، فى سبيل الوطن ».. و« الموت أو النصر ».

على العكس من إيلودى – بطلة الـرواية – فبـالرغم من صغـر سنهـا فإنها تبـدو مُحنَّكة، كأنها تبلغ من العمـر عتيًّـا ، فهى لا تُقيم وزنًا إلَّا لمصلحتها الشخصية وإرضاء شهـوتها ، بدليل أنها بعد أن أُعدِمَ عشيقها «جاميـلان» ألقت شباكهـا على «ديماهيس»، وأقامت معـه علاقـة كالتى كـانت قائمـة بينها وبين «إيفـاريست». ومن قبلهما كان جندى الخيـالة الجميل «هنرى»، والـذى كـان يعمـل حـارسًـا تحت إمْـرة السيـدة «روشيمـور» التى كـانت لها اتصـالات هـامـة، وهى التـى توسطت لإيفاريست لتعيينه مُحلِّفا، وكانت مكافأتها منه، «فكى المقصلة».

ويرى «أناتول فـرانس» أن زعم الثـورة بالتحكم فى الزمـان والمكان، وتغيير الفنون والأفكار، والعادات، وأسماء الشهـور والشوارع، وصـور القصاص، أمر صبيانى وخطير، فالثـورة تفرض علامات ورموزًا، فهى غير قـادرة على تغيير الحيـاة، وأشـد أنواع الجرائم خطورة هى الجرائم

الفعلية. فباسم الحرية «كم من الجرائم قد ارتُكِبَتْ!»، وكراهية الطغيان تم اعتقال الكوميديين الفرنسيين من أجل كلمة تسامح. هذا الهياج البليغ الذى كَدَّرَ الواقع والحقيقة، وألهب الحواس، واستدعى ثأر الطبيعة.

ونجد عنصرًا مشتركًا بين كل من الثلاثى : «بروتو»، والأب «لونجيمار»، والفتاة «أثينايس»، وهو الجُبْن، يجعل من الشجاعة عنصرًا لا طائلَ منه.. أدانهم الإرهاب، فكانوا يثيرون القلق، أو يُضحكون أصحابهم فى السجن .

هكذا، وباختصار شديد ، يقدم لنا «أناتول فرانس» لوحة شاملة لفرنسا فى عهد الثورة، وفترة الحرب، وقيام الجمهورية.. «الآلهة عطشى» تناولت الحالة السياسية والاجتماعية والعسكرية. وكذلك تناولت الفن، سواء فن التصوير والنقش الذى كان سائدًا حسب ذوق العصر، وكذلك فن المسرح، حيث كان فى عصره الذهبى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ولم يسلم من الإرهاب الثورى .

مصطفى كامل خليفة



مصطفى كامل خليفة

- ليسانس آداب قسم اللغة الفرنسية وآداب - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٣ .
- دبلوم عال فى الترجمة التحريرية والفورية من كلية الآداب - جامعة القاهرة بدرجة جيد جدًّا ١٩٨٢ .
- مترجم بوزارة الداخلية من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٣ .
- مدرس لغة فرنسية من ١٩٧٣ إلى ١٩٨٢ بالمدارس الثانوية .
- عمل مترجمًا بوزارة الدفاع والطيران بالمملكة العربية السعودية .



7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقى .. أندريه جيد

العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواى

الأم الكبيرة ..جابريل جارسيا ماركيز

صحراء الحب .. فرانسوا مورياك

شعب يوليو .. نادين جورديمر

أمير الذباب .. وليام جولدينج

أنطوانيت .. رومان رولان

الغريب ..ألبير كامى

أحلام الناى ..هيرمان هسه

الأم .. جراتسيا ديليدا

ولم يقل كلمة .. هاينرش بل

مراعى الفردوس .. جون شتاينبك

مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف

رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك

الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

تصميم ورسوم : محمد حجى

الدار المصرية اللبنانية

